فريق
متميزون
E-BOOK

IBN OMAR

محمد حمودة

ابن عُمر

رواية

كتوبيا
KOTOBIA
PUBLISHING
HOUSE

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ابن عُمر

رواية..

الكاتب: محمد حمودة.

عن الرواية..

يعيش إبراهيم بن عمر، نجل مساعد الكخيا، وتلميذ الولي الصالح ضياء الدين، في نهايات القرن السابع عشر، إبان حكم الأسرة القرمانلية حيث فتك الطاعون بأرواح الآلاف من الأبرياء حتى أنه أفنى ربع سكان أيالة طرابلس الغرب، هذا ناهيك عن الحروب الضروس والثورات الداخلية المحتدمة.ولا يكاد الوضع يهدأ حتى تواجه الأيالة استعمارًا خارجيًا في صورة والٍ جديد يسمى علي الجزايرلي.

كل هذا وأكثر في هذا العمل الأدبي الذي مزج الحقيقة المثبتة والخيال الجامح في رواية تسطر تاريخ المدينة البيضاء المنسي

محمد حمودة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء..

لرجلٍ قد فارق دنيانا منذ ما يزيد عن ألف عام، لكنّ ذكراهُ ستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أهدي هذا العمل المتواضع للإمام محمد بن إدريس الشافعي، وتعبيرًا منّي لمكانة هذا الرجل العظيم دُبِّجت صفحات كتابي بأشعاره البديعة، متمنّيا أن تُسر البعض كما أسرتني لأيام طويلة.

ولا أنسى أثيرتي اللتين علّمتاني معنى الحياة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(المقدّمة)

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلا

وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ

(١)

أكتوبر ١٧٨٤، إيالة طرابلس الغرب..

في كل صباح تشرق الشمس على المدينة البيضاء ذات الأسوار العالية التّي تحميها الأبراج والمآذن فتتخلّلها جذوع النخيل النحيفة بين زقاق وآخر، تتهدّل أسعافها الخضراء ببهاء فتوجس بأنّها قطعة من الجنة المفقودة، مدينة تتألّق في أشعّة شمس الصباح التّي تعبر قلعتها وجدران منازلها البيضاء الممزوجة ببعض الخضار. ومع بداية يوم جديد تفتح أبوابها الثمانية أمام الوافدين لأسواقها وحاناتها.

- بالك، بالك ([1])

يقفز المرء جانبًا أمام التحذير الفجائي ذي النبرة الجافة، ليخلي الطّريق أمام حمارٍ هزيلٍ لا وقْع لحوافره الصّغيرة على ذلك الشارع الرّملي الأبيض. أعدادٌ لا حصْر لها من هذه الحيوانات الصّغيرة المحزنة تذْرع شوارع المدينة رازحةً تحْت عبْء أحْمالها من سلال القشّ التّي قد تكون مليئةً بالأزيار الفخارية أو أيّة أحمالٍ أخرى، إذ أنها في حيرة يمينًا ويسارًا، وهي متواضعةٌ وحزينة دائمًا.

صرخات الباعة في الشوارع جوقة تختلف ألحانها بين عازف وآخر، فثمّة لحن لبائع البرتقال، ولحن لبائع البطاطا، أمّا الزنوج الّذين تخصّصوا في بيع البيض فإن أغانيهم تكون أكثر تنوعًا وعمقًا، وكلّ تلك الأعمال تتمّ في أزقة السّوق الضّيقة الشّبيهة بالأنفاق على مشْهدٍ من الجمهور، قد خضبت معْظم أقواس المدينة باللون الأخضر دلالة على الفرْدوس كما هو حال الأبواب والنّوافذ في أزقة المسلمين، أمّا النّصارى فاتّخذوا لونهم الأصفر المقدّس الدّال على كنيسة البابا، واليهود أيضًا أثبتوا وجدهم بطلائهم الأزرق النّيلي الشّاحب دلالة على النّهرين، بالرّغم من كلّ ذلك لمْ يفسد مزيج الألوان شيئًا من بريق البياض الشّامل للمدينة. أمّا الشوارع فتكون أحيانًا مسقوفة بالحصير لتلافي الشّمس اللاّهبة، أو مغطّاة بعرائش الكّروم الّتي تتدلّى عناقيدها فوق رؤوس روّاد السّوق الّذين يعْبرون الشّوارع والأزقّة باحثين على غاياتهم.

أقفل باب المنزل وهو في أبْهى صوره، يرتدي فرْملةً ([2]) سوْداء، ويمهن فوقها بزبونٍ ([3]) مزركشٍ ثمين بذات اللّون، ويصحبها بنطال مناسبٌ للحالة، ويعْتمر طاقية حمْراء، خطا خطواته الأولى بنعْله الجلديّ الجديد الذي اشتراه خصّيصا لهذه المناسبة، بينما هو في طريقه أطلق بعض المارّة عليه السلاّم فكان يرد السلام إلى صاحبه مع ضربتين بيده اليمنى على صدْره، وتصْحبها ابتسامة احترام من وجْهه الخّمري الودود المزيّن بغمّازة تسرّ النّاظر إليه، انتقل بين الأزقّة بخفّة وهو يحمل حقيبة جلْدية، كانت مشْيته ممْشوقة بثقة راسخة تتبعها ملامحه لتعزّز انطباع الهيْبة والجلاء من الشّاب الطّويل عريض المنكبين، وأثناء سيْره في طرقات السّوق سرق سمعه صوت مجنح:

- سارق، سارق...

صرخ بها أحد الباعة وتبعها بشتائم غير مفهومةٍ بسبب ركضه وراء الصّبي الأسمر الصّغير الذي يلهث هاربًا من قبضته. تبعتْ الأعين مشهد ركض الصّبي والبائع البدين الّذي انتهى باصطدام الصّبيّ بجسد الشاب، وقع المخلوق الصّغير من أثر الاصطدام وهوتْ قطع الخبز مبتعدة عن قبضته، وبعد برهة من الارتباك مد الشّاب يده للصّبي الّذي كان حافي القدمين ويرتدي ثوبًا رثًا قد مضت سنوات على ارتدائه، وإبّان ذلك وفد البائع مهرولًا وخيط مسبّاته لم ينقطع البتّة، ترنّح الصّبيّ واقفًا وعيناه السّوداوين الواجمتين ترمق غنيمتها الواقعة أرضًا بحزن، ويرنو إلى البائع السّاخط والمارة المجتمعين بهلعٍ متجسّد في أشْجن صوره.

- سأقودك إلى الشرطة أيها اللعين لتسجن في زنزانة مظلمة حتى تتعفن ونتخلص من شرك.

مدّ يده بعنف نحو تلابيب الصّبي بعد أن أعتق كلماته بحنق، فتشابكت يد الشّاب مسرعة لتمنعه. قال الشّاب بهدوء:

- صلِّ على النبي يا سيدي.

لم يجب البائع على الشّاب وتابع ينظر باحتقان نحو الصّبي، نظر الشاب مرة أخرى إلى الصّبي، وبعد برهة تقدم نحو البائع وقال بصوت خفيض:

- ولد بلاد ([4]) من هيئتك يا سيدي أرى أن تسامحه هذه المرة.

هاج البائع في وجه الشاب كأنه هو الّذي سرقه:

- إنها ليست أول مرة يفعلها هذا اللعين، سأقتاده إلى الشّرطة ليرتاح منه السّوق كلّه

- كرامةً للنبي أن تسامحه...

- ألا تفهم ما أقول يا هذا؟ سأقتاد هذا البغيض إلى الشّرطة

حملق الشّاب بأسى للصّبي ثم قال:

- كم ثمن ما سرقه؟

أجاب البائع بعد أن رمق الشّاب بنظرة اسْتعجاب:

- عشْرون قرشًا هذه المّرة...

ثمّ أردف مرتبكًا وهو ينظر إلى الشّاب الّذي أغرق يده في جيبه:

- وثلاثون في المّرة السابقة و...

بتر الشّاب كلام البائع المرتبك بيده، سحب يده من جيبه وناوله النّقود

- ما هذا يا رجل؟

- ثمن الخبز الّذي سرقه الصّبي الجائع هذه المّرة والسابقة بالإضافة إلى المجموع الذي لا يحصى من الشتائم الّتي أطلقتها منذ قليل.

حدجه بنظرةٍ تهكم ثم أكمل سيره مبتعدًا وسط الاضطراب الذي حدث، وإبّان ذلك قفز الصّبي مسرعًا نحو غنيمته والتقطها من على الأرض، ثمّ أسرع لاقتفاء الشّاب الغريب، سار الشّاب بضْعة دقائق وقطعَ خلالها عدّة أزقة والصّبي يلازمه، وبعد أن ضاق صبر الصّبي صاح بانفعالٍ:

- ماذا تريد في المقابل؟

تجلّت ابتسامة على قسمات الشّاب لكنّه لم ينْبس ببنت شفة، فتابع الصّبي قائلًا بذات الانفعال:

- ماذا تريد يا هذا؟! فإنّني لا أملك ثمن ما دفعته

لم يعر الشّاب أيّ اهْتمام بما قاله الصّبيّ وأكْمل سيْره. شيئًا فشيئًا تبدّد الانْفعال من وجه الصّبي الأسْمر الّذي لا يوصف سوى بالوجه الملائكيّ الودود، قال الشّاب وهو يكمل سيره:

- ما اسمك إذًا؟

- عبد السّلام

- أين أهلك يا عبد السّلام؟

قهْقه عبد السّلام وكتم ضحكته قائلًا:

- لا توجد عائلة

انذهل الشّاب وقد تجلىّ ذلك على قسماته بوضوحٍ. فقال مستدركًا:

- لم أفهم؛ كيف ذلك؟!

أكمل عبد السّلام سيره وكأنّه لم يسْأل عن شيءٍ.

قرب قطعة الخبز وأخذ قضمةً كبيرةً، ثمّ قال وهو يلوّك طعامه:

- أنا لم أعرف أحدا من عائلتي، فتحْت عينيّ وأنا لا أعرف سوى أهالي شارع (الأكواش) فقد وجدوني في أحد أزقّته ليلًا منذ عشرة أعوامٍ...

بغتتْ الإجابة الشّاب فلمْ يقدر على الرّد. فواصلا سيرهما دون أن يلمّ الصّبيّ بالوجهة. مدّ عبد السّلام قطعة من الخبز نحو الشاب بابتسامةٍ فالتقطها وتناولها على دفعتيْن وهو باسم. حمْلق الشّاب لمرّات لا تحصى في الصّبي الغريب، وقال بعد أن تجدّدت الطاقة في بدنه:

- هل تريد أن تترك هذه الحياة البائسة وتعيش مثل باقي الخلق يا عبد السّلام؟

ضحك عبد السّلام ثمّ قال مسْتهزئا:

- بالطّبع أريد ولكن توجد طريقةٌ واحدةٌ لهذا؛ وهي الموت!

ثم أكمل ببراءةٍ فذة:

- هل تريد أن تقْتلني يا هذا؟

ضحك الشاب لبراءة المخلوق الصّغير الذي يكلمه، توقف عن السّير وربّت على كتفه، ثمّ قال وهو يتمعّن في عينيه:

- ستترك هذه الحياة البائسة دون موت، ما رأيك؟!

نظر الشّاب أمامه ثمّ أرْدف قائلًا:

- ها قدْ وصلت إلى وجْهتي

وضع يده في جيبه وأخرج بضع قطعٍ نقْديِّة وقدّمها لعبْد السّلام

- أنا سوف أسافر الآن، وسأعود في غضون أيّام وهّذا المال كيْ تعيش منه ريثما أرجع دون أن تسْرق، مفهوم؟

- أين أجدك حينما ترجع؟

- في شارع (عمورة)

أكمل الشّاب سيره نحو الميناء الذي أصبح على بعد خطواتٍ، وإبّانها أتاه صوت الصّبي من خلفه قائلًا:

- لم تقل لي ما اسمك؟

التفت الشّاب وقد ارتسمت ابتسامة طفيفة على قسماته، وقال:

- إبراهيم بن عمر.

تابع إبراهيم سيره نحو الميناء، رفع رأسه عاليا واسْتهلّ يحملق في الصّواري والأشرعة المتراصّة بتباين أشْكالها وأحْجامها، كانت السّفن كثيرة وترتفع منها أعلام لدول مختلفة، أمّا قريناتها ذوات الحجْم الأعظم قد ألقت مرساها في بقعٍ قريبةٍ من المرْسى لعدم توفّر العمق الكافي، راح إبراهيم يدقّق في أشكال السّفن محاولا أن يعرف أيْن هي مبتغاه، وبمروره بين السّفن رأى البحّارة الّذين انبعث منهم صياحٌ مختلفٌ أشكاله ولغاته، مكوِّنا جوقةً كتلك الّتي في السّوق. شاهد البضائع كيف تنقل من وإلى جوف السّفنِ بواسطة حبالٍ أو روافع خشبيه متواضعة؛ وإبّان مشيه رآها من بعيد فتعرّف عليها، كانت سفينةً ذات مظهرٍ مهيب متوسّطة الحجْم ترفع راية دولة البنادقة، صعد إلى ظهْرها بعد أن تأكّد منها. أنْقد ثمن الرّحلةَ للخواجة الّذي لا ينْفكّ عن تدخين الغليون، تبادل معه إبراهيم أطراف الحديث ثمّ أشار صاحب السّفينة لأحد البحّارة العرب غير الأعاجم الّذين تواجدوا بكثرةٍ على ظهْر السّفينة لإرشاده. وبعد فينةٍ من الزّمن رفعت المرساة وفكّت الحبال وحلّقت الأشرعة عاليًا. كان إبراهيم يقف على الطّرف العلويّ يشاهد الميناء والمرسى وهما يبتعدانِ، كانت الأبنية البيضاء الّتي تتصف بها طرابلس مع جذوع النّخل الغليظ منها والنّحيف، ترسم لوحةً فنِّية بديعةً نظيرةً لتلْك التي شاهدها إبراهيم في سرايا الباشا منذ أمدٍ بعيد.

بدأت المنْشيّة تظهر شيئًا فشيئًا بلونيها الأصفر والأخضر الزّاهي من أشْجار الزّيتون والبرتقال أو سواها من المثمرات. أمّا القلعة الرّاسخة في الطّرف الشّرقيّ للسّور بجانب دار صناعة السّفن الّتي يترأسها البك الحالي ووليّ عهد طرابلس، تبهر النّاظر إليْها بسورها الّذي يتجاوز الأربعين قدما،

ويتخلل ذلك الصّرح العظيم بعض الأبنية والشرفات، وعددٌ من الكوات لفوهات المدافع، أمّا الأبراج الّتي تحيط بها كانتْ على طراز التّحصينات القديمة، وقّد تغيّرت ملامحها بمرور الزّمن وببعض الإضافات الشّاذة الّتي أضافها الباشا الحالي.

أخذت مّلامح المدينة تختفي ببْطءٍ إلى أن زالتْ نهائيا وأصبح لا يرى سوى الماء من كل صوب.

تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاِكتِسابُ مَعيشَةٍ

وَعِلمٌ وَآدابٌ وَصُحبَةُ ماجِدِ

(٢)

بحرٌ عاصفٌ، أمواج ثائرة، جبالٌ تتلاطم وتدفع السفينة إلى الجنون. مياهٌ كثيفة تخترق اللّيل وتغْمر سطح السّفينة دون استئذانٍ، فتتناثر محتوياتها وأدواتها على الجانبين بهرجٍ مباغتٍ، ثّمة بقايا شراعٍ شبه معقودٍ تصفقه الرّيح فيتقوّس وينبعج بقنوطٍ خارجًا عن السيطرة، بحّارة يركضون في كلّ صوبٍ، يتشبثون بما يصادفهم، فتبدو تضاريس السّفينة وهي في مهبّ الضّياع أطواق نجاةٍ في أحداق الغرق. الربّان يوزع أوامره بصرخاتٍ مذعورة فيتضاعف الذعر في كوكب السّفينة، فلم يكن ينْقص البحّارة المساكين في تلك اللّحظة إلا ربّان مذعور، حيث إنّ غضب القائد الخائف خير مرشدٍ إلى الهلاك. وفي لحظاتٍ سريعةٍ انبرى يتضاءل شعور ركّاب السّفينة بالنجاة، وهم يشاهدون البحر الّذي كان منذ لحظات وديعًا قد انقلب عليهم دون سابق إنذار. كانت السّفينة أكثر ضآلة من ريشة عصفورٍ وسط رياحٍ عتيةٍ، موج شاهقٌ يزاحم جميع أطرافها دون توقّفٍ أو كللٍ. وفي الخطر تصبح جميع الأشياء تحت رحمة اليمّ؛ البشر والمعدن والخشبْ، كلّ شيءٍ عرضةً لأن يستقرّ منفردا في موضع غير معلوم، لكنّ الّذي كان يطمئن البعض أنّ الصّارية لا زالت ثابتة القاعدة في منتصف السّفينة، فيما كانت قامتها تتأرجح مثل بندولٍ معلّق في الفراغ، خشبة شبه عارية تتأرجح منها حبال كثيرة كألسنة الأفاعي؛ وفي لحظةٍ خاطفةٍ أنار البرق ظهر السّفينة ليزداد الفزع والخوف في قلوب ركّابها المختلجين في حضرة الموت الوشيك، رغم صوت الرّياح التي تصفق خشب السّفينة العاري كان يختلس الآذان صوت لبعض الدّاعين والمصلين الّذين يطلبون من ربّهم النّجاة من هذا الكرب باختلاف مذاهبهم وشيعهم، لكنّهم جميعًا اجتمعوا على الدّعاء والتضّرع لذي القّوة المتين وهو وحده من يستطيع فكّ كربهم. بدأت العاصفة تسكن بعد أن ركض الرّبان وسط الرّياح العاصفة وغيّر اتّجاه دفّة السّفينة محاولا الخروج من المأزق إذا أمكن، وقد نجح في ذلك وخرجت السّفينة من العاصفة بعد القليل من الصّبر والصّمود، فور الخروج من المأزق نفّذ البّحارة أوامر الرّبان السّاخط الذي يحثّهم بضرورة إصلاح ما أفسدته العاصفة من أضرارٍ في أسرع وقتٍ ممْكن.

إبراهيم لم يكن أفضل حالا من السّفينة المتهالكة، فتقّيأ مرّات لا حصر لها وألقى بتكليف كلّ ما في بطنه، فتك به دوار البحر وجعله يتدعدع كالمخمور، ومن حسن حظّه أنّ البّحار العربيّ قد لاحظ حالته فأخذ بيده وأعدّ له شرابا دافئًا من أعشابٍ لم يميّزها إبراهيم، وبعد أن تجرّع الشّراب أخذ يستعيد عافيته وصحّته شيئًا فشيئًا. غاب الدّوار بعد فينةٍ لكنّ الغمامة السّوداء الّتي أطبقت على صدره لم تغب، مياه البحر الّتي لا تنتهي قد صنعتْ حاجزا بينه وبين رحلته المنشودة للمدينة العائمة.

مضى الوقت وعبد السّلام لا يغادر خلْده، لا يعلم سبب التّفكير به لكّنه وجد نفسه يهيم به كأنّه فقد شيئًا ووجده صدفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استزاد بالمعلومات عن البندقيّة طوال مدة الرحلة من الركاب الذين معه، فسأل عن المترجمين وسوق الخشب، والنّزل التي يقيم بها الغرباء، وغيرها. أجاب على جلّ أسئلته تاجر طرابلسي اسمه يحيى، فمرّت أيام البحر وإبراهيم إمّا أن يتبادل الحديث مع يحيى أوْ يطالع أحد الكتب الّتي أحضرها معه. كان اللّقاء المنشود مع البندقيّة الّتي سمع عنها الكثير واستزاد هو بأكثر، في وقت الظّهيرة حينما كان قرصُ الشّمس يتربّع كبد السّماء، وكان الجوّ ألطف بكثيرٍ من جوّ طرابلس وحرارتها اللّفحة. رست السّفينة في الميناء وألقت مرساها. نزل إبراهيم بين الجموعِ وهو يحمل حقيبته الجلْدّية، سار خارجًا من الميناء بصحبة رفيقه الجديد يحيى، تجوّلا سويًا في الطّرقات وبين قصور وكنائس المدينة الّتي أبْهرت إبراهيم لجمال تصميمها ودقّة بنائها؛ مدينة وسط المياه تتألّق بمجدها، مدينة يتجوّل البحر في طرقاتها الضيقة فتعلو الأمواج تارةً وتنخفض تارةً أخرى فيما كانت الطّحالب تتشبّث بجدران قصورها الرّخاميّة تصارع من أجل البقاء.

- إنّها جميلةٌ بالفعل يا يحيى.

- انتظر يا إبراهيم فأنت لم تر (جسر التّنهدات) وساحة (سانت مارك)...

سارا بين الأزقّة إلى أن وصلا إلى جسرٍ جذاب وهو مشيّد من الحجر الرّخامي الأبيض ويأخذ شكلًا منحنيًا يضم مجموعة من النوافذ المستطيلة والصّغيرة المزّودة بقضبانٍ، يمتد الجسر من (ريو دي بلازو) (قصر النّهر) ليصل بين السّجن القديم وغرف الاستجواب في (قصر دوجي) ومنها إلى السجن الجديد، كما يمتد على ارتفاع كبير فوق القناة ويضم اثنين من الممرّات المتداخلة، ويتميّز بإطلالته الرّائعة على القناة. انبهر إبراهيم بجمال عمارة هذه المدينة الّتي تتخلّلها القناطر والقنوات كما تتخلّل جذوع النّخيل طرابلس. آنس عينيه بجسر (ريالتو) واحتسى عصير اللّيمون المنعش في ساحة (سانت مارك)، وإبّان احتسائهم لليمون قال يحيى بفخر:

- لن تصدق ما هي قصّة جسر التّنهدات الّذي أذهلك يا إبراهيم.

- اروِ لي إذًا.

- رغم جماله فقد تمّ بناؤه لقيادة السّجناء من غرف الاستجواب في قصر (دوجي) إلى زنزانتهم، حيث قيل أنّهم وخلال عمليّة نقلهم كانوا يطلقون تنهّدات تترافق مع نظراتهم الأخيرة إلى عالم الأحياء لذلك أخذ هذه التّسمية.

قضى إبراهيم أوقاتًا ممتعةً بصحبة يحيى قبل أن ينفصل كلٌ منهما إلى مبتغاه، سلك إبراهيم طريقه نحو سوق الخشب بعد أن استعلم عن كل التفاصيل الّتي يحتاجها، فأخذ يجول في السّوق الرّحب وإبّانها توقّف عدّة مرّات على الدّكاكين وتبادل الحديث مع التّجار، وفي غضون جولاته دخل إلى أحد الأزقّة الضّيقة المتفرّعة من السّوق، فقد جذبته بعض الدكاكين الّتي في مطلعه، ولكن تدْريجيًا بدأت الدكاكين تختفي والمارّون يتناقصون، ووجد إبراهيم نفسه يدخل من زقاقٍ إلى آخر دون أن يشعر بابتعاده عن السّوق. وخلال سيره غير المعلوم وجهته قطع طريقه رجلان طلعتهم مريبة لا تنذر على خير، اقْتربا منه واستهلا الصّياح بلغتهم الأعجميّة، حاول أن يتجاوزهما لكنّ مسعاه لم ينجح بعد أن امتشقا خناجرهما في وجهه.

مدّ أحدهما نصله نحو إبراهيم ليطعنه، لكنّه تفاداها بسهولةٍ، وبحركةٍ خاطفة ناوله رفسة بقوةٍ ليقع أرضًا، التقط إبراهيم الخنجر الهاوي من غريمه بسرعةٍ، ولم ينتظر ردّة فعل الآخر فقذف بالخنجر نحوه ليندسّ في صدره، دنا منه وأغار عليه بلكمةٍ أطاحته أرضًا والدماء تسيل من صدره كالينبوع، أوب إلى الثاني الّذي حاول النّهوض إلا أنه انقض عليه بلكماتٍ أراقت دمه بغزارةٍ حتّى تبدّلت أساريره، كف عن اللّكم بعد برهة وأفلت تلابيبه فارتطم رأسه بالأرض معلنا انهزامه، حملق في الآخر وهو يتألّم ولا زال الخنجر مغروسا في صدره، أخذ أنفاسه ببطءٍ وهو يتأمّل الدّماء الّتي لطخت ثيابه، ولا يدري إلا وضربة أتته من الخلف أرْدته أرضا فلمْ يشعر بشيءٍ بعدها، ارتطم رأسه بالمهد كرضيعٍ غافٍ في صدر أمّه، تسايلت الدّماء وأصبحت تغطّيه كما يدثّر التّراب جسد الفقيد، لمْ يعد يسمع غير هتاف أنفاسه المتقطعة. هيمن الظّلام على بصيرتيه ولم يعد يرى النّور، تمتم كلماتٍ دون أن يشعر بنفسه. رأى نفسه وهو صبي بجوار أبيه في البستان الأخضر، أبصر نفسه وهو يلعب تحت عرائش طرابلس، لمح نفْسه أثناء المعركة الضّارية، وبغتة بدون أي مقدّمات انقشع كلّ شيءٍ ولم يبق سوى الفراغ الشّانق، لم يبق سوى ذاك المجهول صورته وهويته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الأول)

إيّاك أن تَثِق في البدايات...

(إبراهيم)

الدَهرُ يَومانِ ذا أَمنٌ وَذا خَطَرُ

وَالعَيشُ عَيشانِ ذا صَفوٌ وذا كَدَرُ

(٣)

في ليلة الخامس عشر من فبراير عام أربعة وستّين وسبْعمئة وألف، شعرت أمّي بآلام المخاض وقدْ أتى اليوم الّذي انتظره أبي منذ ثمان سنواتٍ، لم أكن أعي ما يحدث حينها لكنّني أستطيع أن أجزم بما حدث من خلال ما حُكي لي، أمّي تصرخ وتهزّ أرجاء دارنا في دجى اللّيل الّذي زينه بدر منير متربع في كبد السّماء، والدي يقطع الفناء المدّبج بشجرتيّ البرتقال ذهابا وإيابا وهو يلتجّ عرقا، أتى بالقابلة فور أن بدأت أمّي تعتُصر ألما، قرع باب دارها وكأنّما يريد تحطيمه، أخبرها بأنّ ميعاد الولادة قد حان، ولو كان يستطيع إمساكها من تلابيبها للإسراع لفعل، ولجت القابلة إلى الغرفة بسرعةٍ وفي الآونة ذاتها كانت مبروكة زوجة عمّي عبد الله قد حضرت هي وإحدى جاراتنا. لا زالت أمّي تصرخ وتتصبّب عرقا وأنا في برزخي لم أبعث للحياة بعد، خرجت مبروكة زوجة عمّي مسرعةً نحو المطبخ لتحضر ما طلبته القابلة، ازْداد أبي توتّرا وقلقا وهو يرجو من الله تيسير الولادة، انتظر وصبر ثمان سنواتٍ كانت فيهم أمّي قد جرّبت شتّى الطرق وتناولت شتّى الأعشاب للحمل ولكن لم تفلح في تغيير ما قد كتب. أطلقت أمّي صيحةً قد جلجلت فناء دارنا وقد انعقدت هذه الصّيحة بصوت عويل رضيعٍ قد أعْلن انبعاثه للحياة، أغشي على أمّي فور ولادتي فلم يتسنّ للقابلة أن تضعني على صدرها كما يفعلون دائمًا، فغسّلتْني وكفّلتني وحملتني إلى أبي وهي تمسح على وجهي وتقول مبشرةً إيّاه:

- لقد رزقت بصبيّ مثل البدر يا سعيد.

حملني أبي وضمّني إلى صدره وهو في نشوة سعادته، لثمني في جبْهتي المحمّرة ثم أذّن لي بصوته الأبحّ الّذي امتلكني منذ حينها.

أوفى والدي بما نذره وأفرط، كان قد نذر للرّحمن صوم شهر كاملٍ دون انقطاعٍ إذا رزق بطفل، وتصدّق براتب شهرٍ كاملٍ، ذبح خمسة شياه وأطعمها للمساكين، فكانت الأيّام الّتي تابعتْ ولادتي أيامًا لولائم قد أعدّهاَ أبي لزوّاره، وفد وليمة ولادتي من موظّفي السّرايا أمثال أبي وغيرهم الكثير، وأبْرز الضّيوف الّذين زاروا دارنا ولا أسْتطيع نسيانه أبدا فقد ذكره لي أبي كثيرا، وهو الشّيخ ضياء الدين القرطبي الّذي حضر بثيابه الصّوفية المتواضعة ومعْتمرٌ عمامته الخضْراء الكبيرة، جلس وأكل من الطّعام ما لمْ يضعْه في فيه منذ سنواتٍ من لحمٍ وفواكه، لم يبادل الحديث مع الجالسين على حدّ قول أبي وقبل أن ينصرف سلّم عليه وقال:

- يكون إماما بعقله أو بسيفه لا يعْلم الغيب سواه..

يحلق في الأفق عاليا وأخاف أن يقع ويعْلق بمشكاةٍ..

ابن بار لأبيه لكنه ليس للغيب بعلاّم..

تأسر عيناه البعيد قبل القريب وكمْ من قريبٍ لم يكن له بال..

كل شيءٍ مكتوبٌ ومحفوظٌ ولن يستطيع ابن خديجة بدكّ الجبال.

نطق كلماته الغريبة وخرج من المجْلس على عجلٍ دون أن يتفوّه بشيءٍ آخر. اسْتقبل أبي كلماتٍ الولّي الصالح كما يقولون باستعجابٍ وقد أربكته ليالٍ طويلة وهو يفصّص معانيها ويحاول أن يصل إلى جوْهرها، حفظها عن ظهر قلبٍ لكنّه كتبها في ورقةٍ مطويةٍ أودعها صندوق مقْتنياته خوفا أن تخونه الذّاكرة.

كبرت يوما بعد يومٍ بين أحضان أمي الّتي حفلت بكل اهْتمامها؛ وكيف لا وأنا البكْر المتأخّر ثمان أحوال. أمّا أبي فقدً كان يقْضي جلّ وقت راحته بملاعبتي، يحْملني بين يديْه ويخْرج بي لنزهاتٍ قصيرةٍ في أزّقة السّوق، ولا يلْبث حتى أن يريني لمن يصادفه من معارفٍ، متفاخرٌ بما أنجب من صلبه. أمي بدورها لا تعْرج على عوائدها فتضع قطعة الخبز في قبضتي عند خروجي لتحْميني من العين على حدّ قولها، كانت الأيّام تمضي بيسرٍ يسْتيقظ أبي فجرا ليصلّي في المسجد وفور عودته يلقي نظرةً ليطمئنّ عليّ وأنا أغطّ في نومي غير مدركٍ بما يدور من حولي، يدخل غرفة كتبه ويغوص بين أوْراقه إلى أن تشْرق شمس الصّباح وتعدّ له أمي الإفطار، يتناول إفطاره ثمّ يرْتدي نسيجا فضْفاضا ذا اللّوْنين الأزرق والذّهبي على قفطانٍ لوْنه أصفرٌ فاتح، ويعْتمر عمامةً ذهبيةً ويضع قدميه في جزمةٍ بذات اللّون، وبهذا التأنّق يكون جاهزا للذّهاب لبلاط الحاكم ومباشرة عمله.

أمّا أمي الطّيبة المحبّة كان يومها يمرّ في رعايتي وتنظيف المنْزل وغيرها من الأمور الّتي تتفنّن فيها هي بطبْعها، ولا أسْتطيع أن أصفها إلاّ بشمْعةٍ مقدّسة تنير ليل الحياة، اسْمها خديجة سليلة الهادي بن سالم شيخ قبيلة أولاد سالم ([5]) الّتي تقْطن جنوب طرابلس. تزوّجت وهي ذات السّابعة عشر عاما من أبي الّذي كبرها بأرْبع سنواتٍ، أرى دائمًا في عينها الحبّ الّذي تكنّه لوالدي رغم الزّمن الّذي مرّ والسّنوات الّتي انْقضت، أفصّص دائمًا كلماتها مع أبي ورواياتها عندما كنت صغيرا فترْوي لي بصوتها الحنون:

- رأيْته وأنا بين الأشجار ومعي بضْعة من الفتيات نخْتبئ بين الغصون كي لا يكْشف أحدٌ أمرنا، كان بصحبة جدّك الحاج محمد رحمه الله، يرْتجل حصانه الأسود الجميل ويرْتدي جردا ([6]) أبيض يلتفّ بشموخٍ حوله، ليظْهر فرْع جسده الطّويل من فوق حصانه، كان ثابتا في الأرض، راسخا مثل الجبال، يعْتمر قلنسوة سوداء تزيد البهاء على وجهه الخمري.

رغم مضيّ السنوات إلا أنّها لا تزال تذكر لقاءها الأوّل بزوْجها عندما كانت صبيةً ذات أربعة عشر عاما، رأته صدْفةً وأعجبت به، وبدأت هي والفتيات اللّواتي كنّ بجوارها يتغزلن في جماله وحسن مظْهره، وبلا شكّ أنها وبّخت نفسها حينها بسرحانها بعيدا عن واقعها؛ فإنّه شابٌ طرابلسيّ من القوم الّذين يقطنون داخل الأسْوار العالية الّتي تبْعد عنْهم بضْع فراسخ، سمعت كثيرا عن منازل الطّرابلسيّين داخل الأسْوار وأفْنية منازلهم الجميلة، ولمْ تكنْ تتوقّع أن تصبح سيدًّة لأحد تلك المنازل يوما ما أو تعْمر بيدها حديقة ممْتلئة الورود أو تغرس شتول أشجارٍ ستجْني ثمارها في المسْتقبل

القريب، كان أبي كثير الزّيارة لمنزل الحاج الهادي بسبب صداقة والده به، فتسنّى لأمي أن تشاهد فتاها وتطْمئنّ عليه من بعيد، وبعْد ثلاثة أحْوال من اللّقاء الأوّل قررّ الشيخان انعقاد زواج بين العائلتين بعد قول جدّي محمد:

- النّسب يقوّي التّجارة ويمْزج الدّماء

وبهذه المقولة تزوّج أبي من أمي، وخالي زكريا الّذي كان لمْ يكمل عامه السّادس عشر، من عمّتي لطيفة ذات الرابعة عشر عاما. خطبتْ الصّبايا وتسنّى لهم رؤية بعولتهنّ وبعد موافقة الطّرفين وبركة الشيخين. قال جدي الهادي:

- العرس يكون في موسم حصاد الزّيتون، فإنّنا قومٌ نتفاءل بذلك

أجاب جدّي محمد بموافقته، وأقيم العرس بعد أن جنت الأرْض محصولها والشّجيْرات ثمارها، وبحلول هذا الموسم يعمّ الفرح على الجميع، فمن كان عليه دَّين يسدّده ومن له ابن يزّوجه. يحصد الفلاّح أشجاره فيعصرها أو يضع الزّيتون كما هو في أوعيته لتحفظه من التّلف فيبيع ما أراد ويبقي ما يشاء لاستعماله، وعادةً تقام الأفراح في هذا الوقت من السّنة وخصوصا خارج أسْوار المدينة.

أمّا العرس المنْشود ببقْعتيه داخل أو خارج المدينة قدْ بقي النّاس يتحدثون عنْه لأيّام طويلةٍ ويضربون به المثل، لم تقلّ مدّة الفرح عن سبعة أيام بلياليها كما هو المعْتاد، فيصاحب هذه الأيّام السّبعة صخبٌ وغناءٌ، وصحون الطّعام الّذي يعدّ للْوافدين المباركين، وبهذا الزّواج اطمأنّ جدّي محمدٌ على أبنائه؛ فقد زوّج ابنته البكر شريفة من الصدّيق موسى الكرغليّ الأصل، وزوج عمّي عبد الله من مبروكة ابنة خاله.

لمْ يمض سوى عام ونصفٍ من الفرح الّذي غمر العائلة، فانتهى هذا الفرح بانتقال جدّي محمد لربٍّ كريم بعد أن اطمأنّ على أولاده ورأى البعْض من أحْفاده، مات متأثرا بحمى لمْ يجدوا لها تفسيرا أو دواءً. فنْتقل إلى ربّه بعد أسبوعٍ من ملازمته للْفراش، ولم تمض إلاّ أربعة أشْهرٍ ولحقت به جدّتي حليمة، لحقت العجوز الصّالحة بزوجها بسلامٍ وأمانٍ دون أنْ تصاب بمرضٍ أو تشكو من علّة. هجعتْ بكامل صحّتها على مرقدها وهي تتوق شَوقا لشيْخها الّذي كان يلازمها لعقودٍ طويلةٍ، فأصْبح الصّبح وهي منتقلة إلى ربّها وبجوار زوجها الّذي شاركها جلّ حياتها. كانت وفاتها فاجعةً للجميع.. كيف تموت الّتي تمدّ البيت بالبركة دون سابق إنذارٍ؟ حمل نعشها على أكتاف ذويها بعد أن غسّلت وكفّنت. صلّيّت عليها صلاة الجنازة ثمّ دفنت بجوار زوجها وإخوتها وبعض من عمومتها.

كان جدّي محمد تاجر أخشابٍ وله دكّان كبير ذو سيطٍ في سوق النّجارة. ورث هذه المهنة عمّي عبد الله عنه، أمّا أبي فقد خالف أباه فسلك طريق العلم غير مبالٍ بسخط أبيه عنه، كان جدّي محمد كارها لأفكاره الّتي لم يجد عليْها ذويه أو أسْلافه، لكنّ أبي كان عازما على أمره وحاول أنْ يرتحل إلى مصر ليتعلّم من علمائها وعنْدما علم جدّي بتر هذه المسْألة من منْبتها. فقال:

- إن عزمت على الرّحيل فارحل لكن يجب أن تعلم أنّه ليس لك أُب أو أهلٌ، وأشْهد الله أنّي سأتبرّأ منك وسط السّوق وأمام النّاس...

فقد أبي حلْمه بالسّفر إلى أيّ بقعة ليتعلّم، لكنّه لمْ يقْنط، فأخذ يجمع الكتب بشتّى أنواعها ومعارفها وباشر في دراستها. وبداعي التّكاليف الباهظة الّتي أثقلتْ كاهله قرّر الانضمام للعمل مع أبيه ليدّبر

أمر شراء كتبه. فمرّت الأيّام وأبي يجْمع كتبَه ويتوسّع في مفاهيم عقله وإدراكه. وشاء القدر أن يبْعث طوْق النّجاة لمسيرته الّتي كانتْ ستدفن في دكّان الحاج محمد على حدّ قوّله، فعيّن معلّما لأحمد القرْمانلي ابن الباشا، ومنْ هنا بدأت رحلْة أبي الحافلة في بلاط طرابلس.

أَمَا تَرَى البحرَ تَعلُو فوقه جِيَفٌ

وتَسْتَقِرُّ بأقْصَى قــاعِهِ الدُّرَرُ

(٤)

انقضت الأيّام حتّى نطقت أوّل كلماتي، وخطوت أول خطواتي المترنحة بعد كدس من الإخفاقات. قد سعدت العائلة بوجود صبي بين كومة من الإناث، فالعم عبد الله لم يرزق سوى بأربع كريمات قد كبرتني أصغرهن بشهرين وتسمى محبوبة، كانت محبوبة دائما في بيتنا أو أذهب أنا للعب معها، فكنا ملاصقين لبعضنا البعض على عكس الأخريات اللواتي أصبحن فتيات بالغات لم يعد الجري والركض يهواهن، نلهو أنا ومحبوبة في الفناء، نركض ونجري وراء بعضنا، أو أنحني على ركبتيّ لأقلد لها شكل الحصان لتركبني وهيا تضحك وتقول:

- هيا بسرعة يا حصاني.

أتسلق شجرة البرتقال من أجل أن أجلب لها ثمرة لأبصر ابتسامتها الساحرة، أو أقلد لها أصوات الطيور فتندهش وتقول:

- كيف فعلتها يا إبراهيم؟!

أروي لها قصة قد سمعتها، فتسأل عن تفاصيل غريبة لم تخطر على بالي يوما، أو تغني لي هي الأخرى الأناشيد التي حفظتها من سعدية، تلك العبدة السوداء ذات السابعة عشر ربيعا التي وهبت لأبي عندما تقلد منصب مساعد الكيخيا أتى بها أبي وأصبحت تعيش معنا، ترعى المنزل وتساعد أمي في أعمالها، فضلًا عن مشاركتها للعب معي أنا ومحبوبة، ولم يمض الكثير حتى ألفنا وجودها وأصبحت جزءًا من العائلة لا نستطيع التخلي عنه. لم أكن أنا ومحبوبة فقط من نتشارك اللعب فأحيانًا يأتي صبحي ابن عمتي شريفة الذي يقطن في حينا ليشاركنا اللعب، أحمل غصنا أو عصاةً صغيرةً وأباشر الرّسم على تراب الحديقة رسومات كانت تعجب محبوبة، فيأتي صبحي محاولًا تقليدها لجذب انتباها ولكنه لم يفلح يوما في ذلك، ريثما كان يرسم الرسومات المقلدة المشوهة تزجره محبوبة بصوتها الملائكي الجميل:

- إبراهيم يرسم أفضل منك يا صبحي بكثير.

فيركض صبحي إلى أمه ساخطا وهو يبكي، وحينها فقط يطمئن قلبي ويرجع لحاله المستكين بعد أن يُطرد ثقيل الدم الذي يحاول تقليدي في كل شيء، وفور أن يذهب ساخطا تضحك ضحكتها التي لم أبصر ضحكة بجمالها وتقول:

- إنه مزعج، لا أريده أن يلعب معنا.

تتبع كلماتها ابتسامة على وجهها الخمري وهي تركض وتطلب مني أن أمسكها فأركض أنا للحاق بها في غاية الفرح بعد التوبيخية المعتبرة التي لقنتها لثقيل الظل ذلك، أركض وراءها حتى أستقربها مني فأبطئ من سرعتي ليستمر الركض الذي أفتعله أنا إلى أن تتعب وتقول وهي تأخذ أنفاسها:

- توقف.. لنلعب شيء آخر.

لم تكن محبوبة من نوع الفتيات الذي يخجل أو يخاف من توبيخ أمه؛ فكانت دائما تقول غير مبالية بتعنيف أمها:

- عندما أكبر سوف أتزوج إبراهيم.

تركض هاربة من أمها إلى أحد الغرف بعد فعلتها المعتادة، فيغرق أبي وعمي ضاحكين لبراءة هذه الجميلة. وهي بصدق جميلة، تفوق كل فتيات العائلة جمالا، ببشرتها الخمرية وعينها اللوزيتين وحاجبيها الكثيفان وقسماتها الضاوية.

تهرب خلسة من منزلهم في وقت الظهيرة الذي تحرم فيه أمها الخروج. تدق باب دارنا فأركض وأفتح لها الباب بصعوبة بسبب علو المزلاج. تخبرني فور دخولها كيف هربت هذه المرة وتعطيني قطعة من كعكة قد أحضرتها أو أي شيء قد وجدته في طريقها قبل الهروب، نلعب إلى قرب مغيب الشمس، فتأتي الخالة مبروكة وهي ساخطة توبّخها وتضربها، ولم ينجح الضرب أو التوبيخ في صدّها عن رأيها يوما.

لم أكن أريد شيئًا من الدنيا في تلك الأيام إلا اللعب مع محبوبة. أستيقظ باكرا وأجلس أنتظرها حتى تأتي وإن تعوّقت في القدوم أعلم أن الخالة مبروكة قد أحكمت الخناق عليها فأذهب إلى دارهم وأقرع الباب، تفتح الخالة مبروكة فأسألها بدخول للعب مع محبوبة ولم ترفض ذلك يوما فالخالة مبروكة طيبة القلب وتحبني، تقبلني على جبيني فور أن تراني وتبدأ بمداعبتي مُدغدغةً إيّاي في إبطي أو بطني وتقول لي مازحة:

- لا تلعب مع هذه الفتاة السيئة.

ألوذ بالفرار من قبضتها نحو محبوبة، التي تنقلب أساريرها للحزن بعد ما تفعله أمها، فأحضنها وأقبلها في جبينها بين حاجبيها الكثيفين كما تفعل لي الخالة مبروكة، وأقول لها:

- إنك ليست سيئة، أنتِ جميلة يا محبوبة، أنا أحبك.

فور سماعها لكلماتي تبوء ابتسامتها وتطلق قهقهة ضحكتها العذبة وتركض هاربة وهي تقول:

- أمسكني إن استطعت.

كان يومي في صغري يتمحور فيها، كنت أبغض الذّهاب إلى بيت جدي الهادي لعدم قدرتي على رؤيتها ليوم أو اثنين، وفي يوم ما قد قرّرنا واتّفقنا بأن تذهب برفقتي إلى بيت جدي، لم تنفع محاولتنا الأولى وانتهت ببكائنا، وأنا أشاهد الخالة مبروكة تجرّها إلى دارهم بالقوة، في حين أصعدتني أمي العربة إجبارا، وفي المحاولة التي تلتها قد دبّرت أمرها جيدا، فقلت لعمّي على الفور ولم نفاتح الخالة مبروكة، رجوتُه وقلت له كلماتٍ كُنت أسمع الكِبار يرددونها:

- كرامة للنبي توافق على ذهاب محبوبة معي يا عم... لا تقلق فلن يصيبها أذى، أعدك بأنني سأحفظها في عيني... أنا كبرت وأستطيع ذلك.

ضحك عمي عبد الله وضمّني إلى صدره، تشبث بي للحظات وهو يضحك. ثم قال:

- سأتركها تذهب معك يا إبراهيم، ما رأيك؟

غمرتني السعادة حينها فنظرت لمحبوبة على الفور فوجدتها تقفز وترقص وهي ترمق أمها نظرات الانتصار، ولن تستطيع الخالة فعل شيء بحيلها هذه المرة.

صعدت العربة الذي يجرها حمار هزيل وأنا أمسك يد محبوبة كي لا يصيبها أذى كما قلت لعمي، كان أبي يجر الحمار وهو يرتدي جرده الدّاكن ويعتمر قلنسوة سوداء كما هو الحال عندما نزور أراضي أولاد سالم. لعبت أنا ومحبوبة في الأرض المخضرّة، بين الأشجار المثمرة والزرع، تسلّقت لها أشجار البرتقال كالعادة لأجلب لها الثمار، شربنا مياه البِئر العذبة ووضعنا أرجلنا في جداول الماء واستهللنا اللعب فيها، اصطحبنا خالي زكريا مع ابنه جمال إلى حظيرة الخيل فركبناها وتجولنا بها بين الحقول، دخلنا حظيرة دواجن جدّتي نجيمة فأخذنا نزعج الدجاجات ونسرق بيضهن، اندهشت محبوبة لكثرة أعداد الدجاج، فحظيرة أمي الصغيرة التي فوق سطح دارنا المعجبة بها لا تعني شيئا أمام هذه، ودائمًا كانت تسأل الخالة مبروكة:

- لماذا ليس لدينا حظيرة للدّجاج مثل الخالة خديجة يا أمي؟!

- الخالة من قوم خارج الأسوار وهذه إحدى عاداتهم.

- لم أفهم!

تتركها تتساءل وتذهب لتنشغل بأمر ما بعيدا عن تساؤلات الطفلة التي لا تكل أو تمل من الأسئلة أبدا.

استلقينا وثبتنا بجوار جدتي نجيمة التي أحبت محبوبة كثيرا، وقد سمعتها تهمس لأمي وهي تبتسم:

- الفتاة جميلة، ورب الكعبة تليق به.

في اليوم التالي تنزهنا في حديقة جدي الهادي التي تزخر بالنباتات الطبية. حكى لنا عن كل زرعة موجودة في بستانه الصغير. أجلسنا بجواره وهو يجتث بيده ما ضهر من الشوك أو النبات الضار، وحينها طلبت منه أن يحكى لنا إحدى حكاياته البديعة. فقال:

- صلوا على النبي، صلوا على خير الخلق محمد بن عبد الله، الصادق الأمين. يحكى أن قبل سنوات طويلة كان يعيش بالقرب من هنا أحد أولياء الله الصالحين يسمى الصيد؛ وهو أحد أسماء الأسد في اللغة العربية، استمد هذا الاسم لأنه استطاع بشجاعته وبسالته وقوة بأسه أن يطرد كل الأسُود المعتدية التي تهاجم الناس وتتربص بهم، وبعد أن استطاع تخليص الناس من شر هذا الحيوان المفترس، بنى مسجدا وتكيَّة يقيم فيهما في إحدى تلك الأراضي الّتي طرد الضراغمة منها، وفي يوم من ذات الأيام خرج أحمد الكبير جد الباشا الحاضر لزيارة هذا المكان، وفي زحمة الاستعدادات لاستقبال الباشا وتشريفه بزيارة أسرة سيدي الصّيد، استطاع الباشا أن يلمح بنظرة خاطفة ابنة مولانا الصيد الكبرى، وكانت أعظم النساء جمالا وفتنة وروعة، فاندهش أحمد من براعة جمالها دهشة كبيرة وسرعان ما طلب من الرجل الصالح كريمته وأمره بإرسالها حالًا الى طرابلس لأنه قرر

الزواج بها، اعترض مولانا الصيد، فقال الباشا غاضبا: إن لم ترسل ابنتك في أحسن ثيابها وحليّها وعطورها وملابسها إلى السرايا، فلن يبقى أي أثر لك أو لعائلتك أو لمربطك هذا.

لم يستطع الرجل الصالح تخليص نفسه أو ابنته من غضب الباشا الشرس، فحملها بالذهب والمجوهرات وألبسها أحسن الثياب وأجملها، بكى عليها وذرف الدّموع ثم أمر النساء بإطلاق الزغاريد وإنشاد أغاني الزفاف قبل أن تغادر منزلها، ركبت الفتاة المسكينة هودج على ظهر ناقة مزخرفة ومزينة تزيينا جميلًا، وسرعان ما وصل ركب الفتاة إلى السرايا؟

فغرت محبوبة فاها، وشدت دون أن تشعر:

- ماذا حدث بعدها!؟

- حين دخل أحمد الكبير الحجرة صعق من هول المنظر وبشاعته، حيث وجد جثة الفتاة متمددة أرضا، هامدة، منقطعة الأنفاس.

صاحت محبوبة:

- ماذا!

أكمل جدي بصوته الذي يروي الأحداث بتشويق:

- خرج أحمد من قصره فجرا واتجه إلى مزار سيدي الصيد فسأله: ماذا حدث مع ابنته؟

فأجاب الصيد غير مبالٍ بهوية الذي أمامه: إن لابنتي من الشرف ما يكفي لكي تتناول بيدها سما قاتلًا . نظر سيدي الصيد نحو السماء ورفع يديه ودعا الله: يا رب بجاه نبيك، كما أنقذت طفلتي أسألك يا رب أن تسدّد ضربتك نحو أحمد فيعمى بصره.

لم ينزل الرجل الصالح يده حتى فقد أحمد بصره في اللحظة، فلم يستطع الباشا العيش حبيس ظلمته المعتمة فانتحر بواسطة مسدّسه بعد أن حكم طرابلس لسنوات طويلة.

انبرمت قصة الصيد التي رواها جدّي ولم ينبرم خيط التساؤلات الذي أطلقته محبوبة إلى أن وفدنا طرابلس.

تعلم فليسَ المرءُ يولدُ عالما

وَلَيْسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ

(٥)

انصرفت الأيام حتى بلغت السابعة. حقق أبي ما أعده لي قبل ولادتي، وهو إلحاقي بالكتّاب لتعلّم القرآن الكريم وتعلّم القراءة والكتابة، تغير نمط يومي بعد دخولي الكُتاب فأصبحت ألعب أنا ومحبوبة بعد رجوعي من المسجد، حتى غنّ ذهابي اليومي جعلها تطلب من أمها أن تذهب معي للكتّاب لترى ما أرى وتسمع ما أسمع، لكن الخالة مبروكة وبّختها كالعادة وقالت زاجرة:

- عيب لا يصح ذلك؛ إنك فتاة.

بكت وذرفت الدموع وهي تخبرني بما قالته أمها، فقلت لها لأهوّن عليها بكاءها:

- صدقت الخالة فلا وجود لفتيات معنا في الكُتاب...

بقيت على حالتها تبكي وتذرف الدموع بصمت وهذا أكثر ما كنت أبغضه، فقلت لها باندهاش مصطنع:

- ما رأيك، بأن أعلمك ما أتعلمه من شيخي؟ وهكذا تصبحين كأنك تذهبين معي للكُتاب.

أوبت الابتسامة الجميلة لقسماتها وقد اطمأن قلبي لرجوعها، فبسطت يدي أمسح دموعها، قبلتها قبلة الخالة مبروكة ثم أدخلت يدي في جعبتي وأخرجت قطعة حلوى

- انظري ماذا جلبت لك يا محبوبة من السوق؟

التقطت الحلوى من يدي وقد أطلقت قهقهتها الساحرة وهي تقول:

- عندما أكبر سأتزوجك يا إبراهيم.

مع مرور الأيام حفظت سورا وآيات من كتاب الله، تعلمت الكتابة على اللوح والقراءة من المصحف بسهولة بالغة، وكنت أنقل ما أحفظه إلى محبوبة، تعلمت هي الأخرى القراءة والكتابة، هذا بالإضافة لصوت تلاوتها البديعة الذي جعلها تتجاوزني بمراحل، توالت الأشهر وأنا أسلك دربي لحفظ كتاب الله، فاستنشقت روائحه العطرة ونعمت بكراماته التي لا تنقطع البتة، وأتممت حفظي على يد الشيخ زاهر برواية قالون عن نافع في سنتين وبضع السنة. ولم يتسن لمحبوبة حفظ سوى أربعة عشر جزءًا. لم تكن هذه إلا مرحلة تأهيلية للمرحلة الأهم التي أعدني والدي لها وهي إلحاقي بدرس الشيخ ضياء الدين القرطبي. وكان ذللك عندما قاربت عامي العاشر.

خرجت بصحبة أبي من المنزل وذهبنا إلى حي الفنديقة ثم دخلنا مسجد الناقة أعرق وأقدم مساجد المدينة، واللقاء الأول بالمسجد كان مبهرا بصدق، أعجبتني عمارته رغم صغر سني، حتى أني سجلّت كل تفاصيله في ورقة أودعتها غرفة الكتب، وهو جامع متّسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد به منار كبير متسع مرتفع قائم على الأرض على أعمدة مستديرة، مئذنة المسجد مغربية الطّراز، أمّا بيت الصلاة فيشغل الجزء الشّمالي من المبنى وهو عبارة عن قاعة شبه مستطيلة، قاعة الصّلاة بها العديد من الأبواب والنوافذ الموزعة على جدرانها على ارتفاعات مختلفة وهناك سبعةُ أروقة موازية لحائط القبلة ترتكز على ستة وعشرين عمودًا مختلفة الأشكال بعضها مصنوع من الرخام وبعضها من الحجر، وهذه الأعمدة تحمل عقودًا تستندُ عليها القباب التي تغطي القاعة، ويبلغ عددها ٤٢ قبة، كلّ قبة منها ترتكز على أربعة أعمدة يقع المحراب في منتصف جدار القبلة، وهو عبارة عن تجويف بسيط أمّا المئذنة فهي عبارة عن برجٍ مربّع الشكل وارتفاعها حوالي عشرة أمتار. كان الشيخ ضياء الدين في الرواق المعمد محاط بطلابه، يجلس على جاعد وأمامه مسند خشبي للقراءة. انتظرت أنا وأبي إلى أن انعقد الدرس، فتقدم والدي وقبل يد الشيخ فتبعته فيما يفعل، قال أبي بعد أن أطبق يديه أسفل بطنه احتراما وفي صوته رجاء:

- هذا ابني إبراهيم يا مولانا، حافظ لكتاب الله، وكنت أرجو أن تضمه لتلاميذك لينتفع بعلمك الجليل يا سيدنا

أجاب الشيخ بصوته الوامق:

- العدد قد اكتمل، ارجع به بعد عدّة أشهر؛ قد يترك أحد التلاميذ الدرس

- أرجوك يا مولانا أن تضمّه...

حملق أبي يمينًا وشمالًا محاولا أن يجد حلًا، فقال مستدركا:

- جرّبه يا مولانا، اسأله

حملق الشيخ بلحيته البيضاء الذي تزيده رونقا، عدّل عمامته الخضراء ثم مد يده لي بالاقتراب، فدنوت منه حتى أصبحت أمامه. فقال:

- أوحى الله إليه وليس من الإنس ولا من الجن؟

تجلت ابتسامة طفيفة على قسماتي، وكان أبي يلتج عرقا؛ خوفا ألاّ أجاوب، فقلت:

- النحل.. قال تعالى (وَأَوْحَ رَبُّكَ إِلَى لنَّحْلِ أَنِ تَّخِذِى مِنَ لْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ لشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

- أوحى الله إليه من الإنس ولم يكن من الرجال وليس من الرسل؟

- أم موسى رحمها الله.. (وَأَوْحَيْنَا إِلَ أُمِّ مُوسَ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

لم تتغير ملامح الشيخ لكن نبرة صوته تبدلت وهو يقول:

- هل تفقه من الحديث شيئًا؟

أجبت مرتبكًا:

- أفقه القليل مما قرأت يا مولانا.

- ما تقول في رجل مسلم قادر بالغ عاقل صلى ولم يسجد في صلاته سجدة واحدة متعمدا، وصحّت صلاته ولم يؤمر بالإعادة؟

أجبت مسرعًا دون تفكير:

- هذا رجل يصلي على الجنازة، وصلاة الجنازة ليس فيها ركوع ولا سجود.

- ماذا تقول في رجل مسلم عاقل بالغ غير جاهل أُهديت له ميتة فأكل منها وهو غير جائع ولا مضطر وكان في ذلك غير آثم؟

- أُهديت له سمكة، وقد قال صلى الله عليه وسلم عن البحر: "هو الطهور ماؤه الحل ميتَتُه"

نظر إلى أبي وقال وهو يربت على ساعدي:

- لماذا تأخرت في إحضاره يا سعيد؟

قبض على عصاه وأكمل خطاه باتجاه الباب بمساعدتها، مضى قدما ثم قال دون أن يلتفت لنا وهو يشرع عصاه عاليا:

- تباشر درسي ابتداءً من الغد يا ولد.

كانت فرحة أبي لا توصف، خرجنا من المسجد والسعادة تغمره. ربت على كتفي فخورا وقال باسما:

- هل علمت ما منفعة الكتب التي تقرؤها يا بني؟

حملق أمامه، ثم قال متحمسا:

- لن نرجع إلى البيت، سنذهب إلى سوق المقاهي، ما رأيك؟

أجبت موافقا على الفور وأنا في غاية السعادة.. تنقلنا بين الأزقة إلى أن وصلنا إلى سوق المقاهي، كانت المقاهي يمينًا وشمالًا وقد سيطرت على أنفي رائحة القهوة القوية التي شاعت في المكان وتصاحبها روائح الدخان المنبعث من المدخنين، الذين يجلسون على مقاعد من المرمر تظللها الأشجار، تغطي تلك المقاعد على الأغلب بحصير جميل أو سجاد أنيق. شربنا فنجانين من القهوة الداكنة ونحن نجلس على إحدى تلك المقاعد، لم يعجبني مذاقها حينها لكني أحببت تجربة ما يقوم به الكبار.

عدت إلى المنزل واستقبلتني سعدية بابتسامة تتدلى من شفتيها، وقالت بلهجتها الغريبة:

- سبع ولا ضبع يا سيدي؟

فأجابها أبي وهو يتجاوزها إلى الداخل:

- أسد، ابني ضرغام يا سعدية.

- بالطبع يا سيدي.

دنت مني سعدية مسرعة وأخدتني في طوقها، نفشت لي شعري وهي تقول بفرح:

- كنت أعلم أنك ستفلح يا سيدي.

ثم استدركت بضحكة:

- المجنونة تنتظرك...

ذهبت سعدية لتنجز أعمالها، وولجت أنا للفناء، وجدت محبوبة تجلس تحت العريشة وهي ترتدي قفطانا زهريا، وتضع تستمال ([7]) أبيض على رأسها. أخبرتها بما حدث ففرحت وقدمت لي قطعة من الكعك وهي تقول بحياء:

- لقد أعددت لك هذه الكعكة بنفسي.

لم تنتظرني أن التقط الكعكة، فأطعمتني بيدها وهي قلقة من ردة فعلي. أخذت قضمه وقلت:

- إنها لذيذة، كيف تعلمتِ إعدادها؟

عقدت حاجبيها وأشرعت سبابتها في وجهي وهي تقول بتوبيخ:

- قل الحقيقة.

- الحقيقة إنها لذيذة.

فعادت الابتسامة التي تمتلئ حياء وقالت:

- قد علمتني سعدية إعدادها، وأنت أول من يذوق.

طرق باب المنزل ففتحت سعدية الباب، وكان صبحي هو الطارق، نظرت لي محبوبة وقالت مسرعة:

- هيا أكملها قبل أن يأتي ثقيل الظل هذا.

دخل صبحي بشعره الكث الذي يخلله بزيت ويمشطه محاولًا تحسين مظهره، ارتسمت الابتسامة البلهاء على وجهه كالعادة ونطق بصوته المزعج:

- كيف حالكم... لن تصدقوا ماذا أحضر لي والدي من سفره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت في اليوم التالي على صوت أمي وهي تقول

- جهزي الطفل ليذهب إلى درسه يا ابنتي.

فتحت محبوبة باب الغرفة ودخلت وجديلة شعرها الأدهم تخترق تستملها، قالت بصوتها الملائكي:

- صباح الخير على أنبه تلميذ لدى الشيخ ضياء الدين.

قلت متهكما وأنا أهبط من السدة ([8]):

- لم أصبح تلميذه بعد.

اقتربت مني ثم عقدت حاجبيها وأشرعت سبابتها كالعادة:

- ستصبح تلميذه، وأفضلهم أيضًا.

جهزت محبوبة ثيابي، فارتديت سورية الزفاير ([9]) واعتمرت معرقة ([10]) بيضاء خرجت من الغرفة وعقبتني محبوبة تقرأ عليّ الآيات القرآنية، ولم يمض الكثير حتى انضمت لها أمي بالأدعية والبخور، كانت أمي ومحبوبة جسدين لروح واحدة، تتشابهان في كل شيء وخصوصا عندما يتعلق الأمر بي.. ذهبت إلى الدرس ودونت في أوراقي كل ما قاله الشيخ ضياء الدين، وفور انعقاد الدرس صاح الشيخ باسمي وأنا أنصرف مع التلاميذ، فرجعت إليه وامتثلت بين يديه، فقال سائلًا:

- أراك تحمل دواتك وتكتب في الأوراق أثناء الدرس

- أدوّن إجاباتك على الأسئلة المختلفة يا شيخي، وأخط من الأحاديث ما لم أسمع

صمت الشيخ، فقلت بعد برهة:

- أني لا أرى أحد من تلاميذك يدون ما تقول يا مولانا، وقد بحثت في سوق الكتب عن كتاب لك فلم أجد... سامحني على تطاولي يا سيدي فلماذا لا تدون دروسك ثم تجمعها في كتب أو مجلد؟

قال الشيخ مشكِّكا:

- قلت لي كم تبلغ من العمر يا ولد؟

- أُقارب عامي العاشر يا مولانا.

أطلق أنامله في لحيته الكثيفة وقد تجلت ابتسامة طفيفة على قسماته، أشار بالانصراف ففعلت، وأنا في طريقي صاح قائلًا:

- لا تنس إحضار دواتك وأوراقك يا ابن خديجة.

وإنَّ كَبِير الْقَوْمِ لاَ علْمَ عِنْدَهُ
صَغيرٌ إذَا الْتَفَّتْ عَلَيهِ الْجَحَافِلُ

(٦)

دمست نفسي بين الأغراض لأشاهد أبي خلسة وهو يخبّئ مفتاح غرفة الكتب، وفور خروجه من الدار انطلقت إلى مكان المفتاح، التقطته واختلست مثل اللصوص نحو الغرفة، وضعت المفتاح في مكانه وأدرته ببطء كي لا يصدر ضجيجا، دخلت وأقفلت الباب بذات الحذر، حملقت بانبهار في الكتب المتراصة جنبا إلى جنب في رفوف من الخشب، مغلفة بشتّى ألوانها الزاهية، ومع أشعة الضوء المتساقطة من النافذة تعطي رونقا وجمالا لا يوصف للغرفة التي سميتها بكنز أبي، رفوف ممدودة إلى السّقف بعرض الغرفة، تتواجد بالقرب من الرفوف مصطبة مزينة بجاعد وتواجهها طاولة يستريح فوقها سراج صغير وأدوات وأوراق، كانت هذه إحدى أفعالي الشقية الّتي قمت بها في صباي، لكن بعد أن حفظت القرآن وأصبحت تلميذا لدى مولانا ضياء الدين بدا الأمر مختلفا؛ فأصبحت الغرفة غرفتي وأبي مجرد زائر لا أكثر. قرأت كتبا كثيرة بمختلف أنواعها، وبمجرد أن أنتهي من أي كتاب كنت أسرد ملخصه لمحبوبة فترد عليّ بما قرأته هي.. كنت أعود من الكُتّاب لأجدها قد أعدّت لي ملابسي وساعدت أمي في إعداد طعامي. لا تأكل مع أمي وأبي، وتنتظرني لنأكل سويا، تجلب لي أوراقها التي سطّرتها بخطها المبتدئ وتجلس بين قدميّ لأعيد عليها ما قلته في اليوم السابق أو أستزيد عليها بجديد قد تعلمته

تغيرت الأيام وتغيّرت ملامحنا وأوقاتنا من لعب وركض وراء بعضنا إلى علم وكتب.

لم تكن محبوبة مثل أخواتها أو بنات عماتي؛ لأن جلّ اهتمامهن كان بكيفية تزينهن، أو يتبادلن الثرثرة التي لا طائل منها أو فائدة. تعلّمت محبوبة بشكل أبهرني أنا وأبي فأصبحت أول أنثى في العائلة تستطيع فك الخط، فتقرأ كتاب دون تلعثم أو تكتب ما تمله عليها بخطّ تحسن بمرور الوقت.

بجلوسها بين قدميّ وبدء حصّتها أعلم أن كومة الأسئلة في طريقها إليّ، تسأل وتسأل حتى تعجزني عن الإجابة فأقول:

- سوف أسأل الشيخ ضياء الدين.

تكتب لي أسئلتها في ورقة كي لا أتأخر عليها بالأجوبة أو أتعذر بالنسيان. كان أبي في تلك الأيام منهمكا في بلاط الباشا؛ فقد انقطعت الأجازات وأصبح يوم الجمعة أيضًا من أيام عمله، فلم يتسن لي أن أراه إلا في المساء، أو إن استطاع الفرار ليرتاح قليلا وقت الظهيرة، وكان والدي أكثرنا سعادة بتعلم محبوبة، فيتفاخر بها ويمدحها أمام الجميع، وفي ذات مساءٍ كنّا نجتمع في دار عمي ففاض أبي غيظا من توبيخ الخالة المتزايد لمحبوبة فقال زاجرا:

- كفى يا أختي هداك الله، لماذا لا تريدون جميعًا فهم ذلك؟ محبوبة ليست مثل البقية فاتركوها وشأنها.

قالت الخالة مبروكة خجلة:

- لكنها يا سي سعيد، لا تتصرف بآدابنا وعاداتنا.

- ألم أقل لك إنها ليست مثل الباقين؟ لديكِ ثلاثة غيرها وبخيهن كما تريدين لكن ابنتي المتعلمة لا.

- كما أردت يا سي سعيد.

قالتها الخالة ودخلت المطبخ لتلحق بأمي وهي تحمل على كاهلها هزيمة أخرى من ابنتها التي لم تتصف بخصلة واحدة من خصلاتها. الخالة مبروكة معذورة فهي كبقية نساء طرابلس تعيش بالعادات والتقاليد التي وجدت عليها أسلافها، وهناك خطوط بمختلف ألوانها في عقلها لا تستطيع أن تتخطاها، لكن محبوبة لم تكن كذلك فهي متمردة على القواعد والشروط غير محتجزة في صندوق الجهل والسذاجة الذي يقبع فيه الباقون فتظهر لأمها وأخواتها غريبة الأطوار، أو كما تقول عمتي شريفة: محبوبة هذه قليلة الحياء.

أحب عمي عبد الله كحبي لابنته الذي سكن قلبي وتربع على فؤادي، يبهرني عمي بصنعته التي ورثها عن جدي؛ يمسك قطعة خشب مجردة لا حياة فيها وفي غضون ساعات من العمل يجعلها حية، تنطق وتتكلم، يجعل منها صندوقًا مزينًا بالصدف أو العاج أو ينقش عليه رسومات جميلة، فيجعل منها لعبًا خشبية بمختلف أشكالها وتفاصيلها وقد صنع لي ولمحبوبة الكثير منها أزوره يوميا في الدكان وأنا قافل من درسي، فأشاهد الحِرفيين الذين يجلسون في فناء الدكان، منشغلون بما بين أيديهم من خشب، فأحدهم يحمل منشارا ويقصّ به، وآخر يدق مسمارا بمطرقته المدوية، وثانٍ يحفر على خشبة ليكوّن رسمةً ملفتةً. أمّا عمي عبد الله ذو الشبه الكبير لمحبوبتي وربما لهذا أحببته كل هذا الحب، يجلس على مصطبته وهو يرتدي جبته الفاتحة المزركشة ويعتمر قلنسوة سوداء، فيشرف على سير الأمور من مكانه أو يتفق مع الزبائن، وأغلب الوقت يشتغل بنارجيلته التي لا تنطفئ.

وعندما يأتي الحديث عن شيخي ومولاي ومعلمي، فأقول أني ازدهرت في حضرته ازدهار الورود في الربيع، نضجت ثمار أبي وتشجيع أثيرتاي أمي ومحبوبة قربني شيخي له وأجلسني يمينه وأخذ بما قلته، فأصبحت أدون كل الدروس، ألازم شيخي بعد الدرس إلى منزله حتى أستزيد ببركته، ثم أرجع إلى البيت أقتات وأجالس محبوبة إلى أن يحين المغرب. أذهب للصلاة ثم أنصرف للاطمئنان على شيخي. أجلب له ما وجدته من طعام وأخدمه ومن فيض ملاصقتي له تقربت منه وهو كذلك فعل، أحببته مثل والدي وربما أكثر، كان ينطق بما أحتاجه في الوقت الذي أعوزه ودون أن أفصح

بشيء، وكأنّه يطالع ما في الصدور، ينطق بكلمات لا أدرك برهتها لكن مع مرور الوقت أعي مقصدها، وكانت هذه الشطحات تحل بين فينة وأخرى. دائما يناديني بابن خديجة، فقلت له ذات مرة:

- أنا ابن سعيد.

فأجاب غير مبالٍ:

- وخديجة، هل تخجل من اسم والدتك يا ولد؟

- لا، لكن النداء يكون باسم والدي ليس والدتي يا مولانا.

- ألم يقل سبحانه في كتابه، عيسى ابن مريم.

- لأنه ليس له أب لكن أنا لدي.

ارتسمت ابتسامة على وجهه ولم يجب.

كان هذا الحوار قد دار ونحن في الطريق إلى منزله بعد انتهاء الدرس، وصلنا إلى منزله المتواضع الذي يقع في أحد الأزقة البائسة. مد يده نحو الباب وفتحه، التفت لي دون سبب. وقال:

- الابن لا يقتل أباه؟

لم أفهم ماذا يقول كالعادة. فقلت:

- لا يا شيخي.

لم يتفوه بشيء آخر، ولج مسكنه وأوصد بابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فعلت الأيام فعلتها. تغيرت ملامحي وارتسم شارب خفيف ونبت شعر متفرّق على ذقني، فرع جسدي وأخشنّ صوتي معلنا وصولي سن الحلم تغيّرت محبوبة أيضًا فتدور جسدها وبرزت مفاتنها، وصار شعرها الأدهم الذي لم أر ولن أرى بحسنه يقارب فخذها فلم يعد التستمال أو غيره يقدر على إخفاء جماله لم يتغيّر شيء، وبقينا على حالتنا حتى أصبح أمر بداهي للجميع؛ إبراهيم لمحبوبة ومحبوبة لإبراهيم. إقامة محبوبة شبه دائمة في دارنا فتعاون أمي في أعمالها، ومنعت أي أحد من التدخل في حوائجي، فترتب وتكوي ملابسي، وتنتظرني بشوق العاشق لأعود من عملي فأصبحت أعمل رغم اغتياظ أبي في بادئ الأمر، وبسبب زيارتي اليومية لعمي أحببت هذه الصنعة، وأتقنتها على يد عبد الكريم أحد الحرفيين في الدكان ومع انصراف الأيام أيقنت بواجب العول على نفسي. فأبلغت عمي بنواياي وسألته إن كان يحتاجني للعمل، فقال بنبرته الساخرة:

- إذا اضطررت أن أطرد الجميع لتعمل معي يا بني لفعلت.

وأصبح يرحب بدخولي كل يوم للعمل وهو يقول :

- خير ما فعلت يا ولدي، أبوك قد جن بكتبه وأوراقه...

ثم يعرج قليل وهو يضحك قائلًا:

- ما رأيك أن تترك له البيت وتأتي للعيش معي وبهذا لن تضطر محبوبة لترك المنزل من بكرة الصباح إلى ظلمة الليل.

عمي عبد الله رجل ليس ككل الرجال، تجد الابتسامة الجميلة التي ورثتها منه محبوبة دائمًا على قسماته، لا يهتم لتعب الحياة أو مشقتها، رجل يسير على خطى مقولة لا ينفك عن ترديدها: كل الذي يأتي به الله جميل.

لم أنقطع عن دروس شيخي رغم انشغالي بالعمل، فلا أستطيع أن أترك مولانا مهما حدث، بل لا أستطيع أن يمضي يوم دون أن أبصر وجهه النيّر، انقسم يومي إلى ثلاث (عملي وشيخي ومحبوبتي) ويتبدد كل الكدّ الذي ألمحه في يومي عندما أعود إلى البيت فأجد محبوبة تنتظرني، تركض ناحيتي فور دخولي وإن كان لا يوجد أحد في الفناء ترتمي في حضني لأقبلها قبلة الخالة مبروكة، أرتدي ما جهزته لي من ثياب ثم نجلس نتسامر في جلستنا الأثيرة تحت العريشة، وبالطبع لا تحلو تلك الجلسة إلا بشاي العالة ([11]). أقصّ عليها كيف كان يومي في الدكان أو الدرس وتقصّ هي الأخرى عليّ مشاجرة جديدة قد قامت بها مع إحدى أخواتها أو بنات عمتي اللواتي لا يرقن لها، تأتي سعدية بكعكها وتجالسنا قليلا، نسمع منها بعض الأناشيد التي لا أعلم من أين حفظتهم، تبقى لبعض الوقت معنا ثم تنصرف إلى غرفتها لتنام. أشفق على هذه المسكينة؛ تصحو قبل طلوع الشمس فتنشغل بما ورائها إلى أن يحلّ الظّلام، وفي بعض الأحيان تأتي أمي وتنضم لنا بعد أن يخلد أبي للنوم. وفي إحدى تلك الليالي اضطجعت واضعا رأسي في حجرها فأخذت تسرّح لي شعري، ومحبوبة تدلّك لي قدماي، فحملقت فيها أمي وقالت:

- لم يعد أمامك إلّا أن تلقي نفسك بين قدميه يا مجذوبة... اثقلي فإن الرجال أمثال ابني الذين لا ينفع فيهم الخير يحبون المرأة الثقيلة وليست المعتوهة مثلك.

رمقتني محبوبة سائلة، فأجبتها نافيا بضحكات متقطعة، أردفت أمي قائلة وهي ترفع يدها كما تفعل حين تقسم:

- وربّ الكعبة لن أزوّجك له أيتها المجذوبة ولتضرب مبروكة وشريفة وكل نساء الولاية رأسهن في الحائط

واصلت أمي استرسالها في الكلام، في حين كانت محبوبة تدلّك قدماي، فشهقت لي وقالت:

- ألم أقل لك اثقلي أيتها الهبلة؟

وإنَّ صَغيرَ القَومِ إنْ كانَ عَالِما

كَبيرٌ إذَا رُدَّتْ إليهِ المحَافِلُ

(٧)

دخلت الحجرة وهي ترتدي قفطانا ورديا، وتربط تستمال أبيض مزخرف، باتت تستدير بجسدها وتكوّره يظهر بوضوح، كحّلت عينيها على غير العادة فازدادت جمالا على جمالها، حملقت بها طويلًا فارتبكت واحمّرت وجنتاها، شغلت نفسها وهي تحمل الأغراض الملقاة على الأرض وقالت بانشغال:

- إلى متى ستبقى هكذا؟

نهضت من مضجعي وأطلقت قدميّ نحوها، وقلت:

- أنا لست مهما، قولي لي إلى متى ستبقين أنتِ هكذا؟

تفرست النظر في وجهي لبرهة ثم أدركت توهانها، فقالت:

- أنا؟

- نعم إلى متى ستبقين هكذا... أجمل فتاة تراها عيني

- لم تزل نائما لهذا تهذي بالكلام

- هل هناك شك في ما قلت؟

ثم أردفتُ:

- ما سر التزين والتطيب إذًا؟

ارتبكت ومسحت براحتها وجهها نافية، وهي تقول:

- أي تزين؟ إنك لا تزال نائما...

مددت يدي وجذبتها نحوي، أطلقت أناملي بين خصلات شعرها ثم قربت شفتيّ من أذنها وقلت بصوت خفيض:

- إنّك لا تحتاجين إلى أيّ من هذا

طبقت يدي على خصرها فشعرت برعشة تسري بجسدها، تلعثمت وفقدت كلماتها وبغتةً تصلب جسدها واختفت أنوثتها، وأصبحتُ وكأنّما أحضن رجلًا، ولا أدري بنفسي وإلا قبضتها تنهال عليّ، تراجعت خطوتين وهي تعقد حاجبيها كالعادة قائلة:

- لا نريد أن تكمشنا الخالة وتقيم القيامة فوق رؤوسنا، أنت تعلم إني أحارب ألسِنَة الجميع من أجلك فلا نريد انتكاسات.

ثم خرجت من الغرفة مسرعةً قبل أن تفقد صوابها وتخور قواها تحسّست مكان الضربة وأنا غارق في ضحكي، ارتديت ملابسي وتناولت إفطاري على عجل من يدها، وإبانها لمحت آثار لكمتها المحكمة فقاربت على ذرف دموعها. خرجت من البيت سالكا طريقي المعتاد نحو الدكان. ولجت مصدر رزقي الذي كان عبارة عن بهو متوسط الحجم، يوجد به جلسة عمي عبد الله وفي المنتصف بالضبط تلمح فوهة كبيرة في الجدار تدخلك لفناء العمل، أتاني صوت حسن حال دخولي:

- صباح الخير يا إبراهيم.

اقترب بجسده الممتلئ، ووجهه الأملط الدميم، وقال بصوت منخفض:

- لماذا لم تأت البارحة؟ لقد انتظرناك...

تلعثمت القول فماذا أقول له؟! محبوبة قد منعتني من الخروج وصاحت غاضبة في وجهي على إهمالي لها؟

أدرك حسن كعادته ما سأقوله فانفجر ضاحكا وهو يقول:

- والله لأجدنّها قد ركبت وأطلقت ساقها.

استدرك قوله قبل أن أصفعه أو أركله فلفظ ساخرا:

- إني أمازحك.

حسن الحريري هو خليلي وزميلي في العمل، قد تعرفنا على بعض منذ سنوات في الكُتاب، لم يكن لقاؤنا الأول لقاءً مبهجا أو يدعو للخير البتة. في يوم ما بعد أن أكملنا جلستنا وأمرنا الشيخ زاهر بالانصراف، أتاني صبحي ابن عمتي ثقيل الظل ساخِط متلعثم القول يطلب جيرتي، فقد ألقاه حسن هذا بسخرية من سخرياته التي لا تطاق، ركضت نحوه وأمسكته من تلابيبه، رفعته وألقيته أرضا وأخذت اللكمة وأنا أصيح به زاجرا:

- اعتذر له، وإلا كسرت رأسك.

اعتذر حسن حينها كي أتوقف عن الضرب. ولم يبق صبحي إلا عدّت أيام ثم ترك الكُتّاب وطرابلس أجمعها بعد أن رحلت عمتي شريفة برفقة زوجها إلى مصر أم البلاد، أمّا حسن فقد بقي ومع الأيام تقاربنا وتصادقنا فنسينا ما دار بيننا في اللقاء الأول، قمنا بالكثير من الأعمال الشقية سويا؛ وكانت تنتهي دائما بفلقة الشيخ زاهر وعصاه الذي تنزل على أقدامنا.. ذهب الشيخ زاهر وفلقته وبقيت أنا وحسن كما نحن متلازمين طول الوقت، وكأنما خرجنا من ذات الرحم.

نزلت بمطرقتي على المسمار فأصدر هتافه معلنا ثبات الخشبتين ببعض، قد تطورت في هذا العمل يوما بعد يوم فأصبحت أنجز أعمالا في أوقت أقصر وحرفية أعلى، علّمني عبد الكريم كل حذافير هذه المهنة؛ كان يجلس في المطرح الذي أمامي ينجز أعماله بإتقان لم أر له مثيل، يقطع بمنشاره الخشب ويحفر بيديه الخشنتين بإجادة، يبصر عمله لوهلة بوجهه الشاحب الذي يعلن تجاوزه للستين عاما ثم يكمل صنيعته.. ذهب عبد الكريم منذ شهرين إلى ربّ كريم بعد أن ألفت وجوده بجواري يدخّن السجائر على مدار الساعة.

- إبراهيم، إبراهيم.

أيقظني نداء عمي من عملي. وضعت المطرقة واتجهت إليه، فوجدته في مصطبته بزيه المعتاد لكن قسمات وجهه لم تكن كالمعتاد، فقد استبدلت الابتسامة بغموض لم أستعمله

- كيف حالك يا عمَ؟

- اجلس يا ولدي.. تعرف عبد الرحمن خوجة أليس كذلك؟

- نعم أخ السفير أحمد خوجة.

تجلت ابتسامة طفيفة على قسماته وهو يضع يده على ذقنه يجهز لسؤال آخر، فقال:

- الله ينور عليك، وهل تعرف أبناءه؟

- نعم، الأربعة.

ازدادت الابتسامة تجليا وأنا غير مدرك ما يدور، فقال:

- ماذا تقول في المعتصم وعلي؟

- ولاد بلاد، أبناء عز من جد الجد، ولكن لماذا تسأل يا عمَ؟

- لقد طلبا يد قمرة ومرتوبة، وأنا أرى أنهما العريسان المناسبان!

قلبت الأمر قليلة في رأسي ثم قلت:

- خير النسب هم.

لم يمض الكثير إلا وابنتي عمي في بيوت أزواجهن. ودّعهن عمي بضحك ورقص ومغنى، الدف يضرب والمزمار يعلو فتصاحبهم زغاريد النسوة وصياح الرجال. مشهد كانت العائلة قد قاربت أن تنساه.

وبعد العرس بعدة أيام قد جاءني أبي مساءً، يصر على أن أرافقه الحفل الذي سيقام في قصر الباشا، لم أفهم تشبثه على اصطحابي، وهو يعلم أن المستنقع الذي غرق به لا يروق لي بدسائسه وفخوخه القذرة. وبعد إصرار، وجدت نفسي مرغما على الذهاب. جهزت محبوبة أفضل ثيابي رغم أني أعلم أنها لن تعني شيئا أمام الحرير والديباج المطرز بخيوط الذهب وإبانها قالت:

- لماذا لا تريد الذهاب؟ هل سبق أن ذهبت إلى السراي؟

- لا.

- فلمَ تحكم على مكان قبل زيارته؟

وبعد تدخل صوتها العذب وجدت نفسي في الطريق برفقة أبي، وأثناء دربنا كرر أبي ذات النقاط منبها:

- لا تتكلم، لا تنظر للباشا في عينيه، لا تجلس أو تشرب ما سيقدمونه قبل أن يفعل الباشا، لا تخوض أي نزال من نزالاتك حتى إن كانت في سرك عندما ندخل المجلس.

ثم قال مستدركا:

- نسيت، ولا تتحرك أو تقم بأيّ ردة فعل عندما ستعزف الفرقة الموسيقية.

ثم رددت بخفوت:

- الله يستر...

دخلنا شارع الخندق المجاور لسور السرايا العالي. عبرنا من الباب الخارجي الكبير إلى المدينة المصغرة المحاطة بالأسوار، دخلنا أولا إلى وسط الحوش المكتظ بالحرس المتأهبين أمام سقيفة

الكخيا وهو أعلى موظف لدي الباشا مرتبة ويشغل والدي منصب مساعده.. تركنا وسط الحوش الذي تطل عليه بعض الشرفات من الأعلى وتتصل به بعض الأروقة والدهاليز الجانبية، إلى الباحة المبلطة متناثرة الأشجار والزرع، ما تستطيع أن تميزه منذ دخولك هذه المدينة المصغرة وجود العبيد والمماليك في كل شطر داخلها، تركت أمر أولائك المغلوب على أمرهم الذين يباعون ويشترون كالبهائم في البازار كل يوم، وصعدنا السلالم الرخامية حيث الردهة المؤدية لمجلس الباشا. تقدم رئيس الشواويش بحركته الرسمية وزيه الأنيق ويكتمل بهاء تأنقه بشاربه الكثيف وطربوشه الأحمر الكبير، تقدّم الفرقة الموسيقية الّتي كانت تقف أمام باب المجلس صاح بصوته الجهوري العالي معلنا ولاية الباشا من جديد فيعلن رئيس الشواويش ولاية الباشا كل يوم أربعاء، لأن علي باشا القرمانلي قد تولى العرش في مثل هذا اليوم. بدأت الفرقة الموسيقية عزفها فأطلقت الأصوات بإيقاع منتظم ومرتب من الطبلة المرتكزة على الأرجل والمزمار والدف.. تأهّب الحضور للاستماع ولم يجرؤ أحد على أن يتحرك أو يقاطع عزف الفرقة وكأنهم جميعًا قد أملى عليهم أبي ما يقومون به، انتهت الفرقة من عزفها فأذِن لنا بالدخول للمجلس. كان المجلس عبارة عن قاعة كبيرة مربعة الشكل مبلطة بلاط حسن جميل لم أر مثله من قبل، تدعم سقفه أعمدة رخامية جميلة، ينتشر السجاد الأحمر في معظم أرجائها، أمّا عن الجدران فكانت تتزين بزخرفات وآيات قرآنية نقشت بخط جميل وعلقت بها لوحات بشتى أنواعها. جلس الباشا على كرسيه الذهبي المبطن بالحرير وكانت تتواجد من خلفه أعلام السلطنة التركية المزينة أطرافها بخيوط من الذهب.. على طرفي الطريق نحو كرسي الباشا كانت تتواجد مقاعد مزينة بسجاد مبطن ثمين. قعد الباشا ففعل الجميع المثل. ولم يمض الكثير حتى دخل عدد من العبيد يحملون كؤوسا مملوءةً بالمرطّبات بمختلف أنواعها، وأخذوا يوزعونها على الجالسين، وضع الباشا الكأس في ثغره فعقبه الجالسون بالفعل كانت المرة الأولى التي أراه فيها من قرب، ليس وسط موكب مكتظ بالجنود والزحام، كان في الخمسين من عمره تقريبا، يجلس على كرسيه بقامته القصيرة، لا يشبه أحدا من أبنائه البتة، لكنه ذو هيبة ويبدو عليه الوقار كان نجله الأكبر وولّي عهده البك حسن ذو الثلاثين عاما يجلس يمينه، وعن يساره يجلس ابنه الآخر أحمد تلميذ أبي في صباه. وغاب عن الحفل ابن الباشا الأصغر يوسف.

- شحت الأسواق بشحاح الغيث.

كان هذا أول ما سمعته وآخره؛ فلم أعر انتباهي للحديث وبقيت سارحا وهائما بين اللوحات المتدلية على الجدران التي لم أر في حياتي بجمالها، فرُحت أحملق فيهن واحدة تلو الأخرى، فأجد نفسي أنتقل بين طبيعة خضراء تشقها ينابيع زاهية، إلى فارس يمتطي جواده وتخفق من ورائه راية بني عثمان، ثم إلى صيادين قد انقضّوا على فريستهم، بعد لحظات من التمعن أيقظني أبي بقرصة في الخفاء فرجعت على أثرها إلى المجلس والمتحدثين ثقال الظل.

- الفلسفة والتصوف وجهان لعملة واحدة.

فأجاب آخر بكلمات لا يفقه فيها شيء:

- إنها أمور لم ينزل بها الله من سلطان، فإننا قوم لا يفقهون إلاّ القرآن والسنة.

قال رجل آخر بانفعال، وكان يرتدي بُرنسا قرمزي اللون مطرّز بخيط من الذهب ويعتمر عمامة بيضاء مزينة بجوهرة جميلة في المقدمة:

- آننا قوم نعيش ببركة أولياء الله الصالحين، وزهد المتصوفة منهج أسلافنا...

لم أعد قادرا على فهم التناقض الذي يدور، من يتكلم عن الزهد والمتصوفة وأين ؟ فوجدت نفسي أقول دون أن أشعر:

- إذا سمحت لي يا باشا بالّتكلم.

أشار الباشا موافقا، ارتبكت واعتُصِر جسدي عرقا بعد أن استدركتني عيون الحضور، ارتجف أبي خوفا وهو يهمس:

- ماذا تفعل أيها الأخرق؟!

فقلت بصوت عال:

- توجد في الخليقة ثلاث قوى غيبية والله أعلم؛ الوحي والعقل والقلب.

ازداد الحضور ترقبا بعد أن أومأ الباشا لأكمل كلامي، فأردفت قائلًا:

- فإذا زاغ المرء صوب الوحي وحده بات ظاهريا..

وإذا زاغ صوب العقل وحده بات فيلسوفا..

وإذا زاغ صوب القلب وحده بات صوفيًّا.

قال الباشا بعد أن اعتدل في جلسته:

- وماذا إن ابتغاها جميعها؟

- عليه أن يشيّد قناطرَ بينها

- وكيف يشيّدها؟

- بين الوحي والعقل لابد من قنطرة التفسير..

وبين الوحي والقلب لابد من قنطرة التأويل..

وبين العقل والقلب لابد من قنطرة الحب.

عم الصمت المكان للحظة ثم قال الباشا بانبساط:

- تالله لقد أصبت أيها الشاب.

انقضت الليلة التي انقلبت إلى فرح وسرور لدى أبي بعد أن سرقت الأضواء من الجميع على حد قوله فبقينا جالسين إلى أن أذن الباشا بالانصراف بعد الوليمة الذي أعدها لزواره، والتي جهزها بأشهى أنواع الأطعمة وأطيبها.

دَعِ الأَيَّام تَفعَلُ ما تَشاءُ

وَطِب نَفسا إذًا حَكَمَ القَضاءُ

(٨)

غربت العين، وقرع باب منزلنا، فركضت محبوبة لتفتح الباب لأبيها وهي طائرة من الفرحة، كان الوضع غريبا بعض الشيء؛ عمي أبو العروس يأتي ليخطبني من أبي أو بالأصح أتى يخبره بموعد العرس بعد أن قرر هو فقال:

- تجاوز إبراهيم الثامنة عشرة وبلغ سن الزواج وأنت تعلم وأنا أعلم أن الولدان يرغبان بعضهما منذ الصبا، لذلك خير أن نعجل بزواجهم، خلاصة القول أنا أتيت أعلمك بأن الخميس بعد القادم موعد العرس.

وعلى الموعد الذي حدده عمي أقيم الفرح، ذهبت العروس إلى الحمام كما هو المعتاد، وسط غناء وزغاريد النسوة اللواتي رافقنها، منذ ثمانية عشر عاما قد أقسمت أمي بقسم وقد أتى اليوم لتبرّر قسمها، فأمسكت بليفة وأغرقتها بالصابون ذي الرائحة الزاهية ونزلت بها على جسد محبوبة وبدأت بفركها وسط رقص وغناء الفتيات، ريثما أنهت فرك جسد ابنتها أنزلتها المغطس ذا المياه الساخنة ثم عقدت شالها حول خصرها وبدأت ترقص وتصفق بين النسوة الفرحات وكان هذا الشقّ الثاني من قسمها، خرجت محبوبة من المغطس بعد لحظات فذهبت أمي إليها مسرعة رافضة أن تكمل تزيين العروس أي عبدة، فأنقعت شعرها بماء زهر البرتقال ثم جففته بمسحوق فاحت رائحته وهو مكوّن من العنبر المحروق والقرنفل والقرفة والمسك، ضفرت شعرها الأسود إلى جدائل صغيرة عديدة، ثم أكملت ما تقوم به للفتيات في مثل هذا الوقت. أمّا أنا فكنت في المنشية برفقة أصدقائي الذين أصروا على ذهابنا قائلين:

- إنها جلسة توديع العزوبية والحرية يا معتوه

فركبنا رواكبنا أنا وحسن ويوسف وساسي، وانطلقنا نحو المنشية ذات السهل الفسيح، فور دخولنا إلى المزرعة الفواحة التي لا أعلم من أين أتى بها يوسف غطسنا في الجابية وسبحنا وسط ضحك ولعب، خرجنا من المياه البديعة في حرارة الشمس اللّفحة لنأكل ما أعدّه ساسي من طعام، جلسنا تحت شجرة الجوز لنأكل، وضع حسن يده ليأكل فصاح هلعا بعد أن ذاق الطعم:

- ما هذا أيها الأخرق؟

- ما بك يا حسن؟! لماذا السب

- هل هذا الوَسَخ تسميه كسكسي؟

مسح ساسي العرق الذي على جبينه وهو يقول ساخرا:

- تقريبا، صحيح أن معالمه قد تشوّهت لكنّه لا بأس به لأناس جياع مثلنا...

أمسك حسن بتلابيبه وهو يلعن :

- يا ابن ستين كلب أنت تعرف أني لا أحب المزاح في الطعام

تدخلنا وفضينا النزاع الذي سيتطور إلى تشابك الأيادي كما هو الحال بينهم دائما، خرجنا في العشِي إلى البستان وقطفنا البعض من ثماره، وتجولنا في أنحائه المخضرة، ثم عدنا للبيت الصغير في

المساء جلسنا في الرّواق الجميل الملتصق بالبيت، تنقلنا النرجيلة المحشوة بالتبغ بقصبتها الطويلة وفحمها المستخلص من شجر البلوط، أخذت أنفاسي الأولى بعد تردد طال، ثم أخرجت الدخان الأسود الكثيف.. قال حسن ضاحكا:

- ألم اقل لك إنها تنسي الهموم...

ثم أردف بسخرية:

- والفترة المقبلة ستحتاجها كثيرا

أتى دور يوسف، فأخذ أنفاسه ببطء وهو يقول:

- أرجو من الله ألا تفضحنا يا إبراهيم فقط

انفجر البقية ضحكا، فقال ساسي:

- إذًا لماذا أتينا إلى هنا؟ سوف نعلّمه كل ما يحتاج

تدخل حسن بسخريته المعتادة:

- انظروا من يتكلم! اللّلة ([12]) ساسي سيعلمه كيف يرفع رؤوسنا

تهاوينا ضاحكين في حين قال ساسي بغضب:

- ما مشكلتك معي يا حسن؟

تبدلت ملامح حسن وتلاشت ضحكته وهو يرمقنا بجديّة لا تصدق ثم قال:

- إني أحب الصبيّات أمثالك ليس إلا

انفجرنا ضاحكين لكن ساسي لم يضحك، فاندفع نحو حسن ليضربه، أمسكه يوسف فاستطرد حسن:

- اترك الجميلة ساسيّة يا يوسف لتقبّلني

أمضينا الليلة هكذا بين سخرية وضحك وأنفاس الحشيش التي زادتنا لذة ووفرة لضحك ومزاح وفي الصّباح عدنا أدراجنا عائدين إلى طرابلس وإلى منزل العرس الصخب.

في ستر الليل، لكنّه لم يكن فعلا كذلك؛ وسط القناديل والفوانيس الذي أنارت الحي بأكمله، نقلت العروس من قبل أبيها والأصدقاء، كان البعض يضرب على الدفوف والبعض الآخر ينشدون:

يـــا جبـــرات ويـــا جبـــرات

قفـــة بـــنتي بالـــدعكات

ميَّـــة وأطنـــاش الـــسابات

نوبادجيَّـــــة وزمزمـــــات

خطمـــت من الأربـــع عرصـــات

ودبـــالج كيـــف الجمـــرات

صيـــايغهم قـــالو مـــات

قـــالوا منـــو يـــا بنيَّـــات

قـــالو قفـــة باشـــاوات

والعـــدو شـــهق ومـــات.

يحمل الصبية والجواري سلال البتات ([13]). ويرافق الزفة بعض النسوة اللواتي لم يظهر منهن سوى أعينهنّ من تحت فراريشهم وهنّ يزغردن ويغنين حتى وصلن المنزل وأدخلن العروس إلى بيتنا.. قبل دخولي ذهبت لمولانا وقبّلت يده وطلبت منه أن يدعو لي، فقال:

- بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في الخير.

دخلت بيتنا في زفة صاخبة قد أقيمت من الرجال بعد منتصف الليل وقد اشتملت على ضرب الدف والمزمار كما تقتضيه العادة. ولجت المنزل فاستقبلتني أمي وهي تقول:

- هنيئا لك يا ولدي، هيّا لا تُطِل انتِظار المجذوبة الّتي في الداخل والله إذا تأخرت أكثر ستخرج وتقيم القيامة فوق رؤوس الجميع.

أتت الخالة مبروكة مسرعة وهي تحمل المبخرة فبخرتني وهي تقرأ آيات من القرآن، حضنتني وقالت:

- اهبط يا ولد فلم أعد أطول جبينك

قبلتني قبلتها وهي في غاية السّرور، أطلقت قدميّ وأنا غير مصدق ما يحدث.

اجتزتهما وأنا أمسك بجردي الذي أثقل عليّ في ليلتي الصاخبة وقبل أن أصل إلى باب الحجرة سمعت صوت سعدية تقول:

- يا سيدي، يا سيدي

اقتربت مني بقفطانها الأزرق وهي تعقد التستمال كالعادة على رأسها، دنت وابتسامتها الجميلة تتدلى من شفتيها، وكأنها لم تكبر يوما واحدا منذ أن أتت منزلنا، مدّت يدها وهي تحمل كيسا، وقالت بحياء:

- إنها هدية الفرح يا سيدي، قد اشتريتها لك بحر مالي.

نسيت الصخب والهرج انعقد لساني، وبتّ غير قادر على التفوه بحرف، فقالت بابتسامة بعد أن لاحظت توهاني:

- إن النبيّ قبل الهدية يا سيدي... صحيح إنها ليست من مقامك لكن هذا ما استطعت عليه.

قلت وأنا أخجل من نفسي:

- مقامك عالٍ في كل حال يا سعدية.

التقطت الهدية وقلت:

- العقبى لكِ يا طيبة.

دخلت الحجرة فوجدت محبوبة مدثرة الرأس تجلس في السدة. اقتربت منها وقلبي يخفق بقوة مفزعة، رفعت الغطاء عن وجهها فتبين لي القمر في جلاء بدره؛ لونها الخمري ووجنتيها المحمرة خجلًا، جبينها العريض الذي اعتدت تقبيله، عيناها اللوزيتان اللتان أهيم فيهما، ثم يأتي شعرها الأدهم الطويل ليكمّل الصورة جمالا.

صلينا ركعتين كما حثّتي مولانا، أبطأتُ في السّجود وأنا أدعو

الله أن يجمع بيننا على خير.. انتهينا من الصلاة فحملتها بين ذراعيّ، وصعدت بها إلى السدة وهيا تداعب لحيتي وتقبلني بخجل، وفي الفراش اجتمعت أرواحنا قبل أجسادنا، وحينها رأيت محبوبة أخرى غير التي عرفتها منذ الصِّبا.

وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيالي

فَما لِحَوادِثِ الدُنيا بَقاءُ

(٩)

انتهت أيّام العسل، فقد قضيت أربع ليالٍ لا أنهض فيها من الفراش إلا للصلاة أو الأكل؛ لأربعة أيام متواصلة بقيت محبوبة تتزّهني في أنحاء بساتينها الجميلة.

ارتديت ملابسي كما لم أرتديها من قبل، بأناملها الناعمتين غسَّلتي وألبَستني ثيابي.. خطوت الأزقة والأحياء بعد أن أطعمتني بيدها مثل طفل رضيع، وصلت حي الفندقية، وولجت المسجد، اتجهت ناحية الرّواق الذي يقام فيه الدرس. رأيت التلاميذ متجمهرين في حيرة من أمرهم وشيخي غير موجود فسألت أحدهم:

- أين مولانا؟

- لا نعلم يا إبراهيم، فمنذ يومين لم يحضر للدرس، وذهبنا بالأمس لداره طرقنا بابه ولم يجب.

لم يكد الشاب يكمل جملته حتى انطلقت مسرعًا، خرجت من المسجد وأنا لا أرى أمامي.. ركضت لاهثا إلى أن وصلت مسكن مولانا، أخرجت المفتاح من جيبي ووضعته مكانه فانفتح الباب بكل يسر، ولجت للدخل فلم أجد له أثرا داخل حجرته الزهيدة، خرجت من الحجرة في حيرة من أمري وأنا أردد في نفسي: أين ذهب شيخي العجوز؟ أين سيذهب وهو مقطوع النسب ليس له زوجة أو ذرية أو أقارب؟!

استنبأت من الجيران، لكن لم يفدني أحد بشيء، لم يره أحد منذ أيام.. فباشرت بحثي عنه في كل مكان، المساجد، الزوايا، الأضرحة، الخانات، الساندانار ([14])

عدت بعد صلاة العشاء إلى المنزل خائب الأمل، لم أعثر عليه أو أستدل على أثره، لم يره أحد وكأنما الأرض انشقت وابتلعته.

أعدت الكرّة في اليوم التالي، فخرجت منذ أن طلعت الشمس بصحبة رفاقي وباشرنا البحث عنه في كل أزقة طرابلس. وبحلول المساء كنّا قد مشّطنا طرابلس بأكملها، فلا توجد بقعة إلا وبحثنا بها لكننا لم نستدل على أثره وكأنما لم يعش على أرض طرابلس رجل بذات السمات.. رجعت ليلًا أجر أذيال خيبتي، ارتميت في حضن محبوبة أبكي مثل طفل صغير عاجز على فعل أي شيء

- لقد فرطت في مولانا

- لا إنها ليست غلطتك يا حبيبي

- لقد ضاقت نفسي لفراقه، كيف لشيخي أن يهجرني؟ كيف؟

مسح بيديها الناعمة دموعي، وقالت:

- لا تفعل في نفسك هكذا يا حبيبي، لعله خير.. إن مولانا رجل مبارك ولن يقدم على شيء يشق عليك دون أن يكون به خير.

بقيت برفقة الرجل الصالح لسنوات حتى أصبح جزءا من روحي، فكيف يختفي فجأة؟! أسترجع ذكرياتي معه، كيف كان لقاؤنا الأول وأسئلته؟ الدروس التي لم أنقطع عليها يوما، أجلس بجواره وأدوّن ما ينطق به من معرفة وبعد ردحٍ من الزمن جمعنا كل تلك الدروس ونقّحناهم ورتّبناهم ثم أودعناهم كتابين قد ترك لي مولانا عناوينًهما فأسميتهما: خلاصة القول، وميزان العقول

شطحاته التي حيّرتني في البداية، رطنه بكلام غير مفهوم، أشعاره المنتظمة التي يطربني بها، تلاوته العطرة؛ فالحنجرة التي رزق بها لم يملكها غيره من البشر. قد شعرت بكل شيء وأنا بصحبته، كل المشاعر والأحاسيس المتضادة. وبعد رفقته أيقنت قول أبي بأنه ولي من أولياء الله الصالحين. فكيف يفل قمر دنياي في لمح البصر؟ كيف أفرط فيه بهذه السهولة؟!

وَكُن رَجُلًا عَلى الأَهوالِ جَلدا

وَشيمَتُكَ السَماحَةُ وَالوَفاءُ

(١٠)

دخلت إلى المنزل بعد أن صليت الجمعة، فور ولوجي للسقيفة المؤدية للفناء شممت رائحة البازين ([15]) الذي تراقصت ريحته في الأرجاء. استقبلتني محبوبة كالعادة قبل دخولي للفناء، قفزت وتعلقت بجذعي وأطبقت ساقيها في خصري، فأصبحت ضئيلة الحجم لا ترى في ثنايا جردي الأبيض. وقعت طاقيتي على أثر الاصطدام فلم أهتم طالما وجدت القبلات التي تنسيني أهوال الحياة، نفشت شعرها باسِما وقلت:

- إني أشتم رائحة بازين

- نعم... وأنا من أعددته

حدجت الفناء لبرهة ففهمت هي مقصدي قبل أن أنطق وقالت:

- أمي في غرفتها، وسيّدي لم يعد من السرايا

أحكمت الإمساك بها وانطلقت أركض إلى الحجرة.

أيقظتنا أمي من غفلتنا ونحن نلهو قائلةً

- احتشمي يا خرقاء قليلًا، سيدك قد عاد

انفض المهرجان بعد كلمات أمي فانطلقت محبوبة للمطبخ لتنهي وجبتها، في حين ذهبت أنا لأجالس أبي تحت العريشة. كان على غير العادة وجهه مكفهر، عيناه تزوم بفتور، والذي زادني ريبة أنه ذهب للسرايا يوم الجمعة، فمنذ أزل بعيد لم يعمل في وقت أجازته

- جمعتك مباركة، كيف حالك

- الحمد الله

لفظ بها وكأنما يحمل جبالا على كاهله. فقلت:

- خير إن شاء الله، ماذا هناك؟

رمقني بتوتر وقال متوجسا:

- إن الطاعون قد تفشى في تونس، وتونس ليست بالبعيدة عنا...

صمت لبرهة وهو يستجمع قواه ثم أردف قائلًا:

- إنه الهلاك، قد نُقلت أخبار لديوان الباشا، عن سفينة فرنسية قد تفشى على ظهرها هذا الخبيث، رفضت السلطة المالطية أن تستقبلها في مينائها خوفا من تفشّي الوباء بين الناس؛ فاضطرّت السفينة للذهاب لجزيرة لامبيدوزا. وهي جزيرة يعيش بها بعض الرهبان والقليل من الناس. وإبّان سبعة أيام فقط من رسو السفينة مات جميع سكان الجزيرة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله

ثم أضاف قائلًا:

- قد تم استدعائي اليوم لأنه قد قدمت سفينة تركية تحمل على ظهرها هذا الهلاك الأسود، التمس بحارة السفينة منا أن نحلق رؤوسهم ويسبحون إلى اليابسة بعد أن نحرق سفينتهم

- وماذا كان الرد؟

- رفضنا الالتماس، فبهذا نعرض حياة الكثير للخطر

لم يمض الكثير حتى أتت محبوبة وأمي بالطعام، الطعام الذي أصبح شبه نادر في الوقت الراهن؛ فالمحاصيل قد شحت بزوال الغيث وبذوره قد جفّت في الأسواق إلى حد النفاد، ومنذ أيّام قد نفق القمح تقريبا من الأسواق وأصبح الاعتماد على الشعير. حالة البلاد يرثى لها، الجياع في كل صوب وصرنا على أبواب مجاعة مخيفة لم تشهدها البلاد من قبل، حتى أن الأمر أصبح مرعبا عند علية القوم أن يمتطوا جيادهم خارج الأسوار خوفا من الجياع الذين يثوون على جنبات الطّرقات.

خرجت عصرا نحو سوق المقاهي للالتقاء بالأصدقاء، ذرعت الأزقة باندهاش وأنا أرى الحزن يزداد يوما بعد يوم. وفدت حيث مصاطب المرمر، أخذت أحتسي القهوة وأصحبها بسيجارة بديعة قد لفها يوسف، كان حسن على يميني يقذف ساسي بسخريته المعتادة ويوسف منشغل بالضحك وتدخين السجائر، تبادلنا الحديث عن أمور الحياة الّتي اصبحت تضيق في كل يوم أسوء من الذي قبله فقد كان يوسف يعمل سائق كروسة ([16])، وساسي مبيض نحاس، وإبان الحديث قال يوسف:

- هل سمعتم ما حدث؟ لقد وصل كفه جي ([17]) من القسطنطينية معه قفطان من السلطان للباشا

- قفطان بمناسبة ماذا؟

- بمناسبة ميلاد ابن السلطان

قال حسن باغتياظ:

- قفطان ها! كان أولى به أن يرسل الطعام للناس الّتي تموت جوعا هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البحر أمامي كما لم أعهده من قبل، أطلقت قدميّ نحوه خوفا أن يبتعد مني. دخلت فيه ركضا إلى أن اختفى جسدي. لم يكن أحد بالجوار أنا فقط أسبح، بعد ردحٍ من الزمن رأيت أحدهم يقترب من الشاطئ، يرتدي ثوبًا على ما يبدو، تفرست النظر به ثم خرجتُ من الماء أركض نحوه؛ كان مولانا هو من يقف على الشاطئ بزيه المتواضع لكن عمامته قد غابت، رحت أصيح وأنا أدنو منه:

- مولانا، أين ذهبت وتركتني يا سيدي؟

دنوت منه أركض فوجدت غرابا مكبل يقف على ساعده وينعق بعلو صوته فقلت:

- كيف حالك يا سيدنا، قد اشتقنا لك

نظرت للغراب الذي أصبح نعيقه يصم الآذان. وقلت:

- ما به يصيح يا مولانا؟

قال مكفهر الوجه:

- إنه نذير شؤم، كبلتها لأحول بينك وبين الحزن ولكن لا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه.

أفقت مفزوعا، التج عرقا، منهك الصواب. هدأت محبوبة من روعي، وروتني رشفة ماء، لكن عويل الغراب الخانق لم يفارق مسمعي.

وَإِن كَثُرَت عُيوبُكَ في البَرايا

وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَها غِطاءُ

(١١)

أوصدت باب الدكّان في الظلام الذي بتره بضعة مشكوات معلقة في الزقاق. قال حسن بنفاد صبر:

- ما هذا البطء، أسرع يا رجل

أطلقنا قدمينا في الزقاق وضجيج قفل الأبواب يدوي هنا وهناك، وإبّان سيرنا قال حسن بقلق لم أعهده منه:

- لم تصل أخبار جديدة؟

- يقولون إن الموت الأسود يفتك بحياة سبعمئة شخص يوميا في تونس...

- لا إله إلا الله

ثم تبعت بتوتّر قد أنساني إنهاك العمل:

- وتونس على بعد ثلاثمائة ميلٍ فقط، أصبح حالنا مثل الذي ينتظر حكم إعدامه الذي لم يحن

أجاب بفتور:

- إنه غضب من الله، فقد استحلّت الأعراض وحلّت أموال الباطل...

تلعثم القول ثم أضاف بتردد:

- وكثرت المعاصي...

حملق بي وقد أحمرّ وجهه الدميم ذو الأنف المفلطح:

- إني أشهد الله على توبتي، سأقلع عن شرب اللّاقبي ([18])

هدأت ملامحه قليلة وراح يعود لطبيعته، فقال:

- وسأقطع يد يوسف اللعين إن مسّ شجرة أو أعد لاقبي مرة ثانية

كتمت ضحكتي خوفا من تغيير رأيه، فكل شيء متوقّع من حسن!

انفصلنا عند المرتفع، أكملت أنا طريقي في حين أطرق هو يمينًا، وصلت دارنا ودخلت وفور ولوجي من الباب سمعتها تقول:

- لقد أقلقتني، لماذا تأخرت؟

دنت مني وهي ترتدي رداءً قطنيا زاهي اللون والتستمال على ناصيتها وخصلات شعرها الثائرة تتدلى بخفاء، دخلت في حضني حتى اختفت، بقينا للحظات دون أن ننبس ببنت شفة. همست في أذنها:

- ورب الكعبة إنك أنتِ التي تجعليني أحيا في وسط الكآبة

وقبل أن تنطق بشيء، دوى صوت أبي:

- إبراهيم؟ هل قدمت يا ولدي؟

تبسّمت لها قائلًا:

- لقد سرقني منك...

وفدت العريشة؛ جلسة دارنا الأثيرة، قبلت رأس والدي ثم جلست.

- كيف حالك يا بني؟ وكيف أمور العمل؟

- الحمد لله... لقد شحّت أرزاق الجميع

أردفت قائلا، بعد أن أدركت أنه يخفي أخبارا هامة:

- ما أخبار عملك أنت؟

دنا مني وقال بصوت خافت:

- اه، لقد بدأ يتفشّى في الضواحي وهناك بعض الأعراب قد لقو حتفهم...

شهقت من أثر الخبر وكأنني لم أتوقع ذلك، وقلت باضطراب:

- وكومة الصعاليك ما يسمون نفسهم أفنديات يوهمون الباشا كالعادة، المجاعة منذ زمن تدغر البلاد ولم نر حكومة الخزي هذه...

كنت مقدم على أكثر من هذا بل ربما حتى شتم الباشا وبلاطه فقلت:

- يجب أن تترك هذا المستنقع، أنت ولد بلاد والجميع يشهد بذلك

- إن فعل كل ولد بلاد هذا، فلن يبقى بجوار الباشا سوى الملاعين وتضيع البلاد أكثر ممّا هي عليه الآن

- إن دخل الطّاعون طرابلس لن تبقى هناك بلاد حتّى تضيع.

غرق في صمته ولم يجبني، وبعد بضع دقائق نهض مترنحا حائرا، كأنّما تبدل لشخص آخر غير الذي أعرفه.

انعقدت الأيام لكنّ الموت الأسود لم ينعقد، صار يدنو علنا مخلّفا في إثره أعدادا لا حصر لها من القتلى، يتفشّى بصورة مخيفة ويسنّ سيفه على الجميع فلا يراعي حرمة شيخ كبير أو براءة طفل صغير، الجميع يسقط خائرا، غنيا كان أو فقيرا، وكل ذلك يطرأ على مسمعنا ونحن لا نملك سوى الانتظار .

وَرِزقُكَ لَيسَ يُنقِصُهُ التَأَنّي

وَلَيسَ يَزيدُ في الرِزقِ العَناءُ

(١٢)

صعدت فوق سطح المنزل في ستر الليل كي أشاهد الموكب وأتأكد بنفسي من الكلام الذي قد شاع.. كانت اللّلات الثلاث وسط حراسهن وعبيدهن في موكب كبير. تقدّم الموكب شاويش ذو صوت جهوري يحمل مشعلا في يده، ويهتف عاليا بإخلاء الطريق للموكب، ومن يجرؤ على النظر في

الأميرات سيعرّض نفسه لحكم الإعدام، كان الحرس كثر والعبيد أكثر وهم يحملون سلال وصناديق، عبروا تقاطع الطّرق وقد وجدوا إخوانهن أحمد ويوسف فوق خيولهم بشموخ ينتظرونهنّ ليذهبوا سوية إلى مربط سيدي عظيم.. كان الموكب يحمل بعض الشياه ولابد أنهم سيذبحونها في المزار لتحل البركة. هبطت من السطح وأنا أزداد حيرة، فماذا يخبئ القدر لنا أيضًا؟ قد راحت الضحايا بالسقوط داخل الأسوار أيضًا، مما بثّ الهلع إلى حد الجنون بين الناس، وأنا أولهم، وهكذا خيّل إليّ.

فور خروجي من المطلع ([19]) قالت سعدية:

- هل مروا اللّلات كما شاع يا سيدي؟

- نعم

قالت بتردّد وهي تنظر للأرض:

- أنت متعلم يا سيدي، فماذا يقال عن هذا الطاعون؟

- قال رسول الله صلوات ربي عليه" إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها "

رمقتني بنظرة تملؤها تساؤلات ثم قالت بخنوع:

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

في غضون القليل كنت في مضجعي وفي حضني تستريح محبوبتي، قالت بانقباض:

- ما الذي يحدث؟ ما الذي حلّ بنا؟

تلبّكت، فماذا أقول لها؟ إذا كنت أنا نفسي خائفٌ وفي فزعٍ من أمري، أجبت بسكينة قدر الإمكان:

- الله وحده يعلم.

صمتت قليلًا ثم أردفت قائلة:

- سمعت بأن الوباء قد وصل للسرايا أيضًا فقد مات بالأمس طفل لم يتجاوز ستّ سنوات، ومن قبله قد توفيّ أحد جيراننا وغيرهم الكثير... إن بقيَ الحال هكذا سيموت كل من في طرابلس بل كلّ من في الولاية!

ازددت تشويشا، هل أقول لها إننا في الدكان اقتصر عملنا على صناعة النعوش لا غير؟ أم أقول لها عن الكمّ الذين أعرفهم ولقو حتفهم؟ أم أقول لها إن إصابة أي منّا واردة وفي أي وقت؟ تابعت وأنا غارق في تفكيري:

- لي صديقة نصرانية قد دخلت في الحجر الصحي إلى أمد غير معلوم، كيف يكون الحجر هذا؟ وطعامهم، ماذا سيأكلون... ومن قال إن الطعام غير ملوّث!؟

أجابت عن نفسها، وأنا غارق في صمتي:

- لابدّ أن هناك طريقة لتنظيف الطعام من الطاعون!

وبعد برهة قالت بوجس:

- يجب أن تسأل، فنحن أيضًا يجب أن نقوم بالحجر الصحي هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قاطع سير عملي صوت أبي الّذي انبعث من البهو، تركت ما بين يديّ وقطعت الفناء مسرعًا، كان يجلس بجوار عمي، فقلت متسائلًا:

-أبي عندنا، خير إن شاء الله!؟

حملق بي في صمت ثم نظر إلى عمّي وقال ضاحكا:

- من الذي عندكم يا ولد؟ لقد عملت هنا قبل أن تولد حتى.

فتدخل عمي بضحكة مباغتة:

- لكنه هو من يعمل الآن يا كاتب الباشا

ثم أردف قائلًا:

- أخي لا يأتي في خير أبدا، ابن البك قد توفّي ويريدك أن تذهب معه إلى الجنازة فلا يصحّ أن يذهب مساعد الكيخيا بمفرده.

قاطع أبي عمّي مستاءً وقال بحزم:

- ألا تكفّ عن السخرية يا عبد الله؟

- وهل لي غيرها يا أخي في وضعنا الهباب!

ضحية جديدة وجنازة جديدة سببها الموت الأسود، لكنّها ليست أي ضحية؛ كانت جنازة غير كل الجنائز التي حضرتها، والنعش الذي وُضِع على العربة غير كل النعوش التي أصنعها.. اكتظّت الجنازة بالجنود الذين كانوا في أبهى صورهم. تتأرجح بنادقهم من على أكتافهم وترقد سيوفهم في أغمدتها، أمّا عن العبيد فقد انتشروا هم الآخرين كما هو الحال دائمًا.. كانت الفرقة الموسيقية تضرب بإيقاعها البطيء الذي يدعو للحزن، استمرّ سير الموكب على ذات الوتيرة إلى أن وفدنا للمسجد الكبير الذي يضم مقبرة الأسرة الحاكمة، لم يكن المسجد ككلّ المساجد في طرابلس، بارتفاعه الشاهق وبسجاده التركي الفاخر، جدرانه مزخرفة بالقرميد الصيني الجميل، حبال الزّينة الّتي علّقت بها المصابيح القديمة، كانت تتدلّى من قضبان الحديد المطلية بالأزرق والذهبي، والتي تشبثت بالستة عشر عمود الموجودة. قاطع سير مشاهدتي للبناء البديع الإمام عندما كبر لصلاة الجنازة...

سلم الإمام وانتهى من أدعيته فاقترب أربعة عبيد أشدة وحملوا النعش نحو مثواه الجديد أمّا عن مقبرتهم فقد كانت فاحشة الثراء كمحياهم؛ القبور تكسوها أكثر أنواع الرخام نقاوة وبياضا مليئة بكميات مهولة من الزهور النضرة العطرة، وتكسو معظم القبور عقود زينة من الياسمين العربي، بالإضافة للريحان، والورد الأبيض، والزهور الحمراء الّتي تناثرت في المكان مطلقة روائحها تكاد تنسيك أنك في مقبرة، أو في جنازة صبيّ لم يبلغ السابعة من عمره، وُضِعَ النعش أرضا وأنزل الجثمان إلى اللحد المبيض بالكلس، اصطف البيك وأخوه والبعض من المقربين ليتسلموا واجب

العزاء، بعد آن قمت بالواجب تسحبت من الزحام ذاهبا إلى زنقة الاسبانيول، طرقت باب آحد المنازل فأتاني الرد من وراء الباب:

- من الطارق؟

- أنا إبراهيم بن عمر، هل القديس بيتر موجود؟

- إنه في القداس، لكن موعد رجوعه الآن

بقيت بالقرب من الباب أنتظر القديس بيتر، ولم تمضِ إلاّ لحظات قليلة وظهر القدّيس بيتر بثوبه الأسود الفضفاض، قادما من ناحية زنقة البليك، سار بخطواته المستقيمة وصليبه يتدلى من عنقه، هتف القديس فور أن رآني:

- سي إبراهيم هنا، أهلا ومرحبا

- كيف حالك

- نشكر الرب على نعمته...

ثم أردف قائلا:

- خير، ما سبب الزّيارة يا سي إبراهيم؟

- كنت أريد مساعدتك يا سيدي

- تفضل ما مرادك؟

- قد علمت أن بعض النصارى الذين أتوا من خارج الولاية قد وجدو حلولا يردَعون بها هذا الوباء عن بيوتهم وطعامهم.

- هكذا إذًا ...

قال القديس التدابير وهو يسرّح لحيته الطويلة، شكرته وعدت أدراجي من ناحية زنقة البليك، أطلقت قدميّ وأنا متضارب الأفكار في الشارع الخالي، وإبّان سيري سمعت تنهدات مضطربة، اقتربت أكثر فوجدّت عجوزا كبيرة السّن هزيلة الجسد، شاحبة الوجه، تتكوّر على الأرض خائرة القوّة، وتظهر عليها بوضوح أعراض الطاعون من غرغرينةٍ في اليدين والساقين، توقّفت أنظر إليها على مضض تخبّطت أفكاري ولم أعِ ما عليّ القيام به، هل أساعدها ؟ أم أتركها لقدرها، خوفا أن تصيبني العدوى إذ اقتربت منها.

وبعد طول تفكير وجدت نفسي أركض هربا، وعيناي تذرف الدموع، أسأت لحالي حينها، كيف تنهزم قوتي إلى هذه الدرجة؟ كيف لي أن أترك عجوزا خائرة القوة لموتها المحتوم دون أن أنبس ببنت شفة؟ أكملت ركضي في الزّقاق الموحش مبتعدًا عن التنهدات الّتي باتت تضرم مسمعي، وأنا أقول معاتبا نفسي الجبانة: هل خرت وجبنت يا ابن خديجة إلى هذا الحد؟

وَلا حُزنٌ يَدومُ وَلا سُرورٌ

وَلا بُؤسٌ عَليك وَلا رَخاءُ

(١٣)

جلست أتأمّل البهو الفارغ والفناء منعدم من ضجيج العمل أو صخب العاملين. قد وضعت المعدّات في الدولاب حيث ستبقى إلى أجل غير مسمّى، بحثت بعيني عن صندوق أو دولاب أو لعبة خشبية كنّا نصنعها فلم أجد سوى العراء.

- هيا بنا يا إبراهيم

أتاني صوت حسن وهو يقفل النافذة المطلة على الشارع بقوة نهضت من جلستي وأطلقت قدميّ إلى الخارج وأنا في حيرةٍ هل أستطيع فعلًا أن أقفل الدكان إلى أجل غير مسمى؟ جذب حسن طرفيّ الباب ليسرّع من حركتي البطيئة وهو يتمتم:

- ما بك؟

قلت وأنا أقفل باب الدكان:

- برأيك سنبقى هكذا إلى متى؟

- عليك اللعنة يا إبراهيم فأنا ليس لدي رأي، لذلك هيا بنا لنعد أدراجنا.

لم نتبادل الكلام ونحن في طريق عودتنا على غير العادة، وإبان الصمت التام وصلنا إلى مفترق الطرق عند المرتفع، وهناك صاح ساسي ولوح بيده مرحبا. اقترب والعرق يتصبب من جبينه تبادلنا السلام ثم قال:

- هل كنت في الجنازة؟

أجبت هلعا:

- جنازة من؟

مد كُمّ قميصه نحو جبينه ومسح عرقه ثم قال متعجبا:

- لم تسمع إذًا! البعض من صهركم؛ عائلة خواجة قد لقوا حتفهم.

- من الذي مات منهم؟

- الحقيقة لم أعرف من بالتّحديد لكن نفر منهم.

انطلقت إلى المنزل مسرعًا، وسمعت حسن يقول:

- ساسية الثرثارة لا تجلب إلا الأخبار السيئة.

لم يمض الكثير حتى دخلت المنزل، فتحت الباب، ولجت، قطعت السقيفة نحو الفناء، ولم تستقبلني محبوبة كالعادة، دخلت الفناء وكشفت بنظري فلم أجد أحدا فقلت عاليا:

- محبوبة، محبوبة

لم يأتني ردّها المعتاد بصوتها الناعم، وبعد برهة من الانتظار خرجت سعدية من المطبخ، قالت فور أن رأتني:

- على سلامتك يا سيدي

- أين محبوبة إذًا ؟

وقبل أن تجيب سعدية خرجت أمي من حجرتها وقالت:

- ادخلي للمطبخ يا سعدية وجهزي الطعام... لقد عدت يا بني، اجلس أنت وأبوك ريثما نجهّز لكما الطعام

وانطلقت مرتبكة إلى المطبخ وكأنّها تخفى مصيبة

- أين محبوبة إذن؟

أجاب أبي بعد أن اقترب وأسند نفسه عليّ:

- في بيت عمك

جلسنا تحت العريشة، قلت والأسئلة تضارب في عقلي:

- ليس من عادتها أن تذهب في مثل هذا الوقت...

ثم استطردت قائلا:

- ثم أنني لم أرها منذ الأمس

- ما بك يا بني قد أقلقتني؟

تذكرت ما قاله ساسي، فقلت بعد برهة:

- قد سمعت أن منزل الخواجة قد تفشّى به الطاعون، هل صحيح ذلك؟

أجاب، وهو يحمل ثقلا على كاهله لا يعرف كيف يزيحه:

- نعم قد تفشى ومات منهم اثنان اليوم

- هل أصاب قمرة ومرتوبة أذى؟

لم يجب على سؤالي وهو يرنو بقلق

- هل أصاب قمرة ومرتوبة أذى؟

اكتنزت عيناه بالدموع بعد أن أشاح وجهه عني

قلت بعد أن نفد صبري :

- أيّ منهما قد أصيبت؟

خرّت الدموع من عينيه رغما عنه، لكنه بقي على صمته

- لماذا لا تجيبني يا ابي؟

قال بعد أن فاض به عزمه:

- الاثنتان

وقفت على قدميّ من أثر الصدمة، لم أعرف ماذا أقول، هناك الكثير من الأمور قد فتكت بي لحظتها، أخذت أنفاسي وقد سيطر عليّ أمر لا أريده البتة، فقلت:

- قل ماذا يحدث جملة واحدة يا أبي

- ماذا يحدث يا ولدي؟

نظرت إليه فاستدركت بأنه لا يقول الحقيقة، فازداد قلقي وتداعمت أفكاري، فقلت بعد تردد طال:

- هل ما انتابني صحيح إذًا؟

قال بانفعال مصطنع وقد ظهر الإعياء عليه:

- ماذا انتابك؟

أدرت وجهي وبدأت أحدّق في الفناء والمياه الرقراقة المنذرفة من النافورة بهدوء، لمحت بعض الطيور تحلّق في السماء فقلت بعد أن فاض بي التفكير:

- منذ يومين قد زارت مرتوبة وقمرة منزل عمي...

طأطأ رأسه وظهره الوهن بوضوح، نهضت مترنّحا بعد الصمت طويل:

- إلى أين؟

- سأسترجع زوجتي

لحق بي وهو يرطن بكلمات غير مفهومة بسبب لهاثه، أطلقت أمي من المطبخ شهقة وعويلا مكتوما قد علمت سببه رغم نفي عقلي ما يدور، مدّ أبي يده ممسكا بي وقال:

- لا تذهب

التفتت له، فالتقت الأعين الّتي انبعث منها كل شيء

- ولماذا لا...

عزم على التكلم ولكنه تراجع وتردد فقلت بانفعال:

- تكلم يا أبي..

مد يده نحو كتفي وربّت عليه وقال بعد أن احمرّ وجهه:

- انتقلت العدوى إلى بيت عمك... وإلى محبوبة

شعرت بهروة تصفق رأسي، نبضات قلبي تخبّطت، الدماء التي في العروق جفت، أصبحت الأصوات كلها واحدة، رحت أصيح والدموع تذرف من عيني دون أن أشعر:

- من محبوبة... لا لا... ماذا تقول... ماذا تقول!؟

ووسط الهلع الذي هيمن عليّ ركضت ناحية الباب، لم أفكر في شيء حينها إلا أن أراها سمعت نحيب أمي، وأبي يقول:

- قد أخدها أبوها كي لا تنتشر العدوى...

خرجت من المنزل وانطلقت أركض إلى أن وصلت بيت عمّي. قرعت الباب وكأنّني أريد أن أكسره، أدركني أبي وهو أيضًا في حالة يرثى لها، أكملت طرقي وأنا أصيح:

- افتحوا الباب أنا إبراهيم

تابعت طرقي وقد انذرفت الدموع وأنا أزعق:

- افتحي يا محبوبة أنا إبراهيم... افتحي

دنا أبي مني وقال راجيا:

- لنعد إلى البيت يا بني، محبوبة ستعود لا تخف.

أكملت قرعي ولم أبالِ بشيء حولي سوى الباب الموصد، سمعت صوت عمي من وراء الباب يقول:

- عد أدراجك يا ولدي، والله لا أطيق أكثر من هذا

اقترب أبي ومدّ يديه نحوي وهو يقول برجاء ودموع تذرف من عينيه:

- هيّا بنا يا ولدي هداك الله

أكملت قرعي وأنا أصرخ بعلوّ صوتي، تراجعت خطوتين للوراء واندفعت نحو الباب بقوة لأكسره فلم ينكسر، تراجعت وأعدت المحاولة فلم ينفتح، ولم أر محبوبتي...

إذًا ما كُنتَ ذا قَلبٍ قَنوعٍ

فَأَنتَ وَمالِكُ الدُنيا سَواءُ

(١٤)

في ظلمات الليل وفدت إلى منزل عمّي، أطلقت الإزميل والمطرقة في الباب حتى انفتح خائر القُوَى، ولجت البيت مندفعا نحو الفناء، وبمجرد دخولي سمعت صوت حركة، ثم دنا صوت عمي في العتمة:

- ماذا تفعل يا إبراهيم؟

وبعد برهة خرج عمي من الظلام. فقلت:

- أريد محبوبة

رنا بصمت وقد لمحت اكتناز عينيه رغم الظلام. جذب ياقة قميصه إلى الأسفل بعجز فأهلّ ورم ذو لون أحمر مائل للسواد بوضوح في عنقه.

- قد أصبنا جميعًا يا ولدي... ومن الأفضل أن نقفل بابنا حتى يقضي الله في أمرنا

لم أستطع أن أجيب بشيء، فأكمل قائلا:

- أرجوك يا إبراهيم اخرج، هذا الوباء الخبيث ينتقل حتى عبر الهواء

ظهرت محبوبة في الظلمة عند باب الغرفة واقفة مترنحة بفتور، فأكمل عمي:

- أرجوك يا ولدي اخرج... فلا أريدك أن تصاب.

تسمرّت مكاني صامتا، وكأنّني قد بلعت لساني، قالت محبوبة:

- اسمع كلام أبي يا إبراهيم واخرج الآن

بقيت لوهلة عاجزا في مكاني أفكر ثم تقدّمت بعد أن دفعت عمي من طريقي بقوة حتى قارب على الوقوع أرضا، أكملت تقدمي نحو محبوبة في حين كانت هي تصرخ:

- أرجوك يا إبراهيم لا.

وفضت إليها قبل أن تتراجع وتقفل باب الحجرة، مددت يدي نحو خصرها وأحكمت الإمساك بها، رفعتها عاليا وأسندتها على كتفي، راحت تضرب بيديها وهي تبكي وتقول:

- أنزلني... أرجوك... أرجوك يا إبراهيم

أطبقت على يديها كي لا تقاومني، وإبّان خروجي حدجت عمي بشجن وقلت آسفا:

- سامحني يا أبي...

تابعت طريقي بعد أن استيقظت الخالة مبروكة وسالمة فازعتين، وخلال الطريق لم تكف محبوبة عن الصياح:

- أيها... الأحمق أعدني... أرجوك يا إبراهيم...

فتحت باب دارنا واندفعت للداخل ثم للغرفة، ألقيت بها في السدة، وهدّأت من روعها قليلًا، أخدت أنفاسها وقالت:

- أني قد...

مدّت يدها إلى قفطانها ورفعته، كشفت لي فخدها المتورمة

- بفعلتك هذه، أنت وسيدي وأمي معرضون للخطر...

قلت بحزم كاذب، فقلبي يقارب أن يخترق جسدي من فرط الهلع

- هذا مكانك وستبقين هنا... لن أتركك مهما حدث يا محبوبة، لا طاعون ولا غيره سيبعدني.

دنوت قليلا منها فصاحت:

- لا تقترب. لا تقترب وإلا صحت بعلوّ صوتي

أكملت بانفعال وأنا لا زلت أقترب ببطء:

- إذا كنت تريد مني أن أبقى هنا فلا تقترب.

ثم أضافت بثقة، في حين كنت أنا عاجزا على الحركة

- هيّا اخرج واقفل الباب، فقد أيقظتني من نومي.

خرجت من الحجرة وأقفلت بابها كما أمرت، دنوت من العريشة ومددت جسدي. فغصت في أرقي الذي لا يطاق وأنا أردد بوهن:

- اللهم آجرني في مصيبتي

استحضرت أحد دروس مولانا في الرواق، أدركت صوته الوامق وكأنما يجلس أمامي، وهو يقول:

- (إنَّ العبدَ إذا سبقت له من اللهِ منزلةٌ لم يبلغْها بعمله ابتلاه اللهُ في جسدِه أو في مالِه أو في ولدِه ثم صبَّره على ذلك حتى يُبلِّغَه المنزلةَ التي سبقت له من اللهِ تعالى)

رشف شيخي من قربته ثم قال:

- (عَجَبًا لِأَمْرِ المؤمنِ؛ إنَّ أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحَدٍ إلَّا للمؤمنِ؛ إنْ أصابَتْه سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، وإنَ أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له).

دَعِ الأَيَّام تَغدِرُ كُلَّ حِينٍ

فَما يُغني عَنِ المَوتِ الدَواءُ

(١٥)

الورم الّذي في الفخذ ازداد حجما وسوادا وانتشر في بقية أجزاء البدن فتكت الغرغرينة بأناملها وأصبحت سوداء كالفحم، منذ أيام تتألم وأنا أستمع لآهاتها المكبوتة، بطشت بها السّخونة منذ اليوم الأول ورعشة الجسد باتت أقوى مع توالي الأيام، آلام العضلات تتسلط عليها بوحشية والمضض الأعلى كان من نصيب آلام البطن التي هيمنت عليها دون كلل.

انذرفت دموعي، وأصبحت حالتي يرثى لها، انقطعت سبلي وصرت عاجزا على فعل أيّ شيء لمحبوبتي، خارت قوّتي وأوجست العجز وأنا أشاهدها تذبل يوما بعد يوم، بدأ الإسهال والقيء فعلتهم بها، فأصبحت محبوبة مثل زهرة ذاوية، فقدت كل طاقتها وحيويتها التي ألفتها منذ الصبا باتت طريحة الفراش لا تقوى حتى على زجري على الخروج، أنفها وفمها يتصببا دمًا دون انقطاع. وفي كل لحظة تمضي كان السواد يزداد، اكتست ملامحها بالصدمة والإعياء المفرط من الآلام وفي غضون أيّام ذهبت محبوبة الذي أعرفها واستبدلت بأخرى لا تشبهها البتة.. انعقدت الابتسامة التي سحرتني وتبدلت بسواد موحش، لا أقوى على الوقوف وأنا أراها على هذه الحالة فأهوِي أرضا، وأدعو الله أن يسبق أجلي أجلها، لم أعد أبالي بانتقال العدوى اللعينة أو غيرها، أصبحت أقترب منها، وأجلس بجوارها، وأطعمها مأكلها الذي أصبح شبه منقطع.

- كيف حال أبي وأمي... وأخوتي؟

صمتت جزعا، فماذا أقول لها؟ فلم أر عمي منذ ذلك المساء الذي دفعته فيه. رغم أنى أذهب يوميا لكي أضع لهم الزّاد على عتبة الباب ثم أعود أدراجي. بعد أن يتأكد عمي من مغادرتي يفتح بابه ويلتقط ما جلبته له من طعام أمّا عن وصول الزاد إلينا في ظل الحصار فكُنّا مثل كل بيوت طرابلس، يأتي البائع بحماره المعبأ بالمُؤنِ إلى باب البيت، يقرع الباب ويضع اللحم إن وُجِد أو الخضار في الإناء أرضا، وأضع له الحساب أرضا يلتقطه، ويكمل طريقه إلى البيت التالي. ويكون بجوار الباب الأواني لتسليم الطعام وتطهيرها فيوضع اللحم في إناء مملوء بالماء والخل، وإناء آخر مملوءٌ بالماء لتسليم الخضروات ويرش الزيت لمنع العدوى من الحشيش الأخضر إن وجد، أوقد القش الموضوع سابقا في الفناء عند بداية ممر الخروج، ألتقط الأغراض وأبخّرها فوق القش المشتعل وبهذا يكون الطعام نظيفا نستطيع أن نأكله، تهيّئ أمي مسحوقا وتبخّر به أركان البيت وهو مكون من النخالة والصبار والكافور والقليل من البارود، كانت هذه التدابير التي أرشدني إليها القديس بيتر وقد أثبتت فاعليتها إلى الآن، لكن ما جدواها الآن بعد أن أصيبت دُنياي، عدّت لها قائلًا:

- جميعهم جيدون يا حبيبتي، وينتظرونك

نظرت لي وقد بدت قسماتها خالية من أي تعبير، قالت بصوت واهن:

- احك لي...

منذ أن أصبحت طريحة الفراش تطلب مني أن أحكي لها إلى أن يغشى عليها. تذكّرت جدي الذي انقطعت انباؤه عنّا منذ أن حل بنا الوباء، استحضرت حكاية قصها عليّ وأنا صغير، فقلت:

- صلّي على النبي، صلي على خير الخلق محمد بن عبد الله، الصادق الأمين. يحكى أن هناك امرأة تقيّة نأت بنفسها عن الناس بعد أن أعتقها مولاها، عاشت في مكان بعيد عن البشر، وآلت على نفسها

أن تعبد الله عز وجل ما تبقى لها من العمر، إلا أنّ الذي كان يؤرقها ويضايقها هو عدم معرفتها الجيّدة بأركان الصلاة وطريقة أدائها، لكن ذلك لم يثنها عن عزمها فقررت أن تؤدي الصلاة حسب معرفتها المتواضعة، فكانت كلّما حان وقت الصلاة، تقف خاشعة أمام المولى سبحانه وتعالى، فتكبر ثم تقول:

"ميمونة تعرف ربي وربي يعرف ميمونة"

استمرت على هذا الحال دهرا من الزمن حتى حطّت ذات يوم بمنازلها قافلة من المسافرين يطلبون الزاد والراحة، رحبت بهم وأكرمت مثواهم، وعندما حان وقت الصلاة قامت لتأديةِ شعائرها كما تعودت، وما إن أتمت صلاتها حتى تهافت الضيوف يرشدونها إلى الطريقة الصحيحة، ولم يدعوها حتى علّموها وحفّظوها سورة الفاتحة وبعض قصار السور اللازمة للصلاة وبعد أن غادر المسافرون قامت ميمونة للصلاة، غير أنها وجدت نفسها قد نسيت ما تعلمت فهرولت وراء الجماعة تقتفي أثرهم لتتذكر منهم ما قد نسيت وما زالت تجري حتى انتهى بها الأثر عند الشاطئ، عندها رفعت ببصرها نحو البحر فوجدت أن السفينة قد أقلعت بهم وصارت وسط البحر، دون تفكير وبدون أن تشعر ولتعطشها إلى معرفة شعائر الصلاة أكملت جريها صوب السفينة مقتحمة بذلك لج البحر حتى وفدت السفينة وعندما شاهدت الكرامة التي أكرمها الله بها، حيث وصلت إليهم بالسفينة وهي تجري فوق سطح البحر دون أن تغرق فطلبوا منها أن تعود وتصلي كما تصلي في السابق فقد قبل الله منها.

أغمضت عينيها وأغشي عليها خرجت من الغرفة وجلست بجوار والدي تحت العريشة، قال أبي بوهن:

- كيف حالها يا ولدي؟

- قد أغشي عليها من الإرهاق، سألت عن أبيها وأخواتها...

شهقت أمي بجزع وقالت بنحيب:

- كل عائلة الخوجة قد لقوا نحبهم... والجنازة عصر اليوم

- هل عمي يعلم؟

- لا يعلم... ولا يجب عليه أن يعلم. قال أبي بشجن

عند العصر، رفعنا مزلاجنا بعد جولات من عويل أمّي ونحيبها، فلم يكن من أبي إلا أن يقول:

- يجب أن أستلم عزاء بناتي .

كانت الشوارع موحشة خالية من المارّة عدا الجثث الهامدة مجهولة المعالم قد فاضت المقابر بالموتى ونفد الرجال ليدفنوا الضحايا، عائلات بأكملها لقوا نحبهم في منازلهم حتى انبعثت روائحهم للخارج، وصلنا لمنزل الخوجة ولم يحضر سوى ستة رجال غيرنا للجنازة، حملنا النعوش على عربة يجرها حمار بائس قد نجا إلى الآن بأعجوبة من الوباء، كانت قمرة ومرتوبة تتشاركان نعشا واحدا كما كانتا تتشاركان حياة واحدة، وصلنا مقبرة الزّاوية الصغيرة التي في طرف المدينة، ودفنّا العائلة بأكملها في ساعة واحدة، آباء وأبناء وأحفاد لقوا مصيرهم المحتوم عاجزين عن المقاومة.

يُريدُ المَرءُ أَن يُعطى مُناهُ

وَيَأبى الله إِلا ما أَرادَ

(١٦)

غفوت دون أن أشعر وأنا أطالع كتابا في الغرفة الأثيرة، وبعد أن استيقظت من غفوتي القصيرة خرجت لأطمئن على محبوبة، فتحت الباب ودنوت منها، كانت هاجعة على المرقد، مغمضة عينيها فلابد أنه قد أغشي عليها من أثر الألم. مكثت جالسا على درج السّدة وأنا أحدق فيها، انتابني شعور أن آخذها في حضني وأقبلها كي يختفي هذا السواد اللعين، قلبي بات في حالة مضطربة، وهِن القوِّة لم يعد قادرا على الخفقان، حتى عيناي جفت وأصبحت أشبه بصحراء قاحلة، قلت وأنا أتمعّن فيها:

- كل هذا سيختفي يا حبيبتي بمجرد أن نصحو من هذا الكابوس، سنتجمع في يوم الجمعة كالسابق وسنأكل الكسكسي من يديك..

استطردت قائلا وأنا أطلق حشرجات عارمة من أثر البكاء:

- ما رأيك أن أحكي لكِ حكاية لم يسمعها أحد من قبلك؟!

ثم أتبعت قائلًا:

- صلّي على النبي، صلي على خير الخلق محمد بن عبد الله، الصادق الأمين. يحكى أن هناك رجل دائم الابتسامة والفرح، قد رزقه الله بابنة رابعة لكنها لم تكن كأيّ ابنة، رزق الرجل بعملته المحبوبة التي تصك من الذهب الخالص وسماها محبوبة لجمالها الذي فاق جمال الذهب، وقد تأكد الرجل ذو الابتسامة من هذا مع مرور الأيام. ورثت الفتاة ابتسامة أبيها، بل فاقتها جمالا وسحرا

وكان للفتاة ابن عم قد قربها عمرا، فأحبّها وأحبّته منذ الصبا حبا لم يحبه قبلهما إنس ولا جان.. مضت الأيام وقرر الرجل ذو الابتسامة أن يزوّج المعشوقين وقد فعل ذلك في وسط فرح قد غمر الجميع، فاستهلت الفتاة تزرع حديقتها وتغرس فيها الأشجار الجميلة المثمرة بمساعدة ابن عمها وحبيبها، ولكن ذات مساء حلق غرابُ شُؤم فوق جنّتهم المثمرة فبدأت الورود تذبل وأوراق الأشجار تتساقط والمياه تشح، لكن محبوبة وحبيبها لم ييأسوا وقاوموا هذا الجفاف والقحط الذي حلّ بهم ولقوّة صبرهم وعزمهم كافأهم الله بفك كربهم وإرجاع جنتهم كما كانت وأجمل، ورزقهم بالكثير من الصبيان والصبايا ليلعبوا ويمرحوا في جنّتهم الخضراء الجميلة...

نظرت لها وقد تضاربت وتشتّت أفكاري، كانت ممددة على السدة بهدوء، تريح قبضتها على مصحف على جنبها الأيمن، دنوت منها ونسيت أمر القسم، مددت يدي نحوها وتحسست جبينها فكان باردا خاليا من الدماء، رفعت يدها التي أصبحت مثل ورقة قد سقطت من شجرة في أوج الخريف، أخليت سبيل راحتها فسقطت منقطعة القوة، ألمّت بي أمورٌ كثيرة حينها وأصبحت شبه غافٍ. بسطت راحتي على عنقها فكانت منقطعة الأنفاس باردة الملمس، تأكدت مزاعمي بتلك واضطربت أنفاسي، وتوقف جسدي عن العمل، رحت أصرخ:

- هيا استيقظي يا محبوبة...

ذهبت ناحية الجنون لحظتها، فشرعت أصرخ وأنتحب بعد أن بات النفي مستحيلا. اندفعت نحوها وأخذتها في حضني، شعرت بروحها تتراقص في فضاء الغرفة. رجوتها وصرخت بعلوّ صوتي كي

تستيقظ لكنّها لم تفعل، أخذت آرنو بهلع لا يوصف نحو جمال وجهها، وقد تبدّد إلى الهمود بعد أن أصابه ضربٌ من البياض. عدّت للجنون الّذي أصابني من جديد بعد برهة من التأمل. شعرت بيدٍ تمسك بي وتبعدني عن محبوبة، رباه، هل هناك غيرنا في الوجود؟

سحبني أبي بعد أن خارت قوَّاي. بكيت في طوقه حتى أغرقت المنزل، بل أغرقت الحي بأكمله دموعا، أو هكذا خيّل إليّ، وجدت نفسي خارج الغرفة مبتعدًا عن محبوبة رغم المقاومة التي أبديتها، اقتربت أمّي تنتحب، وراح عويلها يجول مسمعي ليؤكّد مزاعمي الكريهة، أفلتت من أبي واقِعا أرضا، غير مدرك لهذا الهذيان، ارتطم رأسي بالأرض وأنا أرى ناحية الفناء وشجرتيّ البرتقال، لمحت محبوبة أمامي كما كانت في السابق، ترتدي فستانها الأبيض وشعرها المجدول يخترق التستمال، وجدت نفسي أتسلق الشجرة لأقطف لها ثمرة أو اثنتين، قرع في أذني صوت قهقهتها العذبة وهي تقول:

- عندما أكبر سأتزوجك يا إبراهيم

و بعد برهة تعاود الضحكة، وتقرع مسمعي:

- أنا أحبك

وفي غمضة عين تبدّل كل ذلك بنحيب أمي وحوقلة أبي...

وَمَن نَزَلَت بِساحَتِهِ المَنايا

فَلا أَرضٌ تَقيهِ وَلا سَماءُ

(١٧)

في عشيّة نهارٍ حارٍّ خرجت مجموعة من جنود الكولوغلية ([20]) بزيّهم الذي لم يطأ الشوارع منذ ردح من الزمن حيث أصدر الباشا أمرا لهم بأن يزيحوا أجساد الموتى من الطّرقات، كنت على السطح أشاهد ما يحدث، وقد خطفت بصري عجوز واقعة أرضا تلتقط أنفاسها الأخيرة، وقف بجوارها جندي شاب قد أحزنه الموقف فجثا على ركبتيه وجلب لها الطعام وسقاها بعد أن حملها جانبًا في أحد الأزقة الفرعية ولابد أنها توفتها المنية هناك، راح الطاعون يزول شيئًا فشيئًا وأخذت الحياة تنبعث من جديد بعد ثلاثة عشر شهرا من الحصار الخانق.

دخلت الحجرة، تمعّنت النظر فيها فوجدتها نظيفة وتبرق كما تحبها محبوبة فتحت صندوق خزانتها الذي أسفل السدة، وباشرت بإخراج ثيابها المرتبة، أقرّبها من أنفي لأستنشق رائحتها الغائبة عني لأشهر شقية، أخرجت كل قطعة من الصندوق وقد أغرقت بعضها بالدموع. هكذا حالي منذ أن رحلت أداعب كل التفاصيل التي بقيت لي، رغم المشهد المأساوي الذي لم يغِب عن ذهني للحظة، إلا أنها لم تتركني لكوابيسي، فتأتي وتزورني كل ليلة وتطمئنّ على حالي، أخبرها بما جرى من فراقها فتحضنني وتقبّلني قبلة الخالة مبروكة، وهي تقول:

- هون عليك يا حبيبي

وفي حضنها أبكي حتى تجف عيناي، فتطلق آناملها الخالية من الغرغرينةِ السوداء وتداعب لحيتي الّتي طالت كثيرا ولم أهذبها، أقضي ليلتي معها في فرح ثم أفتح عينيّ في الصباح لأجد نفسي قد عدت إلى الجحيم من جديد.

تدمع عيناي أحيانا بمجرّد التذكّر بأنّني قد دفنت عمي عبد الله ومحبوبة والخالة مبروكة وسالمة في يوم واحد، يضيق صدري عندما أسترجع آخر لقاء لنا، عندما دفعته أرضا، أيّ نهاية هذه الّتي جمعتني به؟ لمَ كلّ هذه القسوة أيتها الحياة اللعينة؟ لِمَ تكون النهايات بشعة إلى هذا القدر؟ ما ذنب عمي الطيّب؟ ما ذنب كل أسرته البريئة ليموتوا بهذه الطريقة الشنيعة؟ ما ذنب محبوبة؟ ما ذنبي؟

فُتحت الدكاكين، وأصبحت طرابلس تستعيد عافيتها بعد أشهر عجاف لم تر لهم مثيلا، خرج أبي من جديد وبدأ يباشر عمله كالسّابق وأصبح يعود للمنزل بالأخبار كما كان، لم أعد أهتم بأخباره أو بالباشا البغيض حتى، باتت الحياة بالنسبة لي لعبة، ويعتريني شعور أحيانًا بتحطيمها لكي أنهي بؤسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات مساء كنت جالسا في العريشة أطالع كتابا ما، أتى صوت الباب وأهلّ أبي بثيابه عمله البهية، تجلت ابتسامة على قسماته ريثما رآني وقال:

- السلام عليكم، كيف حالك يا بني؟

- وعليكم السلام، الحمد الله، وحضرتك

اقترب مني وربّت على ساعدي، ثم جلس بجواري بابتسامته التي لم تكن موجودة قبل سنة وبضع السنة من الآن:

- بخير طالما أنت بخير يا بني

أزال عمامته من على رأسه وأخذ أنفاسه بهدوء وقال:

- قل لي ما تخفي إذن

فأجبته بعد أن وضعت الكتاب جانبًا:

- أنت قل لي ما تخفي من أخبار

اكتست أساريره باستغراب، فاستطردت قائلًا:

- سمعت أن الباك سيبدأ حملته التأديبية للمتمردين وقد بدأ التجنيد الإجباري؟

أجاب واثقًا بصوته الأبح:

- لا تقلق سأعفيك من هذا

- ومن قال لك أنّني أريدك أن تعفيني؟!

قال بريب:

- ماذا تقول؟

- سأنضمّ إلى صفوف الجيش

- بالطبع لن تفعل هذا...

قلت بحزم قد أثار حفيظته:

- سامحني يا والدي، لكنّني قد قررت الانضمام.

وقفت، واتجهت نحو غرفتي متوكّئا، سمعت أبي يقول بغيظ:

- ابنك قد جن يا امرأة، يريد أن ينضمّ إلى الجيش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي ظرف أيام كنت قد حملت ما لي من أغراض في صرّة صغيرة، ودعت أمي وهي تنتحب وترجوني بنكوص، ودّعت أبي بمشاعر مختبئة خلف ستار الرجولة الفجّة، وقبل أن أغادر المنزل أتتني سعدية تركض لتودعني، قالت بأدبها الّذي يخجلني من نفسي:

- ترجع بألف سلامة يا سيدي، فجميعنا ننتظرك

حملقت بها لبرهة، وجدت ملامح سعدية ذات السبعة عشر حولا قد اختفت وتبدلت بأخرى لم تنقصها جمالًا.

- كلّ الذي يأتي به الله جميل .

تشاركنا الطريق للمركز أنا وحسن ويوسف بعد ان استطاع ساسي بأخذ إعفاء هربا من سخريات حسن الخانقة، تجمّعت الأعداد في وسط المدينة أمام الساندانار، الذي أهل رئيسه بطربوشه وشنبه الكثيف بين رهط من ضباطه، تناثر الجنود حول الساحة وكان هناك البعض منهم يمسك بأطواق الكلاب الشرسة ليفض أي اشتباك أو خلاف بين المتجمهرين، استفتح الآغا كلماته الركيكة المخلوطة بلغة التّرك:

- منذ هذه اللحظة أنتم جنود حضرة الباشا، ستتلقون تعاليمكم لتصبحوا جنودا يعتمد عليهم في المستقبل القريب.

توقّف الآغا عن الكلام وراح ينظر بغيظ نحو الشاب الذي قاطع سير كلماته، ثم صاح غضبا:

- أدّبوا هذا الأحمق

انطلق جنديان نحو الشاب وأمسكوا به وجروه إلى داخل الساندانار، تابع الآغا كلامه:

- أول شيء يجب أن تتعلموه، الانضباط وتنفيذ الأوامر... الآن سيتم تقييدكم للذّهاب إلى المعسكر.

تقدم عدد من الجنود بدفاترهم وراحوا يصيحون بالأسماء، وقفت أنتظر توالي الأسماء إلى أن جاء دوري، جمعت الفيالق وكان حسن من ضمن فيلقي في حين ذهب يوسف لفيلق آخر، تحرّكنا سيرا على الأقدام في صفوف طويلة إلى خارج المدينة حيث سيقام المعسكر.

- بداية لا تبشر بخير بتاتا

قالها حسن وهو يمشي بجواري في الطابور الطويل

- أظنّك ستفقد الكثير من وزنك في هذه الأشهر يا حسن

تدخّل شاب يمشي أمامنا في الطابور، وقال ساخرا:

- كيف ببدانتك هذه لم تأخذ إعفاء يا... حسن صحيح!؟

قال حسن بغيظ بعد أن رنا الشّاب المرتدي ثوبًا أبيض وطاقية تاجورية

- أذنك كبيرة يا هذا... ثم إن الطعام الذي آكله ويجعلني سمينا والدتك تجلبه لي أليس كذلك!؟

اشتعل الشاب غضبا، وحسن لم يكن أفضل حالًا منه، كانا على وشك أن يتشابكا بالأيادي لولا وجودي، وبعد القليل من السّير، مددت يدي قائلًا:

- إبراهيم بن عمر، سكان شارع عمورة

ابتسم الشاب ونسى كلمات حسن الفظة وقال:

- لطفي بلعيد، سكّان باب بحر

- تشرّفت بك يا لطفي

- وبك أكثر، ماذا تعمل يا إبراهيم؟

- نجار، وأنت؟

تدخّل حسن وقد هدّأ من روعه قائلًا:

- يسكن في باب البحر، بالتّأكيد صيّاد

قال لطفي بعد أطلق ابتسامة ساخرة:

- كلام البدين صحيح

قال حسن بغضبٍ وقد قارب على الانفجار:

- لم أكن أعلم بأن السمّاكين خفيفي الظّل هكذا

هز لطفي كتفيه وأشرع راحتيه بسخرية وقال:

- ها قد علمت الآن

شعرت بابتسامة تتدلى من على شفتيّ دون أن أشعر، لأوّل مرة أجد أحدا يدحر حسن ولسانه العقيم، وأظنّ بأن أشهر التجنيد ستمضي بيسر بهذه الصحبة...

لكن هل كل هذا يستطيع أن يواري جرح روحي وفقداني لكل شيء؟!

وَأَرضُ اللهِ واسِعَةٌ وَلَكِن

إذا نَزَل القضا ضاق الفضاءُ

(١٨)

- استيقظ يا كلب يا ابن الكلب

هاط الأورطة باشي ([21]) درغوث وهو يلفق بعصاه أجساد الجنود الهاجعين.

- أوشكت الشمس على الطلوع وأنتم نيام مثل الباغِيات!

وثبت من فراشي فزِعا، وأنا أفرُك عينيّ، هرولت حيث اصطفّ البقيّة في صف مستقيم، راح يحرّك الأورطة باشي درغوث ذهابا وإيابا وهو يحدّق في الصف المكوّن من أربعين جنديا أو يزيد

- لديكم القليل لتجهّزوا أنفسكم، إن تغيّب ابن كلبٍ بعد ضرب الطبول سأجعله يلعق المعسكر كله بلسانه مفهوم!

أتته الإجابة بصوت موحد تملأه الكياسة العسكرية:

- مفهوم، أفندم

رحل باتجاه الساحة، لكنه توقف عند الجندي الذي يقف عاريا ويسمك بوسادة ليستر عورته، حملق درغوث بملامحه القاسية وشنبه الكثيف وعينيه الغائرتين في الجندي المسكين وهذا الأخير كان يقف باستعداد صارم، كأنّه تمثال من رخام.

- ما اسمك أيها الجندي؟

أجاب الجندي العاري بصراخة عسكرية بحتة:

- الجندي الافي النحاس حضرة الأورطة باشي.

رمقه درغوث بسخرية بعد أن أزاح الوسادة بعصاه فسقطت وأصبح الافي عاريا كما ولدته أمه، فقال درغوث:

- هكذا أفضل لتتعلم ألا تنام عاريا

- أمر سعادتك

خرج درغوث لساحة التدريب ونحن وراءه نركض هنا وهناك لنرتدي ثيابنا ونستعد لطابور الصباح، ضربت الطبول وجميعنا نقف استعدادا في الساحة في أصفّ مرتبة، كان حسن يقف بجواري بقيافته العسكرية الّتي أكسبته هيبة غريبة، لكن السخط لم يفارق أساريره وهو يلعن درغوث بصوت خفيض:

- ألا يعرف النوم ابن الباغية هذا؟

أتاه جواب لطفي بصوت خفيض أيضًا:

- اصمت أيها الأحمق...

قرعت الطبول مرة أخرى، بدأنا يومنا بالهرولة حتى انقطعت أنفاسنا ووقع البعض فأدركتهم شتائم درغوث وعصاه، وبعد الركض والجري عدنا إلى الساحة وانتظمنا في طوابير مصفوفة، أقبل علينا درغوث وقد استبدل عصاه بسيف تدريب، أشرعه عاليا وأخذ يصيح بصوته الجهوري:

- اليوم يوم المبارزة، فمن يقع منكم سألعن جذور عائلته.

حدج في الجميع بغيظه المعتاد واستطرد قائلًا:

- أين الأصلع ذو العضلات؟ فليتقدم إلى هنا.

خرج أحمد من الصف بجسده الضخم وصلعته الواضحة واتجه للمقدمة حيث يقف درغوث، واستلم سيفا ودرع تدريب من أحد الجنود، صاح درغوث مرة أخرى:

- أين الداعر الذي ينام عاريا؟ فليتقدم ليلاقي نصيبه.

تقدم الآفي وقد امتلكه الجزع، استلم السيف وارتدى الدّرع، وأصبح في وجه الضخم ذي العضلات، تقدّم أحمد وبدأ يلوح بسيفه يمينا ويسارا، وبعد برهة رفع الآفي سيفه ليصد الضربة الذي وجهت إليه، أخذ أحمد يسدد ضرباته فلم يستطع الآخر إلاّ أن يصد ضربات هذا الضخم متراجعا إلى الخلف، أخذ الآفي يحاول الدفاع عن نفسه وهو يصدّ الهجمات دون مرونة أو براعة، ولم يمض الكثير وهَوَت ضربةٌ من العملاق نحوه فأفقدته توازنه ثم سدّد ضربة أخرى أوقعته أرضا وسط هتاف المتجمهرين وسخرية درغوث:

- علمت الآن لماذا تنام عاريا أيّها المخنث.

تقدم جنديان وسحبا سلاحًا في من ساحة المبارزة في حين كان العملاق الأصلع يحملق في الجموع بابتسامة المنتصر.

- ما بالكم تقعون أمام هذا الثور؟

حدّق درغوث بتمعن ليختار منافسا آخر، فطال اختياره وسط نظرات الجنود الرّافضين لهذا النزال المحتوم، فقال:

- أين ذلك النّجار الذي أطرح البعض ذاك اليوم؟

فأجابه البعض نحوي بتردد، فقال بعد أن علّق نظره بي:

- ما بك أيّتها المليحة خجلة؟ هلمّي للنّزال.

حررت ضحكات سخرية بين الجمع فتقدّمت غير عابئ، أمسكت بالسّيف وارتديت الدرع صاح درغوث بقهقهته المزعجة:

- ابدأوا، ماذا تنتظرون إذًا؟

كان العملاق يرمقني بتحدٍّ وهو يطيّر سيفه بين قبضتيه، اقترب وهو يشيّح سيفه في وجهي، سدّدت الضربة الأولى فصدّها بسيفه، وتلاها غناء السيوف.

سدّدت ضربة أخرى فصدّها وقذفها بقوّة، فتراجعت متعثرا إلى الوراء، نظرت حولي فوجدت الجموع تشاهد بتشوّق ودرغوث يتابع بسخرية، رجعت بنظري لأحمد فوجدته قد اندفع نحوي بجسده ويهوي بسيفه.. انحنيت بأعجوبة متملّصا من ضربته، هويت بضربة نحو ساقه قد بغتته وجعلته يترنّح، أزحت سيفه بضربة من قدمي وهو لا يزال لم يفق من أثر صدمة ساقه الّتي تؤلمه، طيُّرت سيفي نحو معصمه بكل ما لديّ من قوة فسقط أرضا على مؤخّرته مثل طفل الصغير بعد نواحٍ من أثر الألم، نظرت لدرغوث بسخرية وقلت بصوت جاد:

- سامحني سعادتك، أنا من النوع الخجول قليلًا

ازداد سخطه وتمثل الغيظ على قسماته، فأشار إلى أربعة جنود ليتقدموا وقال بغضب:

- أرنِي الآن الخجل على أصوله.

أحكمت قبضتي على السيف وأنا أمعن النظر في المتقدمين الأربعة وكّلي يقين بأني أستطيع أن أوقعهم أرضا لكن ليس دفعةً واحدة، لقد رأيتهم الأربعة كيف يستعملون السَيف وعرفت نقاط ضعفهم كما رأيت نقاط ضعف أحمد الذي لا يزال يلعن بسبب ضربة معصمه، سدّدت ضربة بقوة نحو أول المقتربين، تعثر، فوجّهت له لكمةً بيدي اليُسرى ثم ركلة برِجلي أوقعته أرضا، هوى أحدهم بسيفه نحوي فصددته وأنا أتصبّب عرقا. جذبت أحدهم وألقيته نَحو الآخر، وتبعتهم بضربات متتالية فتكوّموا أرضا بجانب رفيقهم، الآن بقِيَ إسماعيل فقط وهو أفضلهم، سدّد ضرباته بقوة ودونٍ توقف فما كان منّي إلا أن أصدّ ضرباته قدر الإمكان وأنا أتراجع لتفادي تسديداته المتقنة، توقّف قليلًا ليأخذ أنفاسه ثم اقترب بسيفه أكثر ليبدأ تصوياته من جديد، جالت فكرة في رأسي حينها فقررت أن أفعلها، ألقيت بسيفي عاليا فسيطر على انتباهه في حين كنت أنا قد قفزت نَحوه وأسقطته أرضا ثم استللت سيفه ووضعته نحو عنقه فسكن وهدأ.

رجعت بنظري نحو درغوث فكان يشتعل غضبا أكثر من اشتعال قرص الشمس الّتي تلفح رؤوسنا، فقلت بسخرية:

- هل رأيت خجلي سعادتك؟

انطلقت ضحكات بين الجموع وإبّان ذلك تقدّم نحوي بعد أن التقط سيفا من جندي بجانبه، وقال:

- أرني ما الذي تستطيع فعله الآن أيها الأحمق

هوى بسيفه عاليا وأنزله نحوي مثل الصاعقة، فرفعت سيفي ودوى غناء السيوف كما لم يدوِّ من قبل في ساحة المعسكر، ناولني الضربة تِلو الأخرى وأنا أصدّها بسيفي أو أتفادها بجسدي، تصببت عرقا وتشنجت عضلاتي وهو يقاتل بكل يسر، صاح عاليا بعد أن نزل بضربةٍ نحوي:

- هل تظن أن هذا سيطول أيها الصبي؟

اندفع نحوي ووجّه ضربة جانبية مباغتة فطار نصلي بعيدا عن قبضتي، رمقني باحتقان ثم هوى بضربة أسقطتني أرضا، شج رأسي فاختلطت دمائي بالتراب، و سيطر عليّ صداع خفيف، سمعته وهو يزمجر عاليا:

- ما الذي تنتظرونه يا كلابِ يا أبناء الكلاب، باشروا تدريبكم.

تحرّكت الأقدام بانتظام والأعين تخشى غضب هذا الصارم، مد إسماعيل يده إليّ فنهضت، ووقفت مترنحا فقال درغوث:

- اذهب وامسح دماءك أيها الأحمق.

تركني إسماعيل بعد زمجرة درغوث، أطلقت قدميّ مبتعدًا عن رنين النصول وأنا أتحسس جرحي وأردد داخلي: آه لو تمكنت من هذا البغيض، لأخذت بثأر القليل من الكثير الذي تلقيته منه.

مسحت الدماء التي تسايلت مني، فتذكرت يوما قد سقطتُ فيه من أعلى الشجرة وأنا أجلب ثمرة لمحبوبة فانبلج رأسي...

- قلت لك امسح دِمائك، لم أقل لك اجلس وانتحب مثل النساء.

ترنّحت واقفًا ثم اندفعت مسرعًا نحو ساحة التدريب وسط شتائم هذا اللعين الذي يقارب عمه الخامس والاربعين تقريبا ولكنه يتحلى بقوةٍ لا تصدق، وقد جربت ذلك بنفسي منذ قليل.

وَلا تَرجُ السَماحَةَ مِن بَخيلٍ

فَما في النارِ لِلظَمآنِ ماءُ

(١٩)

- كل هذا بسببك أيها الأحمق.

تمتم حسن كلماته بغيظ وهو يشاركني أنا ولطفي تنظيف الإسطبل، فقلت وأنا غارقٌ في عرقي:

- اعمل وفمك مغلق أنت الآخر، لا نريد درغوث اللّعين أن يشمت بنا

- من أجبرك على الخروج معنا أيها البدين؟ قال لطفي بغضب.

قد عوقبنا بتنظيف الإسطبل بعد أن قُبض علينا ونحن نتسلل ليلًا لمستودع الطعام في وقت حظر التجول.

أكملنا تنظيف الإسطبل بعد أن تلوثنا واتّسخت ملابسنا بروث الخيول، رفض درغوث أن نغير ثيابنا أو نغتسل فأمرنا بالانضمام إلى صفوف التدريبات بحالتنا البائسة، لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة الّتي يثأر فيها مني بسبب يوم المبارزة؛ فلا يمضي أسبوع كامل من غير عقوبة، يوم أنظّف الإسطبل وآخر أنظف فيه بيوت الخلاء أو أحرم من الطعام أو أنضم لصفوف الحراسة الليلية الشاقة ببردها القارص، فالجوّ لا يطاق هنا؛ في الصباح تكون سخونة قاتلة وفي الليل برد ورياح عاتية، فكان البقاءُ في العراء لِلَيلة كاملة إلى حين طلوع الشّمس ثم الانضمام للتدريب مرغما بمثابة الجحيم .

جلسنا على مصاطب الطعام لنأكل بعد جولات التدريب الشاقة تحت أشعة الشمس الحارقة والرافضة أن تتبرم يوما واحدا من فوق رؤوسنا، أخذ حسن يتناول طعامه الذي أمقته بشراهة، ثم قال:

- أقسم لك يا إبراهيم قد اشتقت للمسخ الذي يطبخه ساسي، بدلًا هذا الهراء الذي يطعموننا إياه

- عندما نرجع إلى الديار سوف أقبّل رأسه وأرجوه أن يحضر لك القليل إذن.

وضع حسن الملعقة جانبًا بعد أن نسف كل ما في طبقه وقال وهو يتلقط أنفاسه بصعوبة من شدّة الحرارة:

- سأفعل، ورب الكعبة سأفعل ولكن فقط أرجعوني إلى طرابلس.

ضحك لطفي ثم قال بسخرية قد ألِفت وجودها لتعطي للحديث مذاقا:

- أظن أن السيدة حسنة قد فاض بها وتريد أن تعود لمنزلها

قلت وحسن يزداد غضبا:

- هل تعلم يا لطفي، إن مثل هذه السخرية كان يقذف بها صديقنا ساسي طوال الوقت ليكدّر عليه صفوه.

ضرب لطفي على المصطبة براحته وهو لا يتوقف عن الضّحك وقال:

- ها قد أتاه من يكدّر عليه صفوه.

قد فاض بحسن وقد رأيت السّخط في عينيه فتدخلت قبل أن يقدم على شيء أخرق كعادته، فقلت بصوت يكتسي بالجدية:

- لا نريد أن نقع في مشكلة، لقد فاض بي من تأديب جرادة اللعين.

تبادلا النّظرات بين بعضهما في خفوت وبعد برهة تلاشى السخط.

تقدم أحمد العملاق وجلس بجوارنا وقد ظهر على ناصيته الصلعاء انّه يجلب أخبارا جديدة، فقال:

- هل سمعت بالأخبار؟

رددنا بصوت جماعي:

- ماذا؟

- القرار الذي أتخذ في السراي، الحرب على الأبواب، والبك سيبدأ حملته المنشودة

قال لطفي بلهجة حادة:

- الأهم من ذلك متى سينتهي تدريبنا ونعود إلى طرابلس؟

- أغلب الظن نهاية الأسبوع

قال حسن بتردد بعد أن أخفض صوته:

- نهاية الأسبوع؟ سنقضي بضعة أيام مع أهالينا ثم إلى حرب لا نعلم متى ستنعقد أو من سيفطس فيها...

ثم استطرد :

- الذي لا أفهمه لماذا تقوم القبائل الغبية بذلك؟ جهنم ستبلع الطرفين في هذا النزاع ولماذا؟ لأي غرض كان؟

دوى صوت درغوث أو جرادة كما لقّبناه:

- هل تنتظر الحلويات بعد وجبتك الساخنة يا كلب يا ابن الكلب، انهضوا بسرعة إلى أعمالكم.

نهض الجميع من مقاعدهم بحركة سريعة ودرغوث لم يعرج عن صياحه. انقسم كلّ منا إلى اتجاه، أطلقت قدميّ بين الخيم المنتشرة على مرمى البصر، وفجأة دوى صوت رمايةٍ كثيفة، فعرفت أن فوج الشراكسة ([22]) قد بدأوا تدريبهم، لكل فوج هنا اسم قد أطلقناه نسبة لجلّ أعضائه، ففوجنا كان يُعرف بفوج العرب وهناك فوج البربر والترك والكراغلة والشراكسة، وأمّا عن الأقل عددا والأكثر ضراوة وقوة هم فوج الزنوج السود، وقد تأكدّت من ذلك في دورة المسابقات التي أقيمت منذ أسبوعين بأمر من البك شخصيا، استمرت لمدة ثلاثة أيام مكونة من مسابقة الرماية وسباق الخيول والأهم من ذلك هو الالتحام الجماعي بسيوف ورماح التدريب وبدون استخدام البنادق أو المسدسات، أقيم النزال الأول بيننا وبين فوج الكراغلة وهزمناهم شر هزيمة. في حين تواجه فوج الزنوج والبربر وقد فاز الزنوج، سقط الترك والشراكسة في الطريق للنّزال الأهم والذي سيحدد الفائز بالمسابقة الأولى من نوعها في الولاية.

تجمعنا في حلقة بعد أن وضعوني في المنتصف لكي أقودهم أخذت أشرح خطتي وأنا أرنو بهدوء:

- نستطيع أن ندحرهم يا رفاق، وليحدث ذلك يجب أن نحرمهم من النزالات الفردية وأن نتجمع جمعينا في بقعة واحدة في الميدان، إذا تشتت جمعنا وبدأ العراك الفردي سنضيع بكل تأكيد.

حررنا صرخات الحرب فأجابونا بمثلها، ولم يمض سوى القليل وبدأ صياح السيوف والأجساد، سقط الكثير من الطرفين ورفعوا أيديهم استسلاما ليخرجوا من ميدان الحرب، هويت بسيف التدريب على من استطعت ملاقاتهم وتفاديت وصديت الضّعاف منهم، مضت ساعة ونصف الساعة ونحن نتصارع وبكسر التّعليمات وبدء المبارزات الفردية وجدنا أنفسنا منهزمين في وجه الوحوش السود.

سَأَصبِرُ لِلحِمامِ وَقَد أَتاني

وَإِلّا فَهُوَ آتٍ بَعدَ حينِ

(٢٠)

انتهينا من تدريبنا الشاق وعدنا إلى ديارنا، لكن راحتنا لم تدم طويلا، فقد سير البك حملته المنشودة لتأديب المتمردين، سرنا في أعدادٍ كبيرة مبتعدين عن طرابلس ونحن نقتفي أثرهم وقرر البك على غير العادة التوغّل في الريف أكثر. قمنا ببعض المعارك ولم تكن حماسيةً بحق بسبب تفوقنا عددا، أقمنا المعسكر بعد أن طلب سيف النصر وقف إطلاق النار بوساطة من إحدى القبائل وإبان وقف إطلاق النار خرجت عدّة مجموعات من المعسكر لتجد العلف والماء بعد أن شح في المعسكر وكانت فرقتي إحدى تلك المجموعات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتوقف البنادق عن الانفجار، لم أعد أسمع سوى دوي تفجرها وتشتت طلقاتها، ارتبكت قواتنا وتفرّقت في العتمة بعد الهجوم المباغت الذي شُنّ علينا في جنح الليل ونحن في طريقنا للمعسكر، لم نعد نعرف من الصديق ومن الغريم في ظل تلك العتمة، لم ينقطع إطلاق النار قط، حررت قدميّ وأنا أمسك بندقيتي والمعركة الجياشة في ذروتها، امتطيت حصانا قد وقع صاحبه مصروعا منذ لحظات من بندقية مجهولة المصدر، وكزت الحصان فانطلق يركض في الظلام. فبدأت أهتف بعلو صوتي:

- تراجعوا، تراجعوا

عبّأت البندقية بسرعة وأطلقت النار باتجاه أحد المتقدمين نحونا، جلت بحصاني من جديد وإبانها أخذ أحمد العملاق الطبل وراح يقرعه بقوة.

هتفت مجددا وسط القرع المتطاير:

- تراجعوا إلى ما وراء التل...

سقطت بضعة من المشاعل أرضا فحاولت أن أضيء المكان قدر الإمكان بصحبة الضوء الخفيف المنبثق من الهلال المتربع في كبد السماء، ترجّلت من الحصان بعد أن تراجعت خلف التل، فقال لطفي مرتبكًا:

- ما الحل يا إبراهيم؟ لقد غدروا بنا

تفرست النظر حولي فكان الاشتباك قائما ورفاقنا لا زالوا يتراجعون، قلت وأنا ألهث:

- من الأعلى رتبة فينا، أين حضرة الشاوي؟

تدخل عبد القادر بصوته الخشن، وكان من ضمن فوج الزنوج وقد تعرفت عليه في دورة المسابقات

- لقد سقط... قدّنا أنت يا إبراهيم

قلت بتشوش وإطلاق النّار لم ينقطع:

- عبد القادر خذ بضعة جنود ولتلتفّ حولهم قد الإمكان، فهم يظنون أننا سنهرب وإن فلعنا ذلك سنلقى حتفنا.

ضرب عبد القادر قبضته على صدره ورفع بندقيته عاليا، فأكملت بحسم:

- أحمد أنت تفعل المثل ولكنّك ستلتف من الجهة الأخرى، وأمّا أنا والبقية سنعيد الهجوم من هنا.

تتدخل لطفي مترددا:

- ولكن المكان مظلم، لا نستطيع رؤيتهم حتى.

استغرقت بضع لحظات وأنا أفكر والرجال يقفون في صمت جاثم. أتت الفكرة فوجدت نفسي أركض باتّجاه الحمار الذي يحمل إمداد الذخائر. أطلقته ناحية ساحة المعركة ولم يكن منّي سوى انتظار الالتفاف ووصول الحمار إلى عمقهم، صوّبت بندقيتي نحوه بعد أن ابتعد المسافة المطلوبة وحررت رصاصتي، انفجر الحمار بما يحمله من ذخائر، انتشر اللّهب وتناثرت الشّظايا في كل صوب،

أضاءت المعركة بالشكل المطلوب بالإضافة للارتباك الواقع في صفوفهم والذي مكن عبد القادر وأحمد بالالتفاف المتقن، ظهرت إشارة البداية للجميع وبكل وضوح، فبدأ هجومنا من كل صوب، أطلقت النار حتى نفد كلّ ما بحوزتي، فاندفعت صوبهم كالمحموم أشهر سيفي فاغرا صدري وأردّد الشهادة طول الركض، انقضيت نحو أحد المتمرّدين وهو يعبئ بندقيته فهويت بسيفي نحوه أسقطه قتيلًا، حملت بندقيته وأكملت ركضا نحوهم. تواريت وراء حصانٍ قتيل وأخذت أعبّئ البندقية، أطللت من موقعي فوجدت فريسةً سهلةً فأسقطتها أرضا، لمحت أحمد يسقط أحدهم بظهر بندقيته، أجار عليه ثم ركض نحو بقعة أخرى،كشفت بنظري الاتجاهات المختلفة فوجدت أن عبد القادر ومن معه قد أحرزوا تقدّما ملحوظا.. لم يدم القتال طويلًا حتى سقط أغلبيتهم، ومن بقي على قيد الحياة ألقى سلاحه ورفع يديه استسلاما.

وبعد النصر. تجمع من بقى من الأربعين وأخذت الأصوات تعلو وتنخفض، وبات الجميع يبدي برأيه بما علينا القيام به، فحسم تلك البلبلة عبد القادر بصوت الحزام قائلًا:

- إبراهيم قد تولّى القيادة وقد استطعنا بفضله هزيمة أعدائنا، لذلك القرار قراره حتى نعود للمعسكر.

ربّت على ساعدي وأومأ برأسه لأتكلم، فقلت:

- سنرحل شرقا الآن ثم نؤوب ناحية المعسكر بعد أن نضمن زوال الخطر

تابع عبد القادر بعدي قائلًا:

- كما سمعتم القائد، هيّا لنجمع ما نستطيع جمعه ولنرحل شرقا.

تفرق الجمع لغنم ما بقي مع المتمردين من العتاد في حين اقترب مني عبد القادر وقال بصوت خافت:

- ومن بقى علي قيد الحياة ماذا نفعل بهم يا إبراهيم؟

وقبل أن أتفوّه بحرف استطرد فقال:

- ولا نستطيع أن نأخذهم معنا إلى المعسكر، فزادنا بالكاد سيكفينا بالإضافة لبطئنا في التحرك، فما القول؟

اقترب أحمد وقال بتردد:

- نقتلهم إذًا.

قال عبد القادر بلهجة أقرب للتوبيخ:

- بالطبع لن نفعل ذلك، فأين المروءة في ذلك؟

فكرت ولم أجد سوى حلّا واحدا فقلت:

- جرّدوهم من كل شيء وأطلقوا سراحهم.

جردناهم من ملابسهم وأطلقنا سراحهم، وقبل أن ينبلج نور الصباح كنا قد تحركنا بعددنا الذي نقص عن الأربعين بخمس جنود قتلى.

حلت الظهيرة ونحن نتجه شرقا، الشمس اللفحة فوق رؤوسنا والرمال الملتهبة تحرق أرجلنا أغمضت عيني لدقائق طويلة وصورة محبوبة أمامي تغفلني عن سيلان العرق الذي اجتاحني، أراها كما لم تكن من قبل بشعرها الأسود المُنسَدِل على كتفيها، ووجنتيها المتوردة، وعينيها اللواتي لطالما همت بهما، وجهها الخمري.. كانتا بمثابة نجوم السماء لضالّ طريق في الصحراء. انضممت لصفوف الجيش كي أموت وألحق بها أو هكذا كنت أظن، حتى ليلة البارحة حينما اقترب الموت الذي تمنيته وجدت نفسي أقاوم بكل ما أوتيت من إزر، لم أدرِ بشيءٍ إلا وأنا أتحدّى القدر، أين ذهب كل ذلك التسليم للموت؟ أين كل ذلك البؤس والكره للحيَاة؟ اجتاحني شعور لا إرادي بالصراع للنجاة؛ صارعت للعيش رغم روحي الّتي سلبها مني الموت الأسود في طرفة عين، حاربت رغم كآبة الحياة الخانقة .. لكنّني لم أكن بمفردي في الظلام حينما كان الرصاص يهطل علينا من كل صوب، كانت بجواري... أسمع صوتها وقَهقهة ضحكاتها تقرع مسمعي مثل فرقعة الرّعد في ليلةٍ عاصفة.

وَإِن أَسلَم يَمُت قَبلي حَبيبٌ

وَمَوتُ أَحِبَّتي قَبلي يَسوِني

(٢١)

- مولاي البك يطلب دخولك.

قالها المملوك وهو يريح قبضته على حسامه المدسوس في غمده، أوْمأَت برأسي وولجت الخيمة الحريرية، لم تكن كأيّ خيمة في المعسكر، بل لم تكن كأي خيمة رأيتها في حياتي. نظرت أمامي فوجدت البك حسن القرمانلي يتربّع كرسيه ويرتدي قفطانا فخما كالعادة، قال بصوت مهيب، أو هكذا خيل إليّ:

- تقدم أيّها المغوار.

خطوت حتى أصبحت على بعد عدّة أذرع منه، وعلى كِلا الجانبين يجلس ضباط رَفِيعي المناصب، قال المملوك من خلفي بصوته الجهوري:

- الجندي إبراهيم الذي قاد المجموعة...

بتر المملوك كلماته بعد أن أومأ البك ثم قال:

- اتركه هو يعرف بنفسه

- إبراهيم سعيد بن عمر أحد جنود سعادتك.

ردد البك بصوت خفيض:

- أنت ابن الكاتب إذًا

- نعم سعادتك

ابتسم وهو يرمقني بتمعّن ثم قال:

- لقد وصلني ما فعلته، وسمعت الكثير عن بسالتك ورجاحةِ عقلك رغم صغر سنّك وحداثةِ عهدك

تردّدتَ قليلا ثم قلت بخنوع:

- قولك هذا شرف لي يا سيّدي

رمقني بتمعن، فقال سائلًا:

- ماذا تُخفي يا ابن عمر وراء هذا الوجه الهادئ؟ قل ما تُسِرّ في نفسك فنحن نحب أن نسمع قول الشجعان أمثالك.

قلت بتردٍّد قد امتلكني حتى النخاع:

- قد شغل تفكيري أمرٌ واحدٌ بعد أن غدروا بنا سعادتك، وهو: كيف علموا بخروجنا من المعسكر؟ ووصلت إلى...

- إلى ماذا؟

- لماذا تخرج جل القوة من المعسكر بهذا الشكل؟

رفعت عيني نحو البك وتمّعنت في قسمات وجهه الجادة. فتابعت قولي :

- سعادتك إذا كنت تريد اصطياد الذئاب ماذا ستفعل؟

- ذئاب؟ الأفضل أن أشتت جمعهم وأصيدهم متفرقين.

تجلت ابتسامة طفيفة على قسماتي، وقد علمت أن البك الذي يجلس أمامي راجح العقل حقا، فقلت بلهفة:

- صدقت سعادتك، ومن يشور على صاحبه بتشتيت قطيعه والإصرار على بعد عدوه فشر الصاحب هو.

زادت الأعين بحلقة وقد فهم البعض المقصد من الكلام والبعض الآخر قد قّلب الكلمات دون فائدة، صمت البك والتوتر حاضرٌ على قسماته، فقلت:

- هل تسمح لي سعادتك بالانصراف

رفع يديه موافقا، فتراجعت وأنا أنحني احتراما حتى خرجت من الخيمة، ولم أكد أقطع عشر خطوات خارج الخيمة حتى سمعت:

- إبراهيم، إبراهيم البك يطلبك

أعدت الكرّة ودخلت الخيمة الفاخرة من جديد، ريثما دنوت قال البك:

- أحضر وسادة لإبراهيم يا سيف الدين

أتى سيف الدين بالوسادة وجلست وأنا قلق من هذه الدعوة المريبة، قال البك وقد ازداد الارتباك عليه:

- ما الذي جعلك تقول ما قلت؟

فأجبت بجمود:

- رفاقي الّذين وقعوا غدرا سعادتك

قال البك بنبرة أقرب للرجاء:

- ما الذي تشيره على قائدك إذًا؟

نظرت للضبّاط الذين جاوروني بتمعن، ثم قلت مترددا:

- كل هؤلاء الأفنديَّة لديك وتطلب المشورة مني سعادتك؟

رمقهم البك بتكبر، وقال وكأنما يريد أن يبصق في كلماته:

- لكن كل هؤلاء لم يستطيعوا أن يفعلوا نصف ما فعلته أنت

وجد التردد ينتابني، فقال بحزم:

- هذا أمر أيها الجندي، بماذا تشير على قائدك؟

- قد وجدت عيبا في تنظيمهم، فإنهم لا يقيمون للمؤخرة أو للأطراف أي اهتمام، جل اهتمامهم على المقدمة، وهذا سيساعدنا.

لاحظت الانتباه على قسماته وبحماسة قال:

- وهذا ما فعلته أنت؟

- صحيح، بعلاوة ورقة رابحة إذا استغلّيناها جيدا

قال الآغا يزيد وهو يعدّل طربوشه محاولًا أن يقتحم النقاش:

- ما هي الورقة الرابحة يا حضرة الجندي؟

أطلقت ابتسامة خفيفة لغطرسة الأغا، ثم أكملت:

- أعوان المتمردين، الّذين بثوا أمر خروجنا من المعسكر.

قال البك بحماس متزايد:

- كيف ذلك؟

- تعلن من جديد بخروج مجموعات لتجلب العلف والماء وبأعداد أكبر من المرة السابقة بكثير

تدخل أحد الجالسين قائلًا بعجرفة:

- ليس لأن البك أكرمك وأجلسك هنا تسخر من عقولنا...

بتر جملته عندما أعتق البك نظرة غاضبة نحوه فحُشِرت بقّية جملته في حنجرته، أشار البك لأكمل. فقلت:

- بعد أن تعلن سعادتك هذا وتخرج القوات من المعسكر، لن يمضي الكثير حتى يصل الخبر للمتمرّدين وسيجدونها أفضل فرصة للهجوم بكل تأكيد.

اجتاح الخيمة الصمت للحظاتٍ قبل أن يقول البك:

- وهكذا نستطيع الالتفاف عليهم

- نعم سعادتك

نهض من على كرسيه وحرّر قدميه بين ضباطه، فوقف الجميع ومن بينهم أنا على أثر ذلك

- من قائد فرقتك يا إبراهيم؟

أجاب الآغا يزيد مسرعًا:

- الأورطة باشي درغوث يا مولاي

- من الآن سيصبح إبراهيم هو القائد

- إنه مجرد جندي سعادتك، كيف ذلك...

قاطع البك كلمات الأغا المحتجّ بحزم وقال بصوت حاد:

- إبراهيم سيقود مجموعته هل هذا واضح لك؟

لوح الآغا برأسه موافقا، فاستطرد البك قائلًا:

- هيا لنقضِي على ما بقِيَ من البغاء الخونة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرعت الطبول وخرجت الأفواج لتنفيذ الخطة. كان اللقاء بالفوج غير طبيعي بعد أن لفظ درغوث كلماته بغيظ مستعر:

- قد عين حضرة جندي إبراهيم قائدا بدلا مني

رأيت أعينا تصفّق فرحا، وأوجهٌ تَتَدلّى منها ابتسامات السخرية، وجرادة اللعين يزداد مقتا.

توارينا في الأماكن المحدّدة، وانتظرنا إلى أن يقع الأعداء في المصيدة، وفور أن وقعوا في الشباك بدأ الهجوم، فراحت الأعداد تركض وهي تطلِقُ صيحات الحرب، جهّزت بُندقيتي وقد أخذ قلبِي يخفق أسرع كلما اقتربنا، وكزت حصاني فازداد عدوه، سمعتُ أصواتا كثيرة متشابكة وأنا أشقُّ الهواء، لكن صوتها هي الّذي طغى، أطلقت أوّل رصاصة عندما سمعتُ ضحكتها الفاتنة، اقتربت أكثر واخترقت صفوفهم وأنا أسمع صوتها العذب يقول:

- عندما أكبر سأتزوج إبراهيم.

صوّب أحدهم بندقيته نحوي، فوجدت نفسي متكوما أرضا أسفل حصاني الذي نزف حتى الموت بعد أن شقّت رصاصة منتصف رأسه، نظرت حولي فوجدت القتال في كل صوب. جنود ومتمردون

يهوون أرضا، ورُويت اليابسة بدمائهم. لم أعد أشعر بصوت من حولي، أصبح صوت أنفاسي يعلو وأنا أجاهد لأزيل عنق الحصان عن جسدي. إبانها سمعت صوتها من جديد:

- أنا أحبك يا إبراهيم، أنت شمس وقمر حياتي.

ترنحت واقفا والدماء تكسوني. امتشقت سيفي وهويت به نحو أحد المقتربين فوقع أرضا، قفزت فوقه وصرت أطعنه بشدّة دون أن أعلم لماذا وأنا ألهث بصعوبة، أزحته جانبًا بعد أن قذفت بأمعائه خارج جسده، حملقت حولي من جديد فوجدّت أنّنا قد أحرزنا تقدّما ممتازا في صفوفهم، أصبح التَّقهقُر واضحا عليهم. شعرت بيدٍ توضع على كتفي وقبل أن أهوي بسيفي، سمعت حسن يقول:

- هل أنت بخير يا إبراهيم؟

لوّحت برأسي مجيبا، فربّت على ساعِدي ثم أطلق النار على أحد المتقدمين، وقال وهو يأخذ أنفاسه:

- خطتك تنجح يا إبراهيم، تنجح...

التقطت البندقية من على الأرض وأكملت تقدّمي على ذات الحالة المضطربة. قفز حسن نحو أحد الصناديق المتروكة وتوارى خلفه محتميا من مطر الرصاص المنتشر.

لم يتوقّف الاشتباك بالبنادق وبالسيوف والخناجر إلى حين غروب الشمس. وإبّانها سقط الكثير جرحى وقتلى في حين قد ألقى من بقِيَ من المتمرّدين أسلحتهم أرضا وخرّوا خانعين، وبالرغم من الانتصار الساحق الّذي حققناه إلا أنهم أثناء القتال استطاعوا أن يكوّنوا فجوة في صفوف فرقة الآغا حيدر ولَاذ البعض منهم بالفِرار ومن ضمنهم الخائن الشيخ خليفة ورجاله الّذين بثّوا أمر خروجنا، لم تكن خسائِرُنا تُذكرُ أمامهُم، أصيب حسن في ساقه فجلس في خيمة الجرحى في حين كنت أقعد بجوار البك وضبّاطه المتغطرسين الّذين زاد غليلهم بعد الانتصار الساحق الذي حققناه.

وَلا تُـرِ لِلأَعَـادِي قَـطُّ ذُلاّ

فَإِنَّ شَمَاتَةَ الأَعَدَا بَـلاَءُ

(٢٢)

في شمس الرّواح كنا قد وفدنا طرابُلس. وكان لقاء الأغاني قبل الأيادي، فأخذت الأغَاني والزِّغاريد الحارّة تعلو لعودة الجيش ظافرا بنصره، وغارقا في نشوة فتحه. رقصت الأعلام وسط الصخب وهي تذرع بوّابة المدينة الشامخة وقد انكسرت أشعّة الشمس على حصان البيك الأبيض المزيّن بالذهب، جاعلًا إيّاه قطعةً من الضّياء وهو في عرض حرسه ومماليكه، انبرت الفرقة الموسيقية تضرب لتزيد للاحتفال الغفير جمالا، تجمّع النّاس على طول الطريق وبقيتِ النّسوة تطلق زغاريدها من خلف الأبواب والنوافذ الموارِبة، كشحت كل المظاهر الزائفة عنّي، وبقي سيف الدّين عالقا في ذهني وهو المسؤول عن هدية البكَ لوالده، عندما وصلنا للبوابة فتح سيف الدين صندوق الهدية وأخرج بعض رؤوس البغاء كما يسمّيهم البك وعلّقهم لترهب كل ناظر إليها، رؤوس عديدة قد انفصلت عن أجسادها ورشّت بالملح كي تحافظ على مظهرها لأكثر وقت ممكن.

- أنا سأذهب، ليس لدّي نية لإكمال هذا الهرج

جذبت عبد القادر إليّ وأنا أكمل:

- غطِّ غيابي، ولك جرادة اللعينة تسلى به إن أردت

ربتّت على ساعده وتحرّكت منسحبا من بين الصفوف، تنقلت بين الأزقة وصلت إلى المنزل، طرقت الباب، وبعد برهة أتاني صوت سعدية مجيبا:

- من الطارق؟

- أنا إبراهيم يا سعدية

فتحت سعدية الباب مسرعةً وهي تهتِف بفرح:

- الحمد الله على سلامتك يا سيدي

بمجرّد أن عبرت للفناء وجدّت أمي تزغرد وتكبر من الفرحة دنت منّي مسرعة وأغرقتني بقبلاتها، أخذت تسألني عن حالي حتّى لم أعد قادرا على الإجابة، جلسنا تحت العريشة وجلبت لنا سعدية المرطبات وهي تتراقص فرحا.

- إنّ أباك قد ذهب منذ الصباح للسرايا لكي يستقبلك هناك، فقد قيل له أنّك برفقة البك في موكبه، وقد قال لي إنّك أصبحت قائدا و...

قطعت كلامها بقبلة في جبينها بين حاجبيها وقلت بفتور:

- لا أريد أن أسمع أيّ شيءٍ عن هذا الآن، أريد أن أرتاح فقط يا أمّي.

قالت والابتسامة تضحو على قسماتها:

- ليكن ذلك يا بني، أين تريد أن تنام؟

جالت في خاطري محبوبة من جديد وتذكرت أنّني لم أنم في فراشها منذ أن فارقتني، فقلت بحزم:

- لا.. في الغرفة الأخرى، إنّك لم تفتحي غرفة محبوبة أليس كذلك؟

مضغت شفتيها وقد تلاشت الابتسامة بعد أن سمعت اسمها، حاولت أن تسترد حيويتها بعد برهة فقالت:

- قد جهّزت سعدية فراشك في الغرفة الأخرى.

دخلت الغرفة وخلعت ثيابي بعجل ثم ارتميت على الفراش المريح الذي لم يمسَسهُ جسدي منذ أشهر وغطّت في نوم عميق .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زارتني محبوبة وغمرتني بعشقها، كنت أرتمي في حجرها وتداعب خصلات شعري عندما قلت لها:

- لماذا ذهبتِ وتركتني بمفردي يا محبوبة؟

تجلّت ابتسامة على أساريرها ثم أعتقت راحتها في وجنتي وقالت بصوت أشبه بالهمس:

- أنا لن أتركك قط يا حبيبي

وضعت سبّابتها على فمي فبترت كلماتي، وأكملت:

- أنا داخلك وأنت بداخلي، فلا يهم إن تلاقت أجسادنا أو ابتعدت. هل فهمت؟

ثم أطرقت بصوتٍ حازم:

- يجب أن تترك الجيش

- لماذا؟

- عِدني أنّك ستَترُك الجيش وستفتح دكّان أبي كما كنت في السابق.

تلعثمت القول، فتابعت قائلة:

- عِدني يا حبيبي

تردُّدت في القول لكنّني لم أستطع أن أرفض لها طلبا، فقلت:

- أعدك يا محبوبة.

يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِي وَمَالي

وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

(٢٣)

استقلتُ من الجيش كما وعدُّت محبوبة، قبل البك اعتذاري ووافق بتسريحي رغم أنّه أمر بترقية رتبتي إلى جاويش ([23]) رغم أنف السّاخطين، إبّان خروجي من السرايا التقيت درغوث وهو يعتَمِر طربوشه ويرتدي زيّه العسكري بقيافةٍ تامّة، وقفت وقلت له:

- حضرة الأورطة باشي درغوث

حملق بِغيظ وقال بصوته الأجش:

- الجندي إبراهيم

قلت بسخرية وكأنّني آخذ ثأر شهور من التوبيخ والعقاب:

- تقصد حضرة القائد، أم نسيت أنّني قائدك

حاول ألا ينظر إليّ وهو يشتعل غضبا فقال:

- لا، لم أنسَ يا حضرة الجندي القائد

- إذًا كنت مصممما على الجندي فإنّ البك حسن قد رقّاني إلى جاويش منذ قليل.

ازداد ارتباكه فأطبق حاجبيه وقال بحزم:

- ماذا تريد الآن أيّها الجاويش قائد الفرقة؟

- أردت أن أبلّغك أنّك قد عدت لمنصبك، فقد استقلت من العسكرية

- ماذا؟

نطق بها دون أن يشعر، لكنّه قاطع سير كلماته بملامحه المتصلّبة، تابعت سيري تاركا إيّاه وبعد عدّة خطوات التفتّ إليه وقلت:

- أريد من ذلك النّزال أن يُعاد يا حضرة القائد، ويملؤني التّساؤل هل سأفعل شيئا؟ أم سأقع مثل المرّة السابقة خائِرَ القُوى؟

- ربّما سيكون في يوم من الأيّام، ولكن كن متيقّنا أنّني سأسقطك أعنف من المرة السّابقة يا ابن عمر.

نظرت له بثقة، وقفت تأهّبا وصحت بفخر:

- كان لي الشرف أن أقاتل بجانبك يا سيّدي القائد.

فكّرت في أمر هذا الرجل الصارم طويلًا، إنّه عنيف وحازم بحقّ وقد شَهِدّت أنا وكل فرد قد كلف بتدريبه على ذلك، تساءلتُ في أمره! هل هو كارِهٌ لبَنِي البَشر؟ أم هذا قناع يرتديه ليؤدّي عمله؟ فيجهّز الجنود لما سيرَونه مستقبلًا وهم يرتدون زيهم الخشن، كلّ ما لمحته رنّ صوته الجهوري في أذني وتذكّرت خطبته الّتي ألقاها في ساحة التدريب:

- لا تقف ساكنا والجبان ابن العاهرة ساقط أرضا، إذا لم يقف فهو لا يستحقّ أن يرتدي زيّنا، فأجِر عليه أيها الأخرق.

أمسك بتلابيب الجُندِي الّذي أخذته الرحمة بزميله، وزمجر:

- ماذا تريد بشفقَتِك هذه أيّها الجندي؟ هل تريد أن تكون بجانبك فتاة جبانة؟ هل تريد جبانا بجوارك حينما تتعلق حياتك بقشّة؟ تريده بجوارك حينما يهطل عليك الرصاص مثل المطر؟ الحنّية والرّأفة والرّحمة لا وجود لها هنا، كلّ هذا وأكثر سيختفي عندما تخوض حربا تلو أخرى، عندما ترى أصدِقاءك يقعون بجانبك غارقين بالأحمر، حينما تنزف وتَتَألّم فوق مقدرتك ستنسى كل الهراء الّذي جِئتموني به أيّها الحمقى الصغار، إنّ الحرب جهنّم مصغّرة تلتهم كل شيء أمامها، اضحكوا الآن مثل البُغاة وتبادلوا اللغو بين بعضكم وستَقعون مثل الذّباب في أول حرب تجدون أنفسكم بها، إنّكم مجرد حمقى، هناك شيء واحد يجب أن تكون مؤمنا به، وهو حينما يقترب الموت تزجره قائلًا بأنّه ليس اليوم موعده، فقل لي الآن أيّها الجندي من تريد أن يقف بجوارك حينما تكون على المحك؟

كانت هذه خطبة من ضمن مئات الخطب الّتي أطلقها، وبفضل صرامته الّتي مقتناها نجونا بحيواتنا، بفضل صرامته قد تبدّل الحمقى إلى جنود أشدّاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشرعت ستائر عيني بعد غفوة قصيرة في كرسي عمي ذي الابتسامة، لمحت حسن يقترب بعرجته الّتي خلفتها الإصابة في الحرب، تسرح هو أيضًا من الخدمة، في حين بقى صديقنا لطفي بمفرده، فتحت الدّكان من جديد وبمساعدة صديق دربي أصبح العمل يزدهر يوما بعد يوم.

- أين ذهبت يا إبراهيم؟ أنا أكلمك.

تابع كلامه قائلًا:

- المبلغ الذي جمعناه جيّد، وكما ترى أنّ معظم الخشب الذي في السوق الآن بندقي، فماذا ينقصنا لنجلب نحن أيضًا من البندقية؟

قلّبت كلامه في عقلي، ولم تكن المرّة الأولى الذي يردّد ذات الكلام، وكلما فكّرت فيما يقُوله أجِده منطقيا فعلًا

- ومن سيبقى يشرف على الدكان إذًا؟

- بسيطة، اذهب أنت، وأنا أبقى للإشرف على الدّكان.

- وهل تظنّ أنّ ما جمعناه سيفي بالغرض؟

- بل سيفي لتشاهد تمثيلية البندقية الّتي يتكلمون عنها أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت باكرا في اليوم الموعود، خرجت من المنزل وضَوء الفجر لم ينبلج بعد، تنقّلت في الزّقاق والبياض يهلّ معترضا في الأفق الشرقي، أصبح الجوّ لطيفا بعد أن هبّت نسمة هواءٍ عطرة في ظلّ رائحة الفجر الحنونة، سلكتُ طريقا كان نهج الحياة بالنّسبة لروحي، دربٌ تريده المنايا في المُضِيّ والمَجِيء، دوى صوت المؤذّن في الأزقّة الشّبه خاوية فَزَاد صوتُه رونَقا لهذا الفجر السّعيد. وصلت إلى مسجد النّاقة، المسجد الذي أزهَرَت فيه أوراقي منذ أمد، دخلت قاعة الصلاة الراسخة في ذاكرتي ما حييت، أطلَلت من النّوافذ ناحية الأروقة أبحث عن شيخي فلم أجده، فأخذت أبحث عنه بين الوجوه ليزداد يومي بركةً، لكن خابَ مسعَاي، فلم أبصر وجهَهُ النيّر ولم يزدد يومي بركة.

بعد أن أنهيتُ صلاتي وجدّت نفسي ذاهِبا لها، قرأت لها الفاتحة وتبادلت معها خواطري المكبوتة وأخبرتها بأمر سفري، بقيتُ بجوارها قليلًا ثم أوبت إلى البيت لأجهّز نفسي، عبّأت حقيبتي بالأغراض الّتي سأحتاجها، ارتديتُ ملَابسي، قبّلت يدي أبي وأمي ثم خرجت من المنزل نحو البندقية المنشودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الثاني)

شعرة ضئيلة تفصلنا عن عالم الأموات...

(الراوي)

النَّاسُ بالنَّاسِ ما دامَ الحياءُ بـهمْ

والسعدُ لا شـكَّ تاراتٌ وهـبَّاتُ

(٢٤)

فغر جفنيه بعسر والآلام تشتّت تركيزه، حرر آهات توجّعا وهو بالكاد يبصر، جمع قوّاه بعد برهة فاكتشف بنظره ما حوله، وجد نفسهُ طَريح الفراش جاهلًا للبقعة الّتي حل بها، حدّق يمينه فوجد عجوزا تجلس على مقربةٍ منه تحمل صليبا ويرقص أمامها سعير لشمعةٍ صغيرة، نظر يساره فوجد حائطا ونافذة موصدة. أخذ ينظر فيما حوله بصمت مرّة أخرى ليتأكّد بأنه لا يهذِي، فرأى أيقونةً للسّيد المسيح وأمّه معلّقة في عرض الحائط، دنت العجوز الشّقراء بردائها الذي يشبه كساء الرّاهبات، وراحت ترطن بكلمات لم يفهمها، وقالت:

- (لود أديو)...

حاول أن يفهم كلماتها لكنه عجز عن ذلك، رتّب كلماته بصعوبة والألم يشتد عليه فراح يلهث وهو يقول:

- أين... أين أنا؟ من أنتِ؟

أهلّت دلائل عدم الفهم منها بوضوح، تكلّمت من جديد لكنه لم يستدل على شيء، بقى الارتباك لعدّة لحظات ثم قال بتسليم تام وستائر عينيه تتهاوى دون أن يشعر:

- لا أفهمك... أنا عربي، أتكلم العربية...

أومأت بيدها أي انتظر، وخرجت من الغرفة بحركة سريعة، لم يمض الكثير وإبّانها كان إبراهيم تائها في ظلمات أوجاعه، دخل شاب أشقر يطابق العجوز شكلا، متوسط الطول، حسن الهيبة، دنا من إبراهيم وقال:

- أنت تتكلم العربية؟

قال إبراهيم بمضض:

- نعم، أين أنا؟ وماذا حل بي؟

التقط كرسيا وقرّبه من فراش ابراهيم ثم جلس، وقال بعربية ركيكة:

- الحمد للرب على سلامتك، لقد وجدتك جدتي منذ يومين غارقا في دمائِك في أحد الأزقة

ردد إبراهيم بخفوت:

- يومين!

- نعم، لقد نزفت بشدة... في الحقيقة لقد نجَوتَ بأعجوبة يا سيد.

دخلت الجدة وهي تحمل صحفة طعام، تكلَّمَت فترجم الشاب:

- الجدة تقول لك، يجب أن تأكل لتستردّ عافيتك.

أكل القليل مما يسدّ رمقه ويوقِف عواء بطنه الخاوي ثم غط في النوم من جديد مسلّما نفسه لأوجاعه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبحلول الظلام كان إبراهيم قد فتح عينيه من جديد، واستعاد القليل من نفسه الضائعة وسط الألم المبرح الذي يعصف به، شاركه أمسيته الشاب الأشقر قائلًا:

- كيف حالك الآن يا...

- الحمد الله، اسمي إبراهيم بن عمر

- وأنا لويز دبرفيد

ثم استطرد قائلًا:

- أنت طرابلسي؟ أليس كذلك ؟

- بالفعل يا سيدي، لكن كيف علمت ذلك؟

- لا أعلم ربما هيئتك أو ما شابه

وبعد لحظة صمت قصيرة أطرق لويز:

- أنا أعتذر إذًا كنت قد أقحمت نفسي، فربما تريد أن ترتاح

ظهرت بشاشة على قسمات إبراهيم وهو يقول:

- في الحقيقة بحالتي هذه أريد من يقحم نفسه ويشاركني الحديث، فلساني قارب على الخمول من عدم استخدامه.

- إذًا قل لي كيف وصل بك الحال في الزقاق؟

- قاطع لصّان طريقي في الزقاق، تعاركنا ولا أعلم بنفسي وإلا بشيء يصعقني من الخلف وأُغمى عليّ.

اكتسى إبراهيم بالأسى، فقال لويز مداعبا:

- ما بك؟ على الأغلب تريد تدخين السجائر أو النرجيلة فأنتم أيّها الطرابلسيون تعشقون هذه الأشياء.

تجلت ابتسامة على ملامح إبراهيم ثم قال:

- في هذه قد صدقت يا سيد لويز، هل زرت طرابلس؟

- نعم والأمر الغريب أنني وجدت دكاكين الدّخان أكثر من المدخنين

ضحك إبراهيم وقال مستدركا:

- الأمر الغريب، كيف تعلمت العربية بهذا الشكل؟

- ليست لهذه الدرجة من الاتقان، قد ذهبت إلى مصر وأقمت بها فترة من الزمن بسبب العمل... أنا أعمل طبيبا

أشار بسبابته نحو رأس إبراهيم وقال:

- وأنا الذي عالج لك جرحك

- شكرا لك، الحقيقة لا أعرف ماذا أقول لك بعد كل هذا

- دعني من مجاملاتك المهذبة يا إبراهيم، قل لي ماذا تعمل؟

- نجّار

فغر عيناه تعجبا وقال:

- نجار!

تردد القول وهو يرتّب كلماته العربية بصعوبة هذه المرة، فقال:

- إن أثار الجروح الذي على جسدك لا توحي بنجّار البتّة

تبسّم إبراهيم وقد أدرك ذكاء الذي أمامه فقال:

- وجندي سابق في جيش الإيالة

فُتح الباب ودخلت الجدة وهيا تحمل كوبين من الشاي، رطنت بكلماتها الغريبة فترجم لويز، وبعد أن خرجت قال لويز باسمًا:

- ليكن في علمك أن شاي الجدة لا يعلى عليه في كل بقاع الدنيا.

وأفضَلُ الناسِ ما بين الوَرَى رَجُلٌ

تُقْضَى على يَدهِ للنَّاسِ حَاجَـاتُ

(٢٥)

في قلب الميناء المكتظّ بالبشر وهتافهم ودّع إبراهيم صديقه قائلًا:

- سأشتاق لك يا صديقي

- أنا أيضًا أيها الطرابلسي

تعانقا بحرارة على أمل اللقاء، ارتقى السفينة ولم يمض الكثير حتى أبحرت كتلة الخشب القديمة بعد صياح فك الأحبال ورفع الأشرعة، أخذت السّفينة تدب طريقها بكل يسر في الماء ونسمات البحر المنعشة تُدَاعِبُ من على ظهرها. تشبّث إبراهيم في الطرف حيث السور الخشبي وأستهلّ يتأمل الأزرق الشاسع الّذي طغى على بصره، وبعد طول تأمّل استحضر على صفحاته الساكنة صورة لويز والجدة العطوفة، ودّعهم منذ قليل بعد أن قضى معهم حكاية تشبه حكايات جدّه الهادي، لم يخطر له على بالِه بأنّ الذي سينقذه ويرجعه إلى أهله سالما، أناسٌ من بقعة بعيدة عن دياره، ودين مختلف عن دينه، ولسان بعيد كل البُعدِ عن لسانه.

لم يقدر على الوقوف على قدميه إلاّ بعد يومين من الرّاحة والغِذاء المستمر الذي تفانت الجدّة في إعداده، أخذ لويز يغير على الجرح العميق الذي زين رأسه الفيّنة بعد الأخرى، فحكى إبراهيم للمُنقِذ قصّته منذ البداية حتى حلّ بمنزله، الشيخ ضياء الدين، محبوبة، الطاعون، الجيش، الصّبي عبد السلام الّذي لم يكف عن التفكير به، فلم يكن من الأشقر إلا أن يفعل المثل، فروى قصته بابتسامة رغم تفاصيلها المؤلمة:

- احتَرق منزلنا وأنا صغير، لم أتجاوز الثّالثة حينها وعلى أثر هذا الحريق قد مات والداي، فانتَقَلت تحت رعايةٍ وكنف جدّي وجدّتي، ولكن القدر كان مصمّما أن يتدخّل مرّة أخرى في قصّتي، فلم يلبث جدي طويلاً حتى لحق بوالِدي، افترقنا وأنا في الثّامنة تقريبا، وبهذا لم يبق لجدتّي أحد غيري ولم يبق لي غيرها، فعاهدَت العجوز الحنونة نفسها بأن تجعلني طبيبا مثل زوجِها وابنِها وها أنا ذا أوفي بعهدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن وقف على قدميه وأستردّ بعض عافيته المفقودة، قال للويز:

- يجب عليّ أن أعُود لطرابلس... ولكن قد بتّ خاوي الجيب بعد أن ضيّعت مالي ومال شريكي.

لم تختفِ الابتسامة على ملامح الأشقر فقال بهدوء:

- بسيطة سأعطيك ثمن العودة لطرابلس

- أرجوك لا تقل ذَلك، لقد أنقذتني من الهلاك، وأويتني في بيتك، وأطعمتني طعامك، وتقول ستدفع ثمن السفينة؟ أنا لديّ طلب واحد منك يا صديقي.

- ما هو؟

- لديّ صنعة في يدي يا لويز، وبفضل من الله أستطيع أن أقول إنّني نجار بارع... أن تجد لي مكانا أعمل به حتّى أجمع ثمن العودة ومنها أستعيد عافيتي، فلا أريد أن أرجع إلى طرابلس جريحا وخاويَ الجيبِ

أجاب لويز وكأنّما كان ينتظر هذه الكلمات:

- القدر قرر أن يتطفّل يا صديقي... لدينا كنيسة هنا في حين ما وجدت مُرادها وتستطيع أن تقول أنها هي إحدى المشرفين عنها، وقد أخبرتني أنّهم يريدون أن يجدّدوا المصاطب الموجودة وسيقيمون ببعض التّصليحات.

قال إبراهيم ببشاشة رغم شحوب وجهه:

- الحمد الله، بهذا قد حلت مشكلتي

في اليوم التّالي كان إبراهيم في الكنيسة ليباشر عمله، استطاع لويز أن يتفلت من عمله في المستشفى بطريقة ما وتفرغ لإبراهيم، فذهبا إلى السّوق ووفرا المعدّات اللّازمة للعمل، كانت الكنيسة المنشودة متوسّطة الحجم قليلة الزينة والزخرفة، قاعة الصلاة بها ذاتُ إضاءةٍ منخفضة، وجدرانها حمراء ملساء تملؤها أيقونات متواضعة.

استهلّ عمله، ومنذ اليوم الأول استعاد مهارته الفذّة، لم يتوقف صخب العمل في قلب الكنيسة لأسبوعين متتاليين، وإبّان التقطيع والدق والحفر لم تتوقف الشفاه عن التحرك أو الأصدقاء عن التعرف على بعضهم أكثر، انبرت الأيّام واصطفّت المصاطب في منتصف القاعة بانتظام، جدد المذبح أيضًا فتزيّن بصليب مزخرف من خشب السنديان، بالإضافة لترميم السقف القديم، فازدهرت الكنيسة وتبدّل حالها.

قطعت سرحانه موجة قد اصطدمت بالسفينة، وحينها كانت السماء تصطَبغ بالأحمر، عاد الصبيّ عبد السلام لخلده، احتار في أمره فلماذا كلّ هذا التعلق به؟ لماذا يفكر به؟ لماذا يتذكر كلّ تفاصيل اللقاء؟ تزايدت التّساؤلات، ولم تهلّ الإجابة أو تقترب من عقله المستعر.

لا تَمنعَنَّ يدَ المعروفِ عن أَحَدٍ

ما دُمْتَ مُقْتَدِرًا فالسَّعْدُ تاراتُ

(٢٦)

كانت الشمس لم تفل بعد لكن البيوت المتاخمات حجبت أشعتها على الزقاق الضيق، مشى إبراهيم بخطًى ثابتة وهو يرتدي المعتاد من الملابس، خرج من منزله منذ ما يقارب الساعة ونصف الساعة يطوف الطرقات بحثا عن عبد السلام. وبعد البحث البائس سأل أحد الصبية في شارع الأكواش وقد دلّه على الزقاق الذي يخطوه الآن، لم يمضِ الكثير حتى وجده جالسا على الأرض مستندا على الحائط ويمسك بصحفة ويلتهم ما بها بشراهة، دنا إبراهيم ولم يصدر صوتا تاركا إياه يفترس طعامه بنهم، وبعد برهة رفع عبد السلام رأسه وحدّق في إبراهيم مذهولا قبل أن يقف مسرعًا وهو يقول:

- إبراهيم! أين أنت يا رجل، قد ذهبت واستعلمتُ عنك وقيل لي أنّك لم تعد من سفرك بعد.

اكتسى وجه إبراهيم ببشاشة وقال:

- نعم قد علمت ذلك

حدّق عبد السلام في طعامه وقال:

- أقسم لك أنّني لم أسرقها، فقد قدّمها لي رجل طيب مثلك

جثا إبراهيم على ركبتيه ليصبح طوله كطول الصبي، ربّت على ساعده وقال سائلًا:

- ماذا حدث منذ لقائنا يا صديقي؟

- أقسم لك أنني لم أسرق مجددا، دبّرت نفسي بالأموال التي أعطيتني إيّاها... لكن ملاعين الشرطة قد قاموا بحملة جديدة فأطلقوا كلابهم علينا في الطرقات، فهربت وتواريت عن الأنظار كما أفعل دائما إلى حين أن تنتهي الحملة.

وقف إبراهيم على قدميه وقال بحماس:

- هل فرغت من طعامك؟

- نعم

رحلا من الزقاق، ورافق عبد السلام الرّجل الطيب الذي ساعده، وبعد أن قطعا بضعة أزقّة قال ببراءة:

- لقد حسبت نفسي قد جننت وأصبحت مثل الدراويش الذين يجوبون الشوارع، فتخيلتك تساعدني وتنقذني من المأزق عندما لم تظهر مرة أخرى.

أكمل إبراهيم سيره وهو يقول:

- وهل لا زلت تحسب نفسك قد جننت؟

ضحك عبد السلام وتَلألأ وجه الخمري وقال:

- الآن أحسبك أنت من جنّ وليس أنا، تعطيني مالا في المرة السابقة والله أعلم إلى أين ذاهبون الآن... ليكن في علمك إنني لن أستطيع أن أعيد لك مالك، ولا تطلب مني أمرا مخالفا للقانون فإنّ كلاب الشرطة شرسة وأنا أخاف منها... ليست كلابهم فقط بل هراواتهم أيضًا، فقد جربتها، إنها مؤلمة بحق

تبسم إبراهيم قائلا:

- لا تخف، فلا أريدك أن تعيد المال أو تقوم بشيء يعرّضك لكلاب وعصيّ الشرطة، هل ارتحت الآن؟

فأجب بتردد:

- إلى أين نحن ذاهبون إذًا؟

- الصبر مفتاح الفرج، لا تستعجل ستعرف كل شيء.

ذرعوا الأزقة إلى أن وصلوا إلى سوق المشير الذي يقع بجانب باب هوارة جنوب شرق المدينة، وتتواجد به عدة مداخل ومنها مدخل لسوق الكتب ومدخل لسوق الرداوات ومدخل لجامع أحمد باشا القرمانلي الذي يتقدمه رواق معمد مؤدي إلى سوق العطارة. كان السوق يعج بالحركة. فهذا حمال يمر بدابته وسط السوق مستأذنا المارة لإفساح الطريق، وسط أصوات الباعة بألحانهم الشجية وأغانيهم المتنوعة ذات العمق في المدلول. أصوات نوال نساج وهو يرسم بالصوف لإكمال قطعته الفنية بألوانها الزاهية، سواء كانت رداءً أو جردا أو غيرها. توقفا عند أحد باعة الملابس.

- اختر ماذا تريد يا عبد السلام

ارتبك الصبيّ في البدء وقد ظهر ذلك على قسماته، لكن إبراهيم جعله ينساب مع التيار . فتجوّلوا من بائعٍ إلى آخر حتّى امتلأت راحاتهم بالأكياس، خَرجَا من السوق ذارعين الطرقات مجدّدا، وتوقّفا أمام إحدى حمّامات المدينة المميزة عندما قال إبراهيم:

- والآن قد أتى موعد الاستحمام...

كانت المرة الأولى الّتي يدخل فيها عبد السلام للحمام، ولج الصبيّ الممر المتدثر بالرخام الأبيض، نزل برفقة إبراهيم الدّرجات الرخامية الّتي تنتهي في البهو الواسع، تواجدت مصاطِب في أرجائِه لتزيده جمالا مع قبّته ذات الثمانية أذرع، وفي عرض البهو دوى خرير لبركة صغيرة، تقدّم شاب أسمر بخطوات سريعة نحوهم قائلًا:

- قد نوّرت الحمام يا سي إبراهيم

- كيف حالك يا محمد

أجاب الشاب بكياسة:

- الحمد الله، ادخلا وسأجلب لكما بقاجكما ([24])

دخلا وخلعا ما كانا يلبساه، في حين جلب لهم محمد المناشف والصابون والقباقيب. التفا بالمناشف ودخلا إلى القاعة الكبيرة التي تولجها أشعة الشمس من نوافذ القبب لتنعكس على أجساد المتعرقين. للقاعة ثمانية أعمدة من المرمر تقيم سقفها، الرخام يكسو جدرانها للمحافظة على حرارة المكان، تواجدت منصة واسعة مرتفعة قدر ذراعين من الأرض في المنتصف بالضبط وأعلاها مباشرة كانت القبة الأكبر والأكثر جمالا، استلقى البعض على المنصة مبتهجين في حين كان البعض الآخر متفرقين في أرجاء القاعة حيث الصنابير الذهبية والدِّلاء، استقرّا بجوار إحدى تلك الصنابير، ملأ إبراهيم الدلو وأفرغه فوق رأسه وهو يقول:

- ما بك مذهول يا عبد السلام؟

التقط عبد السلام الدلو من يد إبراهيم بخفة وملأه ثم أفرغه على جسده وهو يطلق قهقهة ضحك خافتة، وقال:

- ها قد علمت الآن، لماذا الجميع يذهب ويتكلم عن الحمام

قال إبراهيم بتردّد:

- لم تدخل حماما من قبل؟

أفرغ عبد السلام الماء الساخن على رأسه مرّة أخرى وقال:

- في الحقيقة لا، حاولت ذات مرة أن أدخل حماما يقبع بالقرب من شارع الأكواش بعد أن سمعت حكاياتٍ عن هذا المكان، لكن قد طردني العامل وهو ينهال بعصاه ويشتم

التقط إبراهيم الدلو وعبّأه، فأكمل عبد السلام:

- أعدت الكرّة في حمام آخر، ولكن كنت قد وجدت الرّد ذاته مع اختلاف بعض السُباب الذي أطلقوه نحوي.

دوى صوت أحد الرّجال وهو ينشد بصوتٍ جميل:

ليتْ حزَامْ الطرف بالتُّاجوري

بو مضحك تقول عليه تبروري

ليتْ حـــزَامْ ملاَيمْ

على جوُفْ مَايا كِلْش ديمه صَايِمْ

وتشبح سوُالفْ يحَدْرُو بتمايم

عراجِين في رُبعة نَخل حموُري

أنصت للغناء ثم استطرد بمرحٍ :

- ولكن كان لديّ حمّامي الخاص أنا وغندور، كنّا نذهب إلى الميناء ونسبح هناك. لكنّها لم تَرُق لي بسبب ملُوحَتِها كما ترُوق لي بركة السوق ذات المياه العذبة، رغم أنّها كلفتني ذات يوم الكثير من المتاعب وركض رجال الشرطة الذين لقّنونا درسا مؤلما، فلم أعِد الكرّة ورضيت بالميناء وملوحته.

ثمّ أضاف:

- اه نسيت، قد ذهبنا ذات يومٍ إلى بُحيرَةِ تاجوراء وكانت جميلة بحقّ.

وقف عبد السّلام وألقى بجسده على المنصّة السّاخنة فتبعه إبراهيم، اعتدل الصبيّ في جلسته وقال بابتهاج:

- ماذا تعمل يا إبراهيم؟

- نجّار... وكنت جنديا في جيش الإيالة

قال الصبي بذهول:

- الجيش؟

- نعم...

أجاب بتأمّل وهو يحدّق في القبة المرتفعة:

- يعني، هل تستطيع أن تكلّم الشرطة؟ أنا لم أعُد أسرق.. أقسم لك بهذا، فما رأيك أن تذهب لهم وأنا سوف أدلّك على رئيسهم فتخبره أنّني جيدٌ ولا أقوم بأيّ شقاوة، ولِيبعد رِجالهُ عني...

غرق إبراهيم في صمته، وبعد لحظات قال:

- بماذا تحلم يا عبد السلام؟ قل لي ماذا تريد بحقّ.

مص الصبي شفتيه وهو يفكر وقد اكتسى جسده العرق من كل صوب، واحمر وجهه الأسمر ليزيده براءةً فقال:

- لا أعلم... أقصد ربما...

ثم قال بتردّد والدّهشة تعتمره:

- كنت في بعض الأحيان أختبئ في قوالب القُمامة في الأزقّة المنسية حتى لا يجدني أحد، أرفع يديّ إلى السماء ولا أعلم السبب، فقد رأيت رجلا طيبا في المسجد يقوم بها فقلّدته، أرفع يدي وأدعو الله... لا أعلم ما الكلمات الّتي أقولها بالضبط لكنّني أرجو من الله أن يساعِدني كيف ما أراد وليس كما أريد ولا أعرف كيف ذلك؟ غفوت بعدها وعندما فتحت عيني وجدت طعاما بجواري لا أعلم من أين جاء...

و بعد لحظات من التعرّق، قال إبراهيم:

- حان وقت التدليك والتّكييس يا صديقي.

وضع الشاب المهذّب محمد ليفة من جلد المعز الّتي تناثر منها الصابون ذو الرائحة الزاهية وراح يفرك ظهر عبد السلام، وعندما انتهيا من الفرك وسكب المياه، قال إبراهيم:

- هل لديك مقصّ للشعر يا محمد؟

قال محمد بكياسة تليق برجل في بلاط الباشا:

- هناك المقص والخبرة يا سي إبراهيم

- احلق لي شعري ولأخي عبد السلام إذًا.

ارتدى عبد السلام ثيابه الجديدة وهو يكاد لا يميز نفسه في المرآة، أصبح شخصا آخر غير الذي يعرفه، خرجا من الحمّام بعد نظافةٍ يُحسد عليها وذرعا الطّرقات مرّة أخرى، راح الصبيّ يتساءل إلى أين الوجهة هذه المرّة ؟ وفدا إلى شارع عمورة وأمام بيت من بيوته لم يعلم عبد السلام هويّة أهله، توقّفا ثم فتح إبراهيم الباب وولج فقال:

- ادخل يا عبد السلام، ماذا تنتظر؟

دخل عبد السّلام مرتبكًا وهو لا يدرك متمّة هذا اليوم، توقف إبراهيم عند السقيفة المؤدّية إلى الفناء وقال:

- من اليوم هذا بيتك يا عبد السلام

دنا منه وجثا على ركبتيه فتقرّبا في الطول، وأكمل قائلًا:

- من الآن أنت في مسؤوليّتي، ستصبح أخي الأصغر أو ابني إن أردّت ذلك، هل تذكر عندما قلت لك ستعيش مثل بقيّة الخلق...

ثم استطرد وعبد السلام غارق في صمته:

- ألم تقل لي أنّك دعوت الله أن يساعدك كيف ما أراد وليس كما أردّت؟ وها قد ساعدك الله كيف ما أراد.

قد ماتَ قومٌ ومَا مَاتَتْ مكارِمُهم

وعَاشَ قومٌ وهُم فِي النَّاسِ أمْواتُ

(٢٧)

توارت الشمس وراء مئذنة المسجد العتيقة المحروسة بجذوع النخيل، فتشابكت الألوان لتعطي مظهرا خلابا أعاد إبراهيم لسنوات قد مضت. المئذنة ذاتها، المسجد ذاته بآياته القرآنية. استحضر عودته من الكُتاب مسرعًا ليلقن محبوبة ما حفظه. قال وهو يتأمل المدخل:

- ألم تقل لي إنّك تريد أن تصبح مثلي؟

أجاب عبد السلام وهو يرتدي زيّ إبراهيم في صباه:

- نعم

فربّت إبراهيم على ساعده وقال مشجّعا:

- وهذا أوّل الطريق، عندما كنت في عمرك ذهبت للكُتّاب لأتعلم أجمل شيء في الحياة، هل تعلم أنّني قد تعلمت في هذا المسجد وعلي يد الشيخ ذاته.

ثم استطرد بخفة:

- صحيح أن فلقة الشيخ زاهر مؤلمة لكنك ستَستَحمِلها، بل ستحفظ ولن تتعرض لها بإذن الله.

- لن تكون أسوأ ممّا جربت

- نلتقي لاحقا إذًا

دخل عبد السلام إلى المسجد في حين راح إبراهيم يخطو في الزّقاق، أعاده الطريق لتلك السّنوات الّتي تاق لها ولكل تفاصيلها.

أخذ عبد السلام في كنفه، وبمرور الأيّام بات الصبي ينسى أيّامه البائسة وراحت خصله الذّميمة الّتي اكتسبها بسبب ظروف حياته السابقة تتلاشى، فطفا معدنه النّظيف وسيطر أنسُ عبد السّلام حياته الجديدة، وأصبح يتعلّق بأمّه خديجة الحنون وأبيه الرشيد مساعد الكخيا سعيد، وهم كذلك بادلاه الشعور وأزيد ففرحا بوجوده أكثر من إبراهيم نفسه، وكأنّما قد رزقهم الحي القيوم بابن بعد أن فشلا بإنجاب غير قرّة عينهم إبراهيم...

غرق المتيّم بابنة عمّه في سرحانه الخانق حتى وصلا إلى الدكان، استقبله حسن بصخبه المعتاد، جلس حيث كان يجلس عمّه عبد الله، دنا منه قرينه البدين ومدّ له ظرفا وهو يقول:

- قد وصلك من البندقية

التقطت إبراهيم الظّرف بلهفة، فتحه وشرع في قراءته:

من صديقك المحب لويز دبرفيد.

أبلغك سلامي وتمنياتي ورجائي بأن تكون في أفضل حال أنت والأهل والأحباب، أمّا بعد.

فقد أظلمت دارنا واستوحشت أزقتنا وخفقت قلوبنا للقائك والجلوس بصحبتك أيها الطرابلسي. وصلتني رسالتك وقد سعدت بها جدا، فأمّا عن حياتي لم تتغير كثيرا من بعد رحيلك، لا زلت أذهب إلى المستشفى الكريهة صباحا وأعود منها ليلًا للنوم. ولكن هذا لا يعنى خلو ّ الشقوات والنزوات لتمضي الأيام بيسر وخفّة، ولا أعلم كيف تستطيع البقاء هكذا مثل الفتاة البتول يا صديقي، قد خضت عدّة مغامرات لا بد أن أحكيها لك بتفاصيلها عندما نلتقي قريبا، والأهم من ذلكٍ هي كاثرن يا صديقي، تتذكرها بالتأكيد، إنّها الشقراء الّتي التقينا بها في الكنيسة ذاك اليوم، على كلٍّ أظن نفسي قد أغرمت بها وهي كذلك. صارحنا بعضنا بعواطفنا، ولا أخفي عليك فقد قمنا بالقليل من الشّيء الذي تمقته في الكنيسة وليسامحنا الرب وجدّتي على هذا.

أمّا عن جدتي فقد سألتني عنك مئة مرة أو يزيد، ترسل لك سلامها الحار، وأخبرتني ذات ليلة أنه لا بد وأنك قد اشتقت لطعامها والشّاي الذي تعده.

هذا كل ما جال في خاطري يا صديقي الآن، أودّعك على أمل أن ترسل لي في أقرب فرصة.

وضع المكتوب على المنضدة بعد أن أعاد قراءته لعشرات المرات، وبفورة سعادة أخرج ورقة وبدأ يكتب:

إلى صديقي المحب لويز دبرفيد

أرسل لك هذا الكتاب وكلّي أمل ورجاء من الله بأن تكون أنت والجدة بخير حال. وصلني كتابكم وقد غمرنا بالفرح وأفرطنا بالشّوق لكم أيّها الأخيار، وكتبت لك كتابي هذا لأعلمك بما يجري لي هذه الأيام...

هَلّا تَرَكتَ لِذي الدُنيا مُعانَقَةً

حَتّى تُعانِقَ في الفِردَوسِ أَبكارا

(٢٨)

كانت تتوسط الشمس كبد السماء عندما رست السفينة ذات الساريتين، داعبت نسمات الهواء الخفيفة علم دولة البنادقة فتراقصت قطعة القماش بانتظام. أُلقيت الحبال وتثبّتت السفينة في المرسى ولم يمض الكثير حتى أُسقط السلم فباشر الركاب بالنزول منذ ما يقارب ساعة أو يزيد وإبراهيم ينتظر في الميناء حتّى لفحت الشّمس رأسه فاستظل بحائط حجري قصير؛ كان قد قرأ كتاب صديقه الأخير وغمرته السعادة عندما أخبره لويز بموعِد قدومه لطرابلس.

نزل الأشقر من على ظهر السفينة وهو يرتدي بدلة الخَواجات ([25])، ويضع على رأسه بورطيلة ([26]). يحمل حقيبةً في يده وابتسامتُه تتدلّى من شفتيه كالعادة.

دنا الصّديقان وتعانقا بعناقٍ حار.

- الحمد الله على السلامة

- شكرا لك يا صديقي

حمل إبراهيم الحقيبة من يد لويز، وتحرّكا خارجين من الميناء وإبّان سيرهم قال ابراهيم:

- كيف كانت رحلتك؟

- ممتازة

رمق إبراهيم صديقه بسخرية وقال باسما:

- وكيف حال كاثرن إذًا؟

ضحك لويز حتّى قارب على الاختناق، ثم قال:

- ذهبت إلى الجحيم، قد انتهت مغامرتنا منذ أشهر

- يا لك من ذاعر يا لويز!

وصلا إلى المنزل وكان عبد السلام في الانتظار، جلسا في المربوعة ([27])، منذ الصباح، خديجة وسعدية تعدّان الطعام، فكان طعام الاستقبال مكوّنا من بازين بالمرقة الحمراء واللّحم وبعض البيض المسلوق بالإضافة إلى أطباق السلطات المختلفة، وعندما انتهوا من الأكل حمل عبد السلام الأطباق وأتى بالشاي وصحون الحلويات؛ كعكة التمر الّتي تعدها خديجة بإتقان وطبق الغريبة والمقروض.

خرجوا من المنزل بحلول العصر، تجولوا في الأسواق المزدحمة، زاروا حيّ المقاهي واحتسوا القهوة وعندما انتهوا منها اتجهوا إلى الساحة العتيقة، حيث كان يقف القوس القديم شامخا مادا لعروقه في باطن الأرض وحجارته البيضاء الّتي لم يُعرف لها مصدر، تتألق كلؤلؤة نفيسة، كانت الساحة صغيرة بالنسبة للقوس العريق فقد تداخلت الدكاكين وتراصّت حتى باتت ملاصقة له، لكن هذا لم يفقده شيئًا من جماله، حملق لويز باندهاش في المبنى الّذي يحمل قبة من الرخام المنقوش، اقترب من القوس وراح يدقّق في تفاصيله من نقشات ورسومات قد خُطّت منذ قرون، قال إبراهيم وهو يحدق في القوس بفخر:

- هل تعلم أن الأهالي اتّخذوه مسجدا يصلون فيه

قال لويز باندهاش:

- ماذا؟ كيف ذلك؟

- منذ سنوات قد حاول بعض التّجار بمساعدة البعض من الأفنديات بأن يستفيدوا من رخامِه النّادر، ولكن الأهالي رفضوا ذلك وتمسّكوا به وليثبتوا تمسكهم به، أصبحوا يصلون فيه معلنين أنه مكان مقدس لهم ومن يتجرّأ عليه قد تجرأ عليهم.

انتهى يومهم بذلك وعادوا إلى المنزل ليلًا، لكنّها لم تكن النهاية.

في اليوم التالي قد جهزوا حميرهم وخرجوا من طرابلس من بكرة الصباح متجهين غربا، فغاصوا برحالهم في الرّمال على طريق تونس عبر الجادات الضيّقة وبين الجدران الطينية العالية، الّتي تتوهج وتزدهر، أو تقدّم أثمارها وظلالها أشجار الرّمان والتّين الشّوكي والزّيتون الأشهب والنخيل الكثّ، لم يكن هنالك طريقا حقيقيا، لكنّ السابلة تقع على طول الشاطئ، مرّوا بالعديد من القبب الجميلة لأضرحة الأولياء، وكانت هذه القِبَبُ رُغم بساطتها تعني الجمال بعينه وهي تطلّ بألوانها المختلفة وتكتسي هذه القبب بالأعلام الجميلة الّتي تصنعها النساء عندما تتحقق لهنّ سعادة منشودة أو عندما ينجو شخص قريبٌ وعزيز ٌمن مرضه، قال لويز باندهاش وهو يحدّق في كل صوب، ولو كان رأى اللوحات الّتي عُلّقت في قصر الباشا لقال يجب أن تعلّق هذه أيضًا هناك.

- طرابلس اسم غير مناسب لهذه المدينة يا رفاق

ثم أردف وهو يرشد حماره نحو الطريق:

- الاسم الأنسب لها هو مدينة النخيل. يا لها من شجرة هامّة، لم أجد مكانا جميلا وبهيا دون أن ألمحها به... تكون الحياة مستحيلة في هذه الصّحراء بدونها، إن الحطب ومواد البناء من جذوعها، والسلال والحبال من فروعها، وتُقَدّم هذه المسكينة ثمارها أيضًا وهو الغذاء الرئيسي هنا، وتمنح الظلال كما تعطي المراوح المستخلصة من سعفها.

ضحك لويز وهو ينظر لصديقه وأكمل:

- ومنها يصنع اللاقبي أيضًا

تظهر الآبار القديمة بوضوح وهي الوصيّة على البساتين الّتي كثيرا ما تكون مسورة بين البحر والصحراء، باعثة كل منها ضيفها الغريب كلّما ألقى الجراب إلى الأسفل فارغا أو سحبه مُلِأ بالسعادة، يأخذ الثور الذي انتهى من يوم شاق بالتأكيد ويضعه بمحاذاة الرجل صاحب البستان صعودا للتل أو هبوطا. ويحرس كلّ بستان بعناية فتَجِد الصِّبية يعملون هنا وهناك، أو تجد رجلا جالسا مستظلا بإحدى الأشجار يدخّن سيجارته بسعادة، قال إبراهيم وهو يرشد حماره:

- لدينا مثلٌ يا صديقي يقول: (ما من نخلة تعطي ثمرا إذا لم تسمع يوميا صوت صاحبها)

أكملوا طريقهم في الرمل الّذي يطلق عليه طريق تونس، ولم يخلُ المسار من آثار لأيام غابرة؛ فتجد بعض الحجارة المعقودة هنا أو هناك مسروقة الملامح بسبب الزمن، حلّقت قلعة تركية في الأفق وبمرورهم قربها قد لمحوا الجنود الكسالى بأحزمتهم الحمراء اللامعة وطرابيشهم، والبنادق القديمة تتراقص على أكتافهم، فتذكّر إبراهيم أيامه وهو يرتدِي هذا الزيّ .

وبعد ساعة ونصف الساعة وصلوا بالقرب من قرقارش حيث الكهوف العجيبة الّتي كانت قريبة جدا من البحر، كان الموج يلطم الشّاطئ بلطف والمسافات بعيدة من الرمل نحو المدينة البيضاء في المدى الوردي، تذكّر إبراهيم عندما رآها أول مرة منذ أعوام وقال في نفسه حينها: لابد أن تكون يوما من الأيام قد آوت جيشا من سكان الكهوف غاصوا فجأة في سبخة مستوية لحدّ معقول، حيث وجدت التجاويف غير المتوقعة، كالأنفاق العميقة التي انحدروا فيها، ليجدوا أنفسهم أمام مغارات ضخمة، عددها كلها أكثر من خمسين، وهواؤها بارد وجاف، عالم مختلف عن عالم الشمس اللافحة فيما فوق، كان الصّخر مثل الرمال المتحجّرة في تركيبه، ولكنّه كان مع هذا يزيده صلابة ومشبّع بالماء، كانت

بعض الكهوف ذات أصل طبيعي وبعضها يحتمل أن تكون معاقلا قديمة. تقود الأقواس المنخفضة غير الجميلة الّتي صنعتها يديّ الإنسان منذ قرون خلت، في اتّجاه منحدرٍ إلى الداخل، وفور اقتحامهم ببطء إلى الداخل قد احتجت السنونو والخفافيش احتجاجا مجنونا على هذا التطفّل، لكن عبد السلام بدوره قد حمل عصاهُ وبدأ يطردهم من المكان دون أيّ تردد أو خوف، جلسوا في المغارة قليلًا وتحسّس الأشقر الصخور والرمال الّتي بللتها المياه فتلطمها من حينٍ إلى آخر حتّى أصبحت بهذا الشكل. دخلوا أكثر في المغارة وأخذ لويز يفحص الأعمدة الغريبة والأقواس المسقوفة التي وُجِدت، بالإضافة إلى النّصوص والرسومات الّتي اكتست الحجر الرطب، قال عبد السلام بنبرة اندهاش:

- سمعت ذات مرة من غندور أن المغارات مساكن للجن والوحوش...

ابتسم إبراهيم لبراءته ولم يعقّب، لم تكن المغامرة الأخيرة للويز ورفقته، فتوالت الأيام وهم لا ينقطعون عن زيارة الأماكن الآثرية والتاريخية في طرابلس وما حولها.

أَنتَ حَسبي وَفيكَ لِلقَلبِ حَسبُ

وَلِحَسبي إِن صَحَّ لِيَ فيكَ حَسبُ

(٢٩)

في العتمة، عاد إبراهيم بعد يوم شاق للمنزل، وجد أباه يجلس تحت العريشة وضياء السّراج يتراقص على الطاولة أمامه، فور أن سلك الفناء استقبلته أمه قادمة من غرفتها قائلة:

- هل رأيت عبد السلام؟

قال إبراهيم بدهشة:

- لا!

قال سعيد من موقعه بصوته الأجشّ:

- لم يعد منذ أن خرج إلى الكُتاب وعندما تأخّر قلنا لابدّ أنه معك

- ربما يلعب مع الأولاد في الشارع، سوف أبحث عنه.

خرج مسرعًا وبدأ يبحث عنه، تقصّى عنه في الزقاق ثم في الأزقّة المجاورة، فلم يجده، قال في نفسه ربّما لا يزال في المسجد، لكنّه لم يجده هناك ولا في الأزقة المحازية له، كان الظلام قد حلّ فأين ذهب في مثل هذا الوقت؟ وبعد صولات من البحث وجد أقدامه تجره نحو شارع الأكواش. أخذ يذرع الطرقات إلى أن وصل إلى الزقاق الذي وجده فيه منذ أشهر. دخل الزقاق والظلام الدامس يهيمن عليه، فهتف:

- عبد السلام، عبد السلام

وبعد القليل من الخطو، رآه يجلس مستندا على الحائط ونور القمر الخفيض يداعب قسماته الخمرية، دنا منه وقال موبخا:

- ماذا تفعل هنا؟

لم يحرك الصبي ساكنا بملامحه المنكسرة وقال بصوت ممتلئ بحشرجات بكاء:

- إنّ هذا المكان الذي أنتمي إليه

جلس إبراهيم بجواره مستندا على الحائط ثم قال بحزم:

- المكان الذي تنتمي إليه هو المنزل بجواري

ثم أردف قائلا:

- ماذا حدث؟ لماذا لم تعد إلى المنزل؟

لم يتكلم عبد السلام، فأضاف:

- تركت أمي والدموع على خديها...

- لم أنوِ أن آتي إلى هنا بإرادتي ولكن...

- ماذا حدث؟

- لقد ضربت أحدهم في الكُتّاب

- لماذا؟

صمت عبد السلام قليلًا ثم قال:

- نعتني بابن الزانية... وأضاف صديقه: يا ابن الحرام

ثم أردف باكيا:

- هل حقا أنا ابن حرام؟

- لا، أنت عبد السلام إبراهيم بن عمر، حفيد كاتب باشا، وأيّ شخص يقول غير ذلك ليذهب إلى جهنم الحمراء.

قال عبد السلام بشجن بريء:

- كنت أستطيع أن أهشّم رأسه هو ورفاقه، بل كلّ من في الكُتاب... لكنّني لم أفعل ذلك.

مد إبراهيم ذراعه، وأخده في طوقه ثم قال:

- كل هذا سيمضي لا تقلق، الأهم من ذلك أنك قد أصبحت جزءًا من العائلة، وهذه العائلة لا تستطيع أن تستغني عنك...

ذرف الدموع رغما عنه وقال بحزن:

- إنّني أكره هذا المكان يا إبراهيم، أمقت حياتي القديمة ولكن بعد ما قاله الفتى وضحك البقيّة ساخرين، لم أجد مكانا غيره أذهب إلي.

أشار بسبابته نحو القمامة المتراكمة:

- هل ترى ركام القمامة تلك؟ كانت مخبأي من الجميع.

خيّم الصمت في الظلام، رغم تدافع الدماء بصورة رهيبة في جسديهما، توقفت النجوم عن تناحرها في كبد السماء وسكنت لتمهد لكلمات إبراهيم الشجية:

- حين رأيتك أول مرة في السوق لا أعلم ماذا فعلت بي، لكنّني أظن أنّني قد وجدت القليل مما كسر بداخلي، أنت ابني يا عبد السلام الّذي لم تنجبه زوجتي الفقيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما هو حاله منذ أن رحلت، أتى وأفضى بكل خواطره للوحيدة الّتي وهبها قلبه ولكنّها باتت خامدة تحت الثرى، خرج من المقبرة بجسده فقط، أمّا روحه فهي في بقعة أخرى؛ بقعة في قلب السماء، أو ربّما في باطن الصحراء، أو قاع البحر. قطع سرحانه الذي أصبح متزايد الشيخ زاهر وهو يرتدي جرده الأبيض ويعتمر طاقية سوداء، قد بدا عمره الّذي تجاوز الستين في ملامحه الشاحبة

- إبراهيم!

دنا إبراهيم من شيخه مسرعًا وقبل يده بأدب وقال:

- كيف حالك يا شيخي؟

قال الشيخ الهرم وسعاله يشتدّ عليه:

- الحمد الله يا ولدي، قل لي ما حالك أنت... فإنّني أراك حزينا ومهموما على غير العادة.

- إنّها الدنيا يا شيخي

- إذًا ضاقت بك يا ولدي قل: ربي إنّي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين

صمت إبراهيم قليلًا وقال في نفسه: بأن الله قد بعثه له لينتشله من سواده. فقال بهدوء:

- ما أخبار عبد السلام يا شيخي؟ هل...

بتر كلماته عندما رأى ملامح شيخه، فأجاب الشيخ:

- لم أكن أريد أن أقول لك الآن لكنّك أنت من سأل يا ولدي، إنّ عبد السلام مفصولٌ من الكُتّاب... قد جربت معه كل الطرق المعتادة التي تأدّبت بها أنت والجميع، لكن الفلقة لا تأثير لها مع هذا الصبي، إنه لا يعرف معنى الألم يا سبحان الله، ذكي صحيح ويحفظ بسرعة لكن ينقصه الانضباط

أردف الشيخ بعد أن أخذ أنفاسه:

- كل يوم يضرب أحدا من الطلّاب والشّكاوي تصلني عليه بلا انقطاع، فقل لي يا ولدي هل فعلتُ غير الصواب؟

- حاش لِلّه أن تفعل غير الصواب يا سيدنا... لكنّني رجوت من الله أن يحفظ القرآن، وإن قام بهذا معك فلن يستقيم الأمر مع معلم آخر...

- لعله خير، الولد ذو قوّة، شغَله معك خير من أن يستعملها فيما يضر.

قبّل رأس شيخه واستأذنه، وذرع الشّارع بسرعة مبتعدًا، دخل منزلهم وهو يتصبّب عرقًا، ولج الفناء فلم يجده، فدخل غرفته مسرعًا، كان عبد السلام يجلس على درج السدّة يحدق في الباب وكأنه ينتظر رجوعه منذ وقت، قال إبراهيم بصرامة :

- ما الّذي فعلته يا عبد السلام؟ لماذا تفعل هذا بي وبك؟

بقيت عيناه معلّقتين به لكنه لم يجب، دنا إبراهيم منه وقال:

- إنّني أسمعك

- لقد ضربت أحدهم مرة أخرى، لكن ما قاله هذه المرة مختلف، صلحت له خطأه في التلاوة فنعتني بابن الباغية... ابن الباغية إنّها جديدة أليس كذلك؟

- أخبر الشيخ بذلك، لماذا تستعمل يديك؟

- نعم أخبره مثل الفتاة التي لا تستطيع أن تأخذ حقّها بنفسها

ثم أردَف بغضب:

- لقد قلت لك أنّني لا أصلح في هذا

قال إبراهيم بأسى:

- قد حطّمت آمالي بك

صمت وطأطأ رأسه خجلًا، فأكمل إبراهيم:

- لقد حيرتني معك يا فتى أقسم لك

هيمن الصمت لِلحظات، قبل أن يقول إبراهيم بنفاد صبره:

- بما أنّك تحب أن تستعمل يديك في كل شيء، من الغد ستباشر عملك معي في الدكان، وأقسم لك إن لم تتعلم بسرعة، سأكسّرهما لك.. مفهوم.

مضى عبد السلام لعمله وقد أثبت مهارته منذ الأيام الأولى، رغم صغر سنه وحداثة عهده، فتوالت الأيام بيسرٍ ودون أيّ منغّصات، فهنِأت عائلة بن عمر براحة شبيهة بتلك التي سبِقت الموت الأسود.

إِن كُنتَ تَبغي جِنانَ الخُلدِ تَسكُنُها

فَيَنبَغي لَكَ أَن لا تَأمَنَ النارا

(٣٠)

يوليو، ١٧٩٠

سُمِع صوت حركة فضة على بلاط الفناء. أنصت لهمهمات مكتومة، دوى صوت أقفال الباب ثم عاد الفجر لسكُونه. استيقظ إبراهيم وقلّب نظره في غرفته المظلمة، وثب من فراشه وخرج من حجرته بحركة متأرجحة وحدّق في أمه الواقفة في الفناء باستغراب وقال:

- صباح الخير يا أمّاه

- صباح النور

أومأ سائلًا:

- ماذا هناك؟

تنهدت قائلة بتحيّر:

- لقد جاء رجل من السرايا واستدعى أباك، وقد سمعت الرّجل يقول إن البك حسن مات أو شيءٌ من هذا القبيل

- البك حسن؟

طرد ما جال في خاطره من تساؤل ودخل غرفة الكتب، حدق في العناوين للحظات طويلة، ثم أدرك سبب دخوله، مدّ قبضته نحو خلاصة الكلام وميزان الألباب، جلس على المصطبة وراح يطالع ما خطّته يداه منذ ردحٍ من الزمن.

خرج من الغرفة وأوصد بابها وأذان الفجر يعلو، توضأ ثم سار نحو غرفة عبد السلام، طرق الباب ثلاثا ودخل هاتِفا:

- عبد السلام هيّا قم للصلاة، انهض يا ولد

فتح الفتى عينيه ببطءٍ، أطلق آهات كسلٍ بصوته الذي أعلن بلوغه فقد تجاوز السادسة عشر عاما، فتبدّل الصبي الأسمر الودود لشاب ذو شارب خفيف فارع الجسد.

ارتدى إبراهيم المعتاد من ملبسه، خطا خارجًا وهو يعدّل طاقيته في حين كان عبد السلام يركض خارجًا من المطبخ وهو يلوّك بعض كعك بائتٍ قد وجده.. خرجا وذرعا طريقهما المعتاد، وصلا المسجد وصلّيا فرضهما وعندما انفضّ الجمع قطعا طريقهما لمخبز الحاج بلعيد الذي لا يفصله الكثير عن المسجد، ابتاعا الخبز السّاخن ولعاب عبد السلام يسيل من فرط الجوع . وفدا المنزل وأوّل خيوط النهار قد أطلت، أعدّت خديجة الإفطار بمساعدة عبدتها سعدية ووضعته تحت العريشة منتظرةً أبناءها، امتلأت الطاولة بالأطباق بين البسيسة والزمّيطة والبيض المطبوخ والمقلي والطماطم والخيار المملح، علاوة على الزيتون المسلاتي الّذي جلبه سعيد منذ أيام، وانتهى كل ذلك بإبريق شايٍ ينفث بخاره الكثيف، فبات مظهره أقرب لبركان محموم، رمق إبراهيم المائدة وقال متهكما:

- ماذا قال عبد السلام بالضّبط عندما دخل المطبخ؟

بش وجه خديجة وهي تنظر لعبد السلام الّذي شرع في تناول الإفطار بنفاد صبرٍ فقالت:

- قال لي إنه جائع

- فتقومي بكل هذا؟

قهقه عبد السلام وهو يقول:

- هل نسمي هذه غيرة؟ أم ماذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان غروب الشمس ما انتظره إبراهيم، فقد انقضى اليوم وهو يسمع كلاما ينافي بعضه، فقال البعض إنّ يوسف قتل البك حسن وأحمد، وسمع من جمال أنّ يوسف قد فرّ من طرابلس بعد أن قتل البك وأطفاله، أمّا عن حسن فقد قال كما سمع من أحدهم أنّ البك لم يمت، بل قام بهذه الخطة ليعرف مناصريه. اختلفت الأقاويل والحادث واحد، دخلا البيت بعد أن صلّيا المغرب في طريق عودتهما وإبّانها خرج سعيد من الكنيف بعد أن أفرغ مثانته الّتي شابهت يومه. دنا إبراهيم من أبيه وقبّل يده، جلسا بجوار النّافورة، وقال سائلًا:

- ما الذي حدث؟

- البك قد قتل على يد أخيه يوسف.

- نعم قد انتشر الخبر.

- لقد طلب يوسف من البك حسن رحمه الله، لقاء ليحلّا ما بينهما من خلاف وكان هذا بوساطة من اللالة الكبيرة وفي حجرتها كان اللّقاء، جُرِّد كلا الأخوين من سلاحهما بحضور أمّهما وطلب يوسف من أخيه الأكبر السماح وأنّ ما بينهما قد انفضّ وليثبت له حُسن نواياه سيحلفان على المصحف...

و هنا كان الغدر، طلب يوسف من خادمه المصحف فأتى به ملفوفا بقطة قماش، وعندما أمسك يوسف المصحف من خادمه حيث كان المسدّسان مخبّئين أسفله.. أطلق يوسف النار فأصيب البك في كتفه وتلقّت اللالة بعض الشّظايا في يدها، أطلق الغادر النّار مرّة أخرى فسقط البك يلفظ أنفاسه الأخيرة، وليس هذا فقط بل أطلق عبيده ليَجهروا عليه بأسلحتهم.

أخذ أنفاسه ثم أردف باشمئزاز:

- قد شوهت جثّته، عندما رأيته لم أعرفه من فرط ما قاموا به، إحدى عشر طلقةً في رأسه وثلاثةً في يده اليمنى وسبعة في جانبه... ما هذا الإجرام؟

- وأين يوسف الآن؟ والباشا ماذا فعل؟

- لقد فرّ من طرابلس وقيل إنّه متّخذ لمزرعة الباشا في المنشية ملاذا له . أمّا عن الباشا فلم أره بهذا الضعف من قبل، بل لم أر إنسانا بهذا الوهن من قبل، لم يحرك ساكنا وهو يرى جسد ابنه ووريثه بهذا الشكل.

ثم أضاف بذبول:

- لم يتوقف يوسف بقتل البك فقط، بل قتل الكخيا الكبير وهو في طريق خروجه طعنا، وقد عُيّنت أنا مكانه.

أتهزَأ بِالدَعاءِ وَتزدَريهِ

وَما تَدري بِما صَنَعَ الدُّعاءُ

(٣١)

قد خلت السّماء من أي تعبير في الظلام القاتم، أفل هلال متزايد في الأفق حارمًا أحبابه على الأرض من نوره الخافت، هبّت نسمة هواءٍ لطيفة إبّان الصمت والهدوء وكل من في المنزل غاطّين في نومهم، عبد السلام قد قضى يوما منهكا بصحبة أصدقائه في الحيّ، وسعيد مسلّم نفسه لأحلامه وهو يزداد إرهاقا بعد أن استلم منصبه الجديد، قد اقتنع منذ فترة وجيزة بأنّ كلام ابنه صحيح ويجب عليه أن يترك المستنقع القذر، لكن لم يجرُؤ علي البوح بشيء، أمّا خديجة فضجعت بجوار زوجها في خفوت تهيم بتزويج ابنيها حتّى في نومها. تقلّب إبراهيم في نومه، لكن هذه الليلة لم تزره محبوبة على غير العادة فغط في نومٍ زائف دون أيّة أحلام تسعده أو تكمده.

دوت طرقات الباب فجأة، تلاشت وسط الصمت للحظات ثم عادت من جديد، لم يمض الكثير حتى استيقظ إبراهيم ذو النوم الخفيف، ترنّح مشيا نحو الباب، قد توجّسه القلق من زائرٍ في مثل هذا الوقت، أهلّت سعدية عندما وصل للسقيفة فأشار إليها بالرجوع إلى مضجعها، فتح البابَ وحدّق أمامه بعينين يملأها الخمول... وبعد برهة قد توارى الخمول وانقلبت ملامحه وهو يهتف مهلهلًا:

- مولانا!

كذّب نفسه في بدء الأمر وظن أنه يحلم، لكن الشيخ ضياء الدين القرطبي كان يقف أمامه بثوبه الصّوفي البالي وعمامته الخضراء الكبيرة، ارتمى في حضن شيخه وقبل يده، وهو يهتف:

- الحمد الله على السلامة يا سيدي

ربّت ضياء الدين على ساعد إبراهيم وابتسم قائلًا:

- الله يسلمك يا بني

ثم أردف بصوته الوامق:

- لم يكن عليّ المجيء في هذا الوقت، لكن وجدت من يقطن بمنزلي

أشرع إبراهيم الباب وهو يقول:

- ادخل وارتح يا سيدي والصّباح رباح

ولج ضياء الدين من الباب ثم دخل المربوعة، أتى إبراهيم بوسادةٍ ولحاف، وجعل سعدية تعد له طعاما خفيفا، فأكل الشيخ ثم أغمض عينيه مسلما نفسه للنوم. بقي إبراهيم ينظر لشيخه وهو غافٍ، حائرٌ في أمره وغيابه الذي طال.. لم يستوعب ما حدث بل لا زال يشك بأنّه في حلم وسيستيقظ منه قريبا، قلب الكثير من الأمور وهو يرنو للشيخ بتمعّن إلى أن كرى هو أيضًا دون أن يشعر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادوا من المسجد جماعة، جلسوا في المربوعة وعلى سفرة الإفطار كان الحديث، سأل سعيد وهو يقضم طعامه:

- أين ذهبت يا سيدنا؟ ولماذا اختفيت فجأة؟

أجاب الشيخ ضياء الدين وهو ينظر لإبراهيم:

- والله كان يحزنني أن أرحل من دون أن أرى الأحباب، لكن أمر الله نافذٌ.. وجدت نفسي خارج طرابلس في غمضة عين بأمر منه سبحانه

قال إبراهيم بتلهف:

- إلى أين يا مولانا؟

- اتجهت غربا دون أن أعرف السّبب، حللت بالقيروان ثم تونس ثم عنابة وعندما وصلت لبجاية أقمت بها ردحا.

- كيف رحلت من هنا؟ وبصحبة من؟

- قد سخر الله لي طريقي، اشتريت بما لدي من مالٍ دابّة، سرت بها بمفردي إلى أن وجدت قافلة متّجهة نحو القيروان فانضممت لها، ثم إلى أخرى وأخرى حتى وفدت بجاية.

قال عبد السلام مندهشا:

- ولمَ يا مولانا؟

- للحج.

قال إبراهيم وسعيد باندهاش:

- الحج؟

- قد سخر الله طريقي غربا وليس شرقا، فما كان لي سوى طاعة أمره سبحانه

ثم أردف:

- قد كتب الله لي أن أحج بصحبة رجل صالح من أهل شنقيط ([28])، لا أعرفه ولا يعرفني، فكان اللقاء في بجاية لنحجّ لبيت الله الحرام

- كيف تعرفتما يا سيدي؟

- قد حلمت به منذ أن كنت في طرابلس وبموعد لقائنا ومكان لقائنا، وطوال طريقي تردّد عليّ ذات الحلم، وعندما التقيت به قال لي أنه راوده ذات الشيء.

- ثم ماذا؟

- ركبت أنا ويزيد بن الأصفري البحر حتى وصلنا إلى الإسكندرية ومنها لدمياط، فقاهرة المعز، ثم تابعنا سفرنا في النيل إلى أسوان فعبرنا البحر، ومنها أبحرنا إلى جدّة وبعد ذلك إلى الأرض الطاهرة،

بقينا في مكة مستظلين بظل الحرم حتى آتى وقت الحج، فحججنا وأقمنا مناسكنا...

اعتدل الشيخ في جلسته وأضاف:

- حينما انتهينا من حجّنا، أخذ سبحانه أمانته من عبده الصالح يزيد فدفن في مكة بجوار الصالحين، توفّته المنية في المكان الذي حلم أن يذهب إليه لمدة خمسين عاما، بعد أن غاب صاحبي بقيت بمكة أقيم دروسي وأعلم تلاميذي حتى أتى أمر الله بأن أعود لطرابلس، بعد أن ذهبت إلى دمشق وفلسطين ثم حللت بمصر أم البلاد ردحا من الزمن، وكل ذلك كان بتسهيل من المولى... وها أنا هنا بكامل صحتي بعد أن منّ الله عليّ بزيارة بيته المبارك والترحال في أرضه الواسعة.

سِهامُ اللَيلِ لا تُخطِي وَلَكِن

لَها أَمَدٌ وَلِلأَمَدِ اِنقِضاءُ

(٣٢)

في ليلة لا قمر فيها أصيبت نجيمة جدة إبراهيم بمرض يسمى داء النقطة، فشلت حركتها وتزايد ألمها إلى أن وافتها المنيّة في ليلة سخماء، أقيم العزاء وتوافد الناس لمواساة الحاج الهادي على فقيدته، أصيبت العائلة بأسرها بالحزن لرحيل العجوز الحنونة وأكثرهم حزنا كانت خديجة، فتأجّجت بالأسود حتى نست غيره من الألوان، شحب وجهها ونَحل جسدها بعد أن انقطعت عن الطعام. ويوم الجنازة أعتقت سعدية رحمةً على أمها الراحلة، فهاجرت سعدية وسط شجن قد أسرها وكأنها ذاهبة نحو العبودية لا العكس، حملت أغراضها القليلة وودّعت أسيادها الذين عاشت في كنفهم ردحا من الزمن، قامت بالواجب وانتحبت في بيت العزاء إلى أن بحّ صوتها، ثم اختفت وفقد أثرها كأنما لم تدس قدميها هذه الأرض يوما، فقد البيت البعض منه برحيل السمراء الطيبة، لكن كل هذا لا يهم بوجود الشيخ ضياء الدين الّذي استقر في منزل الراحل عبد الله بن عمر، أثار الشيخ الواهن لبّ عبد السلام بتصرفاته الغريبة وبكلماته العجيبة. فأصبح يصحو قبل الجميع ومنذ الفجر يكون بين يدي الشّيخ، تبدّل عبد السلام الّذي ينام حتى يأتي إبراهيم إلى شخص آخر، فمن بكرة الصباح يباشر في تنظيف بيت مولانا ويروي الورود والشجيرات الصغيرة الّتي زرعها بيده في الفناء فأحبّها الشيخ، ومن فرط اهتمامه قال له الشيخ ذات صباح:

- ألا تتعب يا ولد؟

- لا أتعب في خدمتك يا سيدي

- أسأل الله أن ينظر إليك ويباهي بك ملائكته ويقول (إني أحببت عبدي فأحبوه)

وفي غضون أيّام عرف الفتى أطباع الشيخ، ما يحب وما يكره، وسأله ذات مرة:

- أين أولادك يا مولانا أو أقاربك؟

تأمل الشيخ العجوز السؤال ثم قال:

- يقول البعض أنّنا من قرطبة حقا، ترحّل أبي غربا بمفرده دون أحد من أقاربه، ومن أين أو إلى أين لا يعلم إلا الله، حلّ بكثير من البلاد حتى استقر في طرابلس أخيرا وولدت أنا هنا، كنا لديّ أخوين

وآخت كبروني سنا، عندما أنجَبتني أمّي كنت ضعيفا وقال البعض إنّني سأموت خلال ساعات قليلة ولكن الله قد نجّاني، لم أتم عامي الأول بعد فأراد الله أن يضم والدي وأخوتي في يوم واحد، كان أبي قد قرّر الرحيل شرقا مرة أخرى بعد أن حل بطرابلس لسنوات، قرر أن يركب البحر إلى الإسكندرية وقد فعل، وأثناء ترحلنا هبت عاصفة والله يعلم بما حدث بالضبط حينها، فغرقت السفينة وأراد الله أن ينجيني مرة أخرة، ولا أحد يعرف كيف استطعت أن أنجو بين جميع الركّاب، تنقلت بين الأيادي حتى وصلت إلى يد العبدة الصالحة زهرة الأكرمي، لم يكن لديها أبناء فاتخذتني ابنًا لها...

- ولم تتزوج يا مولانا؟

- بلى تزوجت ورزقت بصبيةٍ وبنات... لكن الله أراد أن يضمهم إليه، فلم أتزوج مرة أخرى .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سارت الأيام وتبدلت معه الأحوال لكن ضياء الدين وتلميذه لم يتغيّبا عن صلاة الجماعة قطّ. وفي إحدى مواقيت الصلاة أمسك عبد السلام يد شيخه ليساعده على المشي، فحدق الشيخ في الطريق باستغراب وقال:

- ما بال الشوارع هكذا يا عبد السلام؟

- أنت لم ترَ شيئا يا شيخي، البلاد قاربت على الجنون، الكل هلعون، الشرطة في كل مكان والحراسة مشدّدة على الأبواب، والمنشية أكثر هلعا من هنا.

- لمَ كل هذا؟

- يوسف القرمانلي ابن الباشا أعلن العصيان على أبيه وهو الآن يجمع القبائل المتمردة ليهجم على الباشا وأخيه البك

- وأين حلّ هذا الملعون؟

- يقولون إنّه اتخذ قصر أحمد الكبير الذي في المنشية مركزا له.

ثم أردف:

- ويقولون أيضًا، أنه جمع عددا كبيرا من المرتزقة وعددا من القبائل، ووعد بالهلاك لكل من يقف بجوار الباشا والبك... لقد قاموا بمجازِرَ و انتهكوا الأعراض في المنشيّة وما حولها، والنّاس هنا خائِفون أن يذوقوا المثل، خصوصا بعدَ أن وعد رجاله باستباحة المدينة لهم.

- من أين علمت بكل هذا يا ولد؟

- الدّكان يأتيك بأخبار السند والهند إن أردت يا مولانا.

وَمَن هابَ الرِجالَ تَهَيَّبوهُ

وَمَن حَقَّرَ الرِجالَ فَلَن يُهابا

حزم سعيد أوراقه المتناثرة على المصطبة والقلق يعتمره كما هو حاله منذ أيام، وزَع الأوراق على المجلدات الجلدية التي تحرس الكثير من خفية الحكم . وقبل أن يودِعها أماكنها راح يلقي نظرة أخيرةً على بعضها، متمنيا أن تختفي بعض الكلمات المسطورة، ليحد من جزعه المحموم، كتب في الورقة الأولى:

سيطر الضال على قصر أحمد الكبير في المنشية، واتخذه مقرا له، لقيادة مجموعة البغاة الّذين جمعهم لاغتصاب العرش...

وضعها في مكانها وراح يطالع الورقة الّتي تلتها:

تتكون مجموعة المخربين من القبائل التي تمردت في العصيان السابق وأخدم ثورتهم البك الراحل، وبعض قطاع الطرق والمرتزقة...

وضعها هي أيضًا، وعقبها بأخرى:

قد سقطت المنشية في قبضة الضال بكل سهولة. بعد أن أسر قائد حرس المنشية غدرا. وبهذا أصبحت المدينة في حالة شحاح المواد بفقد مصدر الغذاء. قد سفك مرتزقة الضّال الكثير من الجرائم الشنيعة، انتهكوا الأعراض، واغتصبوا الحقوق، ولم تسلم مزرعة من أيديهم الغادرة، بالإضافة لأسر عدد من سكان المدينة الآمنين الّذين كانوا يقضون فترة راحتهم في الريف...

أودعها هي أيضًا مكانها، وقد تراجع عن أمر المطالعة التعيسة. تحرك ببطء باتجاه النافذة ليلقي نظرة، كانت النافذة عالية الارتفاع تطلّ على الناحية الشرقية للقصر وبفضل موقعها أتيح له رؤية الحصار الذي فُرض على المدينة منذ أسابيع، كانت الخيم منتشرة على مدّ البصر وكان مظهر المتمردين أشبه بالبراغيث من الأعلى، فترامت الحواجز والثّكنات والمتاريس على مقربة من الأسوار، حاولوا منذ يومهم الأول اختراق الأسوار لكنّهم لم يستطيعوا، بفضل الأسوار العالية والجنود المتمركزين أعلاها أمّا عن فوهات المدافع فقد أثبتت نفسها وبجدارة في وقت الشدة، بالقيادة المحنّكة لها، لم تتوقف الاشتباكات لمدة أيام رغم انحدار قوتها في الأيام الأخيرة، وبات ذوو المدافع جزءًا من واقعهم منذ أسابيع. حدّق سعيد في المباني التي هطلت عليها القذائف فتساقطت حجارتها خائرة القوّة وحالها حال الكثير من البقاع الّتي بالقرب من مواقع الاشتباكات، عاد بنظره إلى السهل الذي يقبع خلف الأسوار، في ذات المكان المسالم الذي يعرفه منذ صباه وقعت الأرواح وسفكت الدماء، أغمض عينه وتذكّر ما حدث منذ بضعة أيام.

العين قد غربت فخلفت وراءها الظلام، فجأةً وبدون مقدمات راحت البنادق والمدافع تدوي، ركض الكخيا الذي لا حول له ولا قوة في لغة البنادق والسيوف نحو النافذة، رأى مجموعةً من الجنود تخرج باتجاه قوات يوسف، دام القتال بين الطرفين طويلًا بالبنادق والسيوف بل حتّى بالحجارة، لم يدرك سعيد حينها ما يحدث لكنّه عرف الخبايا بعد ذلك، كانت المجموعة الّتي خرجت مكونة من ستّين جنديا بقيادة ضابط يسمى بوسنينة، خرجت المجوعة دون أيّة أوامر بعد أن أثار حماسهم بوسنينة بخطاب عريض بما قامت به قوات يوسف في المنشية وأهلها، فخرج ستون جنديا ببسالة لمواجهة الأعداء لكن للأسف قد لقوا حتفهم جميعًا وارتوى السهل بدمائهم.

حمل سعيد نفسه بصعوبة بالغة وهو يزداد إرهاقا يوما بعد يوم وسط أجواء السّرايا المشحونة. خرج من غرفته الرّحبة الّتي تقبع في البرج العالي حيث تتواجد في قمتها مقصورة الباشا التي تأتي سيرتها على كل لسان في طرابلس لجمالها، قطع الممر الصغير الذي ينتهي بسلالم رخامية متجها نحو قاعة العرش فقد أتاه وكيل الباشا منذ لحظات وأعلمه بأنّ الباشا في طريقه إلى هناك.

- سعيد أفندي

نطق بها الآغا مراد بأسلوبه الرسمي وهو متوشّح زيه العسكري البهي، لكنه خلا من مسدسه وسيفه المعتاد فقد أمر الباشا بعدم التسلّح في قاعة العرش أو في جناحه منذ أن قتل البك حسن، فاضطر الآغا الكرغلي على الأحجام على التسلّح مرغما. هز سعيد رأسه احتراما وقال بكياسة:

- مراد آغا

ثم أردف بخفّة وهما يكملان السير باتجاه الفناء:

- طمئنّا على دفعاتنا يا آغا

- لا تخف فلن يستطيع الضال ومرتزقته اختراق الأسوار أبدا

أومأ الكخيا برأسه ثم قال:

- في الحقيقة أنا أخاف أن نموت جوعا في ظل هذا الصمود.

اجتازا الفناء الكبير الذي زُرِعت فيه أنواعٌ كثيرة من الأشجار والورود الغريبة منها والجميلة، صعدا السلم الرخامي ثم دخلا الرَدهة المكتسية بالبياض حيث تواجد الكثير من الضبّاط والمستشارين، ولجوا جميعًا القاعة، ولم يمض الكثير حتى دوى صوت شاويش الباشا الجهور:

- مولانا علي باشا بن محمد بن أحمد القرمانلي، حاكم البلاد وراعي العباد، حفظه الله ورعاه..

كان الشاويش أوّل العابرين للقاعة ثم تبعه عدد من المماليك الأشدّة الذين يرافقون الباشا حيثما ذهب، دخل علي باشا الذي نهشه المرض من كل صوب. تقدم الباشا نحو كرسيه فانحنى كل الموجودين احتراما له

- ما وضع دفعاتنا

قالها الباشا الواهن بفظاظة على غير العادة، فأجابه البك ابنه بسرعة قبل الجميع:

- لقد أوصدنا المداخل بشكل محكم وانتشر جنودنا على الأسوار لإخماد أي تقدم، وإلى الآن لم يستطيعوا أن يحرزوا أيّ تقدم.

ارتسمت ملامح سخرية على قسمات الباشا الجريح فقال:

- إن هذا معروف حتى للصبية الذين يجوبون الشوارع

تدخل محمد بن مرة أحد أهم التجّار في طرابلس بلياقة:

- وإلى متى سنبقى ننتظر هكذا؟ والضال يطبق على أنفاسنا

أجاب الآغا مراد عواض على البك بعد أن أومأ برأسه له

- كما تعلمون أن يوسف قد جمع القبائل المتمردة وجمع الكثير من المرتزقة كذلك، وبوضعنا هذا لا نستطع أن نخاطر ونقابلهم في أرض مفتوحة.

قال البك بعد أن مهّد له مراد المطيع الحديث ليكمل هو:

- وكما يعلم السيد والدي والبعض هنا، أننا ننتظر الرجال من القبائل الموالية لنا وهم في الطريق بعد حالة النفير الّتي أعلنّاها...

ثم حدق في سعيد ليكمل هو، فقال سعيد بوهن:

- ولقد أرسلنا العديد من الرسائل إلى الباب العالي ليزودونا بالعتاد والغذاء الّذي نحتاجه.

قال الباشا بتسلم:

- النوائل في الطريق، فمن أين سندفع لهم؟

أجاب الخازندار ([29]) الذي يجلس مقابل سعيد بثابت:

- قد تكلمت مع حضرة البك مسبقا عن حالتنا المحزنة، ووصلنا إلى حل اضطراري، وهو الاقتراض

تردّد على ألسنة بعض الجالسين:

- الاقتراض؟

فاستردك الخازندار نفسه وقال:

- اعلموا أيّها السادة أن ديوننا كثيرة، لكن لا وجود لحل آخر

- وأنا على استعداد لإقراض الخزينة كما اتّفقت مع البك

كان المتكلم إسحاق حامون، أمين دكة اليهود وأبرز أعيان الطائفة اليهودية في طرابلس

قال الباشا بعد أن زفر بقوة:

- ما وضع الأسواق وسير الحياة في الشوارع بعد تدفق الأعراب داخل الأسوار؟

تردد الوزير عبد العليم في التكلم بعد أن رأى نظرة البك المهدّدة، فجمع لمام نفسه بصعوبة وقال:

- الوضع جيد إلى حدٍ معقول يا مولاي

كان سعيدٌ ضائعا بين الحشد الّذين لا يشبهونه، وقد أصبح يوما عن يوم يدرك أنّه وقع في مستنقع قذر ويجب عليه الخروج منه، عمّ الصمت لبرهة قبل أن يعلو صوت الحق؛ صوت القاضي حسن بن سليمان:

- يبدو أن امتداد المرتزقة قد وصل للبلاط أيضًا، عن أيّ وضع جيد تتحدث يا محترم؟ عن الجوع الذي فتك بالناس؟ نعم، نسيت أنّك تعيش ببركة السرايا وتأكل ما لذّ وطاب من خزينة القلعة الّتي لا

تنتهي.

حملق القاضي حسن في الجالسين برجاء ثم أردف:

- خافوا الله في العباد، الأسعار قد أصبحت أربعة أضعاف أو أكثر، اللحم قد اختفى من الأسواق والخضار قارب على النفاد، الناس تتضور جوعا، المرتزقة الذين تسمونهم أعراب هم أيضًا لم يفعلوا طيبا بالعباد، افتحوا الأبواب وضعوا حدًا لهذه المهزلة.

قال البك وقد ظهر عدم الارتياح على قسماته بوضوح:

- يا حضرة القاضي...

قاطعه القاضي موبخا إياه مثل طفل صغير:

- اصمت أنت، إنّني أكلّم أباك

نهض القاضي ذو الستين عاما أو يزيد على قدميه وخاطب الباشا:

- اتّق الله في العباد، والله من الأفضل أن أبقى في بيتي حتّى يأتيني اليقين على أن أشارك في هذه المهزلة

قال الأغا مراد مرتبكًا:

- إن حضرة الباشا والبك لن ينسيا لك هذا الكلام

- وإذا نسيا كن لهما كلبا مطيعا وذكرهما...

استدار وخرج من القاعة دون أيّ انحناءات أو كياسة كاذبة، ابتُلعت كل الألسنة، وخيّم على القاعة الصمت، في حين كانت الفرحة تتراقص في طاوية سعيد بعد أن سمع ما لم يقدر على النطق به.

مِحَنُ الزَمانِ كَثيرَةٌ لا تَنقَضي

وَسُرورُهُ يَأتيكَ كالأَعيادِ

(٣٤)

- كيف حاله الآن؟

قالها إبراهيم وأصوات إطلاق النّار يدوي في الأفق البعيد، أجابه عبد السلام مكفهر الوجه:

- إنه ليس في أفضل حالاته

دخل إبراهيم غرفة شيخه وجثا حيث يستلقي ضياء الدين، كان الشيخ العليل متجرّدا من عمامته، مضطجعا مسلّما نفسه لأوجاعه، حاول إخفاء تألّمه كما برع أن يفعل طوال سنين حياته الطويلة لكنّه لم يقدر، قال الشيخ بوهن:

- ما بك يا ولدي؟

حاول إبراهيم أن يهدّئ من روعه فقال كاذبا:

- لا شيء يا سيدي

- ادنُ مني...

دنا إبراهيم فمدّ الشيخ يده الهزيلة بلطف نحو وجهه، راح يتحسس قسماته، وعيناه غارقتان بالدّموع، أمسك إبراهيم يد معلمه وقبلها. فقال ضياء الدين بصوت واهن:

- لا تترك نفسك للشيطان يعتليها... وإياك أن تتجبر في الأرض يا ابن خديجة...

نظر ضياء الدين لعبد السلام وقال:

- هلم إليّ يا ولد

تقدم عبد السلام وجثا بجوار إبراهيم، فأكمل مولانا:

- اقترب أريد أن أقول لك شيئا في أذنك

اقترب الفتى وهمس الشيخ، تغيّرت ملامحه فجأة وكأنّه قد صُعق ببرق، اضطرب عبد السلام وأبحرت روحه في بحر لا ينتهي، لطمته الأمواج العاتية من كل صوب. ثم قال الشيخ:

- اخرجا.. أريد ان أبقى بمفردي

خرجا من الغرفة كما أمر شيخهما. فجلس إبراهيم على مصطبة في الفناء، واتكأ عبد السلام على سور البِركة.. لم يرحل الاضطراب عنه فبقِي صامتا كالملموس، حدجه إبراهيم بنظرة طويلة ثم قال بتردّد:

- ماذا قال لك مولانا؟

أتى الجواب متأخرا وبفتور:

- لم يقل شيئا

حلّ المغرب وارتفع نداء الصلاة، قال الشيخ ضياء بأنّه يريد الذّهاب للصلاة فالمسجد، رفضا في البداية لكنّه لم يعدِل عن رأيه رغم وعكته الشّديدة فأسنداه وذهبا به إلى المسجد، كانت العتمة في طريقها للهيمنة، ولم يخلُ الجو من أصوت الاشتباكات البعيدة، اصطفّ المصلون للصلاة، تقدّم الإمام وشرع في صلاته، رتل آيات بينات من سورة الأنعام تقشعر لها الأبدان، انتقل إبراهيم لعالم آخر خاشعا في حضرة المولى، وانتقل الشيخ ضياء الدين بجوار ربه في الركعة الأخيرة من الصلاة خاشعا زاهد كما كان طيلة حياته. أحسّ إبراهيم بخروج الروح وتأكّد عندما لم يقم شيخه من السجود، فراح يذرف الدموع وهو يتلو التّشهد، سلّم وكانت لحيته قد غرقت بدموعه، اندفع نحو شيخه الصّالح وأسند رأسه عليه، أغلق له عينيه والمصلون يتجمهرون بتزايد، اختلطت الأصوات ومضى كل شيء.. ضمّ سيده له، وراح يردد باكيا:

- إنّا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اغفر لعبدك ضياء الدين، وارفع درجته في المهديّين.

تحسّس قسماته وسرح له لحيته الكثيفة وعقب:

- اللهم آجرني في مصيبتي، اللهم آجرني في مصيبتي.

مَلَكَ الأَكابِرَ فَاِستَرَقَّ رِقابَهُم

وَتَراهُ رِقًّا في يَدِ الأَوغادِ

(٣٥)

زادهم موت الشيخ ضياء الدين جميعًا حزنا وهمّا فوق همّهم، فالحصار الّذي شيده يوسف لا يزال قائما؛ شحّت الأسواق وأغلقت الدّكاكين لأجلٍ غير مسمى وذكّرهم ذلك بأيّام الموت الأسود، لم يحرز الطرفان أيّ تقدم، فبقى الوضع على ما هو عليه؛ مناوشات وكرّ وفرّ، رغم وصول إسناد القبائل المنتظر إلّا أنها لم تغير من موازين القتال شيئا، فبقى الجميع ينتظر متى ستكون المعركة الحقيقة، عندما يلتقي الجيشان في أرضٍ مفتوحة، فلم يخلُ فاهُ كبير أو صغير داخل المدينة المنكوبة من الدعاء بانقضاء غمّهم الذي طال أمده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف بين رجاله بزيّه الفخم المرصع بالمجوهرات ليبث فيهم الروح المعنوية. منذ الصباح وهو يجول أطراف معسكره المترامي بصحبة عبيده وحرّاسه الملازمين، يريد أن يطمئنّ بأنّ التجهيز على أكمل وجه للمعركة الحاسمة، الوطيس الّذي سيخلع أباه و يجلس هو مكانه كما تمنى منذ زمن.

في الشّمس الحارقة التي تشق كبد السماء انتشرت البراغيث على حسب وصف سعيد على مقربة من الأسوار. عُبّأت البنادق بالبارود، وشَحَذْت السيوف والحراب استعدادا لاختراق الأجساد وإراقتها للدماء، صهلت الخيول على أثر جذب سائسيها وأخذ البعض منها يضرب بحوافره الأرض وكأنه يشعر بما سيحدث، كانت ثيابهم مختلفة بشكل لا يوصف، فشكّلوا مظهرا مريبا غير متجانس البتة. لكنهم على الأرجح سيظفرون بالنصر بسبب ما أظهروه من وحشية في المنشية وغيرها من البقاع، دوت الصرخات مكوّنة جوقة تقشعر لها الأبدان تنبه البعيد قبل القريب بالخطر القريب.

هناك من يتشاجر على حصان، وهنالك من أطلق الشّتائم اعتراضا عن الذخائر الذي زود بها، وثمة اثنان يمسكان بتلابيب بعض بسبب طعام أو شراب، كل هذا وأكثر كان يظهر بوضوح من الأسوار العالية والأبراج الشاهقة الّتي يقف الكخيا سعيد في أحدها، حدق بترقّب في البغاء أو أتباع الضال على حد تسمية السرايا لهم، يبعثون الرّهبة في قلب الناظر إليهم لغرابتهم، وكأنّهم قومٌ أتوا من بلادٍ بعيدة تفصلهم عنها بحارٍ لا حصر لها، الطّرف المعاكس لم يختلف عن نظيره بالكثير، فتجهّز على قدم وساق بعد الأوامر الّتي بثّها البك فيهم على ضرورة التّحرك والقتال للحفاظ على أرواح الأبرياء كمًا يزعم، تمركز الجميع في مواقعهم انتظارا للأوامر، الجميع في حالة تأهّب ولا يعرف أحد ما الّذي سيحدث، وأوّلهم الأخوان المتصارعان.

دقّت طبول الحرب، وأصبحت تعلو من النّاحيتين، تهتزّ الطّبول وترن معلنةً الحرب الّتي ستقبض حياة الكثيرين، أغمض سعيد عينيه وطغى على مسمعه ضرب الطبول، وفجأة... انبرت تظهر السّفن في الأفق؛ ظهرت صواريها بوضوح مع اقترابها، وللحظتها أخذت الطبول تتلاشى من أثر المفاجأة، حدّق الكخيا حيث نظر الجميع، فارتفع صوت أحدهم:

- إنها سفن ترفع علم السلطنة... الخليفة قد استجاب لطلبنا

عقبت تلك الصيحات حالة اضطراب لكلا الطّرفين، رغم أن الجنود أخذوا يتراقصون مهللين بالنّصر القريب الّذي بات في صفهم، وإبّان ذلك الهرج كان الكخيا سعيد قد شُلّ من أثر الصدمة، ولم يحرك ساكنا.

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ لَها الفَتى

ذَرعًا وَعِندَ اللهِ مِنها المَخرَجُ

(٣٦)

دخل عبد السلام غرفة الكتب مسرعًا وهو يقول:

- إبراهيم، لن تصدق ماذا يحدث

توقف إبراهيم عن القراءة ووضع الكتب جانبًا، حدجه مرتابا ثم قال:

- ماذا هناك؟

قال عبد السلام بحماس:

- كانت ستدور معركة بين يوسف والبك، لكن فجأة ظهرت سفن الدولة العلية

- أتى دعم الباب العالي إذًا كما كانوا يرجون!؟

ابتسم عبد السلام بمكر وأضاف:

- هذا ما ظنّه الجميع

- ماذا تقصد؟

- نزل الآغا من إحدى السفن وهو يحمل فرمانا من الخليفة بتعيين علي أفندي الجزايرلي والٍ على طرابلس

- ماذا؟

- نعم، وإنهاء حكم الاسرة القرمانلية

ثم أردف بتمعن:

- النّاس تتجمع في ساحة الديوان العظيم، هل نذهب؟

وقف من جلسته من غير أن يجيب، خرج الاثنان من المنزل بسرعة، وصلا الساحة والبلبلة تعصف بالمتجمهرين، اكتظّت الساحة الّتي تضم في جعبتها البئر القديم والديوان العظيم الّذي كان فيما سبق مقر الحكم الفعلي للولاية عندما كانت تحت نفوذ الخلافة العثمانية مباشرة، فغرت الثغور وتحاجّت الأقاويل، كلٌ من الحاضرين يدلي برأيه فيما يحدث، كان البعض يشتم ويندد بما يحدث، والبعض

الآخر قلق على أسرته ورزقه، اختلفت الأحكام والواقع واحد. جذب انتباهَ إبراهيم رجل يرتدي برنس أسود وقلنسوة بذات اللون يلوح بيده ويقول:

- الضال يوسف قد دخل المدينة، فالباشا قد أرسل دعوة للقاتل المغتصب، ليجدوا حلّا في المأزق الّذي ظهر لهم فجأة، بل وربما يوّحدون جيشهم ويحاربون جيش الأفندي الجزايرلي، وبهذا نصبح أعداءً لمولانا الخليفة...

أشاح إبراهيم بوجهة عن الرجل الّذي لم يتوقف عن الكلام، ربّت على كتف عبد السلام وهمس له:

- لنرجع إلى المنزل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علا صوت اسماعيل أفندي في قاعة العرش قائلًا:

- هذا اسمه عصيان لمولانا الخليفة والباب العالي

قال الأغا مراد بتشوّش:

- نستطيع أن نتفوق على قوة هذا الجزايرلي...

- أيّ غباء هذا؟ وبهذا نعطي إشارةً للقبطان باشي ([30]) ليأتي بأسطوله وينسف طرابلس بمن فيها، إنّ هذا عصيان واضح يا أفنديَّة.

كان يوسف يجلس في أبعد مصطبة عن أخيه البك، يرتدي ثيابه الفخمة رغم أنه قد تخلّ عن أسلحته كما أمر الباشا مسبقا، تجلّى المقط وعدم السرور في قسماته منذ أن جلس، وقد حان دوره للمشاركة فقال بفظاظة:

- ليحدث ما يحدث، سأحارب هذا الجزايرلي ولن أسلّمه طرابلس على طبق من ذهب

قال إسماعيل:

- لكن هذا عصيان

- سمّه ما شِئت، أنا لن أسلّم سلاحي لهذا القرصان الغريب

قال أحمد بهدوء ليفض النقاش الّذي سيتحول إلى مشادة خرقاء بوجود يوسف ومناصريه:

- دعونا نسمع قرار الباشا

حدق الباشا الهزيل في الجالسين بعينيه الغائرتين، تمعّنهم للحظات ثم قال تقتّرا:

- سنرحل على تونس قبل أن يدخل للمدينة، لن أحارب الخليفة في آخر أيامي، لذلك من الأفضل أن أرحل أنا وحاشيتي إلى تونس، وحمّودة باشا سيمد لنا يد العون بكل تأكيد.

- ماذا؟

قد علت كلمات، وشهقات أفواه على أثر كلمات الباشا الهزيل، البعض موافق على السلم والبعض الآخر يرفض وبشدّة، فضاع سعيد بين الجموع حائرا في أمره.

نهض علي القرمانلي بمساعدة وكيله، ثم خرج وخلفه مماليكه تاركا القاعة في صخبٍ غير مفهوم.

وقف يوسف وكذلك فعل مناصريه، حدّق في البك وقال:

- لن أسلّم وأركع كما سيفعل أبوك الواهن، سأحارب هذا القرصان وليحدث ما يحدث.

ضاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حَلَقاتُها

فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

(٣٧)

رنا زوجته التي تضطجع بجواره فوجدها غارقة في سبات عميق، فقد أصبح الكيل عليها بعد أن أعتقت عبدتها سعديّة، شعر سعيد وهو يحدّق في زوجته السابحة في أحلامها العبوسة وكيف لا ... ومستقبل زوجها مجهول الملامح وهو محسوبٌ على فلول الباشا السابق، سمعت خديجة من جارتها بأفعال الوالي الجديد الشنيعة فازداد اضطرابها، من قتل وتعذيب وسرقة للحقوق وانتهاك للأعراض، مد الكخيا السابق يده الهزيلة التي ذكّرته بيد علي باشا في الاجتماع الأخير، نحو اللحاف ودثر به زوجته، وثب من مضجعه وهو متلاطم الخاطر، علم بأنّ ما سيقدم عليه هو الخطر بذاته لكن لا مناصّ من الواجب.

تحرّك بخطوات مسوّفة نحو الباب، كان الليل قد حلّ والصمت قد عم، والقمر الأحدب يبعث ضياءه بحياء، صمت ابن عمر وقد أعاده ظلام الليل لعدة أيام قد انصرمت، علي القرمانلي وموكبه المتواري في الدجى، يرحلون بهجوع غربا من حدائق الباشا نحو تونس، ما سكن لبّ سعيد هو حال الباشا الّذي أنهكه مرضه وزادته الأيام إنهاكًا برحيله عن قصره وملكه مكسور الخاطر، تحرّك الموكب بعد كلمات قد بثّها الباشا الهزيل في موظفيه مودعا، ولم يمض الكثير حينها حتى أشرقت الشمس وفتحت الأبواب، فدخل علي أفندي الجزايرلي وجنوده مجهولي النّسب في موكب بثّ الهلع في النفوس، جال الوالي الجديد في الشوارع ثم توجّه إلى مقر حكمه في السرايا الحمراء وأبرم خطابا حادا مليئا بالكراهية والعنف في موظفي السرايا قبل أن يصرفهم عن الخدمة.

ردّد سعيد وهو في طريقه لغرفة الكتب بخفوت:

- قل لن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتب اللَّهُ لَنَا

ولج الغرفة ثم قال بصوته الأبح:

- اترك كتبك قليلًا، وتعال اجلس مع أبيك

ترك إبراهيم ما كان يتصفّحه جانبًا ولحق بأبيه للعريشة، تبادلا أطراف الحديث قبل أن يقول سعيد بصوت يملأه الحزن:

- لطالما تساءلت لماذا دخلت الجيش؟

اكفهرّ وجه إبراهيم، اعتدل في جلسته وقال مقتضبا:

- أردّت أن أموت...

تبدّلت أسارير سعيد وهو ينطق بتوجس:

- ماذا؟

- نعم، كنت أريد أن ألحق بها وبعمي

أحسّ بانكسار ابنه وهو يلفظ كلماته، وبعد لحظات قال:

- ولماذا تسرّحت من الخدمة!

- لقد دخلت لسبب وانقضى ذلك السبب

- ليس حبا في الإيالة أو الحفاظ على الأمن إذًا؟

- في الحقيقة، لا أعلم..

أخذ سعيد نفسا عميقا، ثم استطرد ما أراده منذ البداية:

- وإن أتتك الفرصة لتخدم الإيالة والصلح العام من جديد، هل ستفعل؟

غرق في تفكيره وقال بتحيّر بَادٍ:

- ربما... لا أعلم

وفجأة دوى صوت الباب، فقال إبراهيم بدهشة:

- من الّذي سيأتي في مثل هذا الوقت؟

- ضيوف، اذهب وافتح لهم

قال إبراهيم بذهول:

- ماذا؟

مضى نحو الباب وفتحه بعد أن دوت عدّة طرقات ثقيلة، تسمّر مكانه وهو يحدج الأورطة باشي درغوث باندهاش، جمع شتات نفسه بصعوبة وقال:

- حضرة الضابط...

قاطعه درغوث قائلًا:

- أقول من الأفضل أن ندخل قبل أن يلمحنا أحد

أومأ برأسه موافقا، فدخل الاثنان للمربوعة، بدأ درغوث الحديث بعد أن غرق إبراهيم في تساؤلاته الجامحة

- قد رجوت آباك منذ أيّام لنجلس جلستنا هذه، وآخيرا قد فعل

- ولماذا؟

قال سعيد متوتّرا:

- حضرة الضابط يريدك أن تساعده

أكمل درغوث بأسلوبه المعتاد:

- في الحقيقة لن تساعدني، أنت ستساعد اللالة زنوبيا ابنة البك حسن... الّذي جعلك رئيسا علي، هل تذكره!؟

- اللالة زنوبيا؟

- نعم، الأميرة الآن في قبضة هذا المغتصب الجزايرلي ويريد أن يعقد عليها رغما عنها وعن عائلتها، يجب علينا أن نعيد الطفلة إلى حضن أمّها يا إبراهيم

- ماذا تريد مني يا حضرة الضابط؟

- أريد منك أن تهرّبها

- وكأنّ الأمر بهذه السهولة، ثم لمَ أنا؟

قال درغوث بنفاد صبر:

- ومن أفضل منك؟ أنا كنت قائدك وأعرف ما تملكه جيّدا، ثم قل لي من يستطيع أن يفعل ذلك؟ أبوك العجوز؟ أم أنا الكهل؟ غير أنّ كل من في القصر يعرفني...

لم يأت الجواب من إبراهيم فأردف درغوث:

- لديك عقل يستطيع أن يخرج المرء من بطن الحوت، انظر لن أبقى أمدح فيك أكثر من هذا.. فما قولك؟

رنا أبوه ودرغوث بتوجّس، تلعثم القول ولم يجب، حتى أنّ هجوع الليلة عاد إلى مقامه الخانق.

إذًا رُمتَ المَكارِمَ مِن كَريمٍ

فَيَمِّم مَن بَنى لِلَّهِ بَيتا

(٣٨)

دوت دواليب عربة القمامة في الظلام، مع كل حركة كان يصاحبها صوت السائس وهو يزجر حماره النّحيل، وبين الفينة والأخرى يصبّ عليه سخطه بعصاه التي لا ترحم. أكملت العربة سيرها في العتمة حتى وصلت بوابة السراي الخلفية، رفع السائس يده نحو أحد الجنود وقال مُحييا:

- عمتم مساءً

دنا جندي من العربة وبندقيته تتدلى من على كتفه، تفرّس في السائس والعربة ثم هتف عاليا:

- افتحوا الطريق

فتحت البوابة ودخلت العربة ببطء، أوقف السائس العربة أمام مدخل الخدم، لم يمض الكثير حتى خرج من المدخل خادم في منتصف العمر بزيّه القرمزي والطربوش على رأسه وهو يجرّ عربة، أومأ برأسه إلى السّائس ثمّ طرق على خشب العربة وهو يحملق يمينًا وشمالًا، خرج إبراهيم بسرعة من بين القمامة وقفز بخفّة نحو العربة التي أتى بها الخادم، أمسك الخادم العربة من جديد وبدأ بجرّها إلى الدّاخل، انهمك إبراهيم في الإصغاء لصوت حركة العربة، وبعد لحظات مقلقة توقّفت العربة وقال درويش:

- هيّا اخرج

قفز إبراهيم من العربة بخفّة، نظر حوله فوجد نفسه في غرفة منعدمة من كل شيْءٍ سوى البلاط، مدّ له درويش الملابس وقال:

- هيا بسرعة

التقطت إبراهيم ثياب الخدم وراح يرتديها في حين خرج درويش ليتأكّد من عدم وجود أحد، وبعد فينة دخل وهو يجرّ عربة أخرى، وقال:

- لا تقلق سأنبهك إن اقترب أحد

عدّل إبراهيم الطربوش وأمسك بمقود العربة وردّد بخفوت:

- قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا

خرج من الغرفة وهو يسحب العربة باتجاه غرفة اللّالة، كان الطريق كما وُصف له بالتحديد، عبر ممرّ طويلٍ جدا، وصعد إلى الدور الأعلى فوجد نفسه في بهو واسع يمتلئ بتحف جميلة وأثاث فخم، اتّجه نحو اليسار ثم اليمين وبعد عدّة خطوات وجد بابًا موصدًا يقف أمامه جنديّان لا يفارقانه البتّة، اقترب بعربته من الباب حتى أصبح على بعد ذراعين منهم، وقال:

- السلام عليكم

حدّق الجندي في إبراهيم، وقال بعربيّة هجينة:

- ماذا تريد؟

ضحك الجندي الآخر وأضاف بتهكّم:

- العاهرة لا حاجة لها بالتنظيف

- قد...

قاطعه بحدّة قائلًا:

- ألَمْ تسمعني أيّها الخادم؟

- أنا عبد مأمورٌ يا سيد، ويجب عليّ إطاعة الأوامر

اقترب الجندي من إبراهيم وهو يقبض على بندقيته فقال:

- عد أدراجك أيّها الطرابلسي القذر فذلك أفضل لك

لم يكد يُنْهِي كلمته حتى تقدّم بخفة وصفعه بكل قوّته، ثم قرع بندقيته بقدمه لتسقط أرضا منزلقة من بين يديه، سحب الخنجر من خصره بسرعة وقدف به الجندي الآخر. قفز باتجاه الجندي المأخوذ من ردّة الفعل السريعة وهطل عليه بلكماته، تصارع الجسدان على أنين الجندي الغارقِ في بركة دمائه، سقطت الطرابيش، وهذا يقذف به والآخر يعاود، أنهى إبراهيم النّزال المحتدم بضربه من جبينه بتجاه أنف غريمه فاختلّ توازنه، ألحقه بعدّة لكمات فسقط أرضا على إثرها ثم أزهقه، اندفع بقلق نحو الآخر الّذي ملأ المكان بأنينه، سحب الخنجر المغروس في صدره فانفجر فيضان من الدّماء، مدّ نصله وأنهى معاناته بحركة سريعة، دخل جناح اللالة فوجدها متسمرّة هلعا بقسمات وجهه الهادئ، فتاة فارعة القوام ملفوفة الجسد، بيضاء البشرة، قال وهو يسحب جسد المرتزقين للداخل:

- لا تقلقي يا لالة، أنا هنا للمساعدة

حدقت زنوبيا برعب في الدماء، فراح يملي عليها قائلًا:

- ستدخلين العربة وما أريده منك هو الالتزام بالصّمت فقط

أومأت اللّالة موافقة، دخلت العربة بمساعدته، خرج من الغرفة وبدأ يجرّ العربة من حيث أتى، تحرك دون أيّ عائق إلى أن حل بالبهو، سمع صوتا خلفه فاستدار مسرعًا، فوجد خادمة تسرق النّظر نحوه، وفجأة ظهر درويش وأغار عليها فوقعت أرضا، صاح درويش:

- هيّا أكمل طريقك بسرعة

انطلق وهو يسحب العربة بسرعة، نزل الطّابق ثم سلك الممرّ الطويل، خرج من المنفذ إلى الساحة، فوجد العربة والسّائس في مكانهما، حملق بقلق في كل صوب ثم قال لاهثا:

- هيا يا لالة بسرعة

أمسك بها وقذفها بقوّة نحو كومة القمامة، قفز هو الآخر لداخل العربة واختبآ بين محتوياتها، انطلق السائس نحو الخارج، فدوى صوت الدّواليب من جديد، وبعد لحظات علا صوت أحد الجنود:

- افتحوا البوابة

أومأ السّائس العجوز برأسه للجندي، أشرعت البوابة وخرجت العربة وهي تحمل في جعبتها إبراهيم وحفيدة الباشا زنوبيا ذات التسعة عشر عاما المفعمة هلعا.

فَذاكَ اللَيثُ مَن يَحمي حِماهُ

وَيُكرِمُ ضَيفَهُ حَيًّا وَمَيتا

في دجى الليل سبح القارب الصغير المتواري عن الأنظار، صعد إبراهيم واللالة منذ قليل من أحد أركان الميناء متخفين بعد أن جهّز لهما درغوث القارب مسبقا ليهربوا من المدينة، فالأبواب مغلقة ولن تفتح حتى الصباح، وإن حل الصباح سيكون الجميع على دراية بهروب اللالة، تسحّب القارب بخفة من حوض الميناء دون أن يشعر به أحد، وبعد جهد رهيب من إبراهيم رسا القارب على شاطئ المنشية. وكان حسن قد سبقهم إلى هناك بالهودج، اقترب إبراهيم من صديقه وقال وهو يلتقط أنفاسه:

- أين الثياب؟

جلب حسن صرة الثياب من الخُرج ([31]) وناوله إيّاه، فقال إبراهيم وهو يمسح بكم قميصه عرقه:

- كيف ستعود الآن؟

أشار حسن باسما نحو الحمار المقيّد بالشجرة:

- أظنّه سيفي بالغرض، لا تفكّر بي، فكر في نفسك

مدّ حسن يده نحو صديقه وأخذه في حضنه وقال بحزن:

- أنا أنتظرك أيّها البغيض

ربّت إبراهيم على كتفه وقال مقتضبا:

- هيّا ارحل قبل أن يلمحنا أحد

تحرّك حسن نحو الحمار وفك قيده، امتطاه بخفّة رغم وزنه، أومأ برأْسه نحو الأميرة احتراما وتحرك مبتعدًا، اقترب إبراهيم من اللالة وقال بصوت هادئ:

- يا سيدتي معظم الخطر قد اجتزناه، والآن لم يبق لنا إلّا أن نقطع ثلاثمئة ميل نحو تونس

فتح الصرّة وأخرج منها الثياب، وقال:

- ثيابك ستلفت الانتباه من الافضل أن ترتدي هذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بسقت الشمس حتى وصلت ذروتها، أطلقت لهيبها وأشعتّها اللافحة في المساحات الفسيحة الّتي خلت من زرع أو شجر .

لم يسلك إبراهيم وهودجه طريق تونس مباشرة محازيا للبحر خوفا من لحاق أعين الجزايرلي بهم، فاتجه جنوبا لبضعة فراسخ ثم سلك طريقه نحو الغرب. أصبح الصّبح وهم في الخلاء لا يعرفون لهم معلما سوى الرّمل الفسيح، وفجأة؛ خفقت شجرة من بعيد معلنة عودة الحياة من جديدة بعد طريق الجنوب القاحل. اتجه إبراهيم وهو يمسك بلجم الجمل نحو ظل الشجرة وباقترابه أكثر تبيّن له وجود بئر قديم، وكز الجمل فهبط على قوائمه في ظل الزيتونة العتيقة، انفتح الهودج وأطلّت منه زنوبيا ملتفة بفراشية ([32]) بعد أن تخلّت عن ثيابها الفخمة. فتكلمت اللالة للمرة الأولى قائلة:

- وأخيرا سنستريح...

مد إبراهيم يده لها باحترام ليساعدها على النزول، وبعد آن نزلت قال إبراهيم بكياسة:

- سأذهب أستزيد من البئر، سنقبع هنا لبعض الوقت يا هانم

هزّت زنوبيا رأسها موافقة وهي تتمعّن في ملامح إبراهيم الجديّة منعدمة المشاعر، دنت اللالة من جذع الزيتونة وهي تتصبب عرقا، عاد إبراهيم بعد لحظات مستردًا القليل من حيويته والماء يتقاطر منه، دنا من زنوبيا وناولها كوزا مهترئا مملوء بالماء، وقال:

- اروي عطشك يا هانم

حدجت اللالة الكوز باشمئزاز ثم قال بيأس:

- شكرا.. لا أريد

شعرت زنّوبيّا بما لم تشعر به طيلة حياتها وهي تقبع بين خدّامها ووصيفاتها، فلم تر من الدنيا سوى العزّ والجاه والآن تبدّد كل كذلك، فأي زمن هذا الذي أذل عزيز قومٍ شر مذلة.

لَيتَ الكِلابَ لَنا كانَت مُجاوِرَةً

وَلَيتَنا لا نَرى مِمّا نَرى أَحَدا

(٤٠)

كان الليل قد حلّ وتجلى دليل الهائمين في كبد السماء ليبعث أضواءه الخافتة في الظّلام الدامس، دوى صوت إبراهيم في الفضاء قائلًا:

- سنرتاح هنا..

حفر حفرة صغيرة وأحاطاها بحجارة صغيره في الأرض، ووضع الحطب ولحاء الأشجار الذي جمعه طوال الطريق فيها، جثا على ركبتيه وراح يضرب الحجرين ببعض، كرّر المحاولة لعدّة مرات إلى أن أضحت بوادر الاشتعال على اللحاء، نزلت اللالة من هودجها ملتفّة بالفراشية، انذهلت زنوبيا من برد الليل المتضاد مع النهار القائظ، دنت من النّار وجلست تدفئ عظامها، كان إبراهيم يجلس في الطرف الآخر من دائرة النار يحرك بعصاه الحطب ويساويه.

الغيهب من كل صوب، البدر والنّجوم حاضرين، نسائم باردة تهبّ بين الفينة والأخرى، ألسنة اللّهب تتراقص على صدى احتراق الحطب، ذرّات من الرمال تعوي متطايرة، أنين الدابة وأنفاسها تبسق في الصمت العارم، جال إبراهيم في خاطره بعيدا فبزغت صورة أثيرته الأبدية في السماء، تبسّمت له وطافت ضحكتها في الفضاء، أيقظته زنوبيا قائلة:

- هل بظنك أننا سنصل؟

وضع العصاة جانبًا ومدّ يده للصرة الصغيرة، أخرج منها رغيف خبز وناوله للأميرة، ثم أومأ قائلًا:

- العلم عند الله يا هانم

أشرعت زنوبيا في تناول الرغيف وهي تتمعّن النَظر في منقذها الذي تراقصت أشعّة اللهب على قسماته، فخلدت فيها ظلالا بارزة، وبعد لحظات قالت متحررة من قيودها:

- أأنت جنديّ في الحرس الملكي؟

أجاب إبراهيم وهو منشغلٌ بعصاه من جديد:

- لا

قالت زنّوبيا مترددة:

- لماذا تساعدني إذًا؟

- إنّه الواجب، لقد حاربت بجوار والدك منذ زمن يا هانم...

بتر كلامه بعد أن تفرّس النظر في الأفق فاستطرد قائلًا:

- اركبي هودجك يا هانم بسرعة

- ماذا هناك؟

- هناك أحدٌ قادم

ركبت زنوبيا هودجها في حين كان إبراهيم قد التقط بندقيته، اقترب القادم أكثر وإبراهيم يزداد قلقا، وزنّوبيا تعتصر خوفا

- السلام عليكم

نطق بها الفارس وهو على صهوة فرسه، لم يتبيّن لإبراهيم ملامحه لكنه، كان رجلا عريض المنكبين ملتفّا في برنس ويعتمر عمامة، أجاب إبراهيم بصوت عالٍ:

- وعليكم السلام ورحمة الله. من الرجل؟

- عبد الجليل القنطراري، أتيت مسالما وأريد ان أشارككم ناركم

حدّق إبراهيم في الفارس ثم قال بصوت جهوري:

- يا مرحبا

ترجّل الفارس حصانه، وبدأ يقترب، دنا منه وظهرت ملامحه، رجل في عقده الثالث، غائِرُ العينين، شاحِبُ البشرة، وله لحية كثّة. مدّ يده الخشنة مصافحا وهو يقول:

- لم نتعرف على الكريم

- جمال النفوسي

- هل لي بشربة ماء

هزّ إبراهيم رأسه موافقا، قطع بضعة آقدام والتقط القربة، ارتوى عبد الجليل بماء البئر ثم جلس الاثنان بالقرب من النار

- إلى أين العزم يا أخ جمال؟

تمعن إبراهيم في تفاصيل ضيفه ثم أجاب بهدوء:

- إلى القيروان

حدّق عبد الجليل في الهودج ثم قال بصوت أشبه بالهمس

- لماذا سلكت هذا الطريق إذًا؟

- قد أتينا جنوبا من الزنتان

ثم أردف:

- وأنت؟

- أنا...

أطلق ضحكة مجلْجَلة وأكمل قائلًا:

- قد قذفت بي أرض الله الواسعة يا أخي

ازداد قلق إبراهيم من ضيفه، فأطلق قبضته في الخفاء باتجاه بندقيته فمن الوارد أنه سيحتاجها، فأضاف الرّجل:

- ألا تخاف على نفسك وعلى من معك لترحل بمفردك؟

لم يعقّب إبراهيم فتابع الرّجل:

- حتى لو كنت مسلحا، فماذا تستطيع البندقية فعله أمام قطّاع الطرق واللصوص؟

اضطربت أنفاس إبراهيم وهو يشعر بأن الخطر يقترب، من هذا الذي يجلس بجانبه؟ وماذا يريد؟

زاد عبد الجليل بصوته الأخن:

- ألم تسمع بالحوادث الّتي تحدث للرّحالة في هذه الصحراء؟

أمسك ابراهيم ببندقيته وردّد داخله: إن أقدم على أيّ حركة سيرده قتيلًا

حدّق عبد الجليل من جديد ناحية الهودج، بسط ذراعيه ناحية النّار يدفئ نفسه ثم قال:

- يا أخ جمال...

نهض من جلسته وإبراهيم يتابعه بتمعّن وهو جاهز للانقضاض عليه، فأكمل الرجل قوله:

- شكرا على الماء، يجب علي ان أرحل الأن

تحرك باتجاه حصانه وامتطاه، وإبراهيم ينتظر أيّ ردّة فعلٍ ليطلق النار، دوى صوت عبد الجليل مجدّدا:

- في حفظ الله ورعاه

أمسك بلجم جواده، فانطلق الجواد بخفّة في الظلام مبتعدًا عن إبراهيم واللالة زنوبيا الّتي راقبت كل ما دار من الهودج والخوف ينتابها بصورة جنونية.

فَاهرُب بِنَفسِكَ وَاستَأنِس بِوِحدَتِها

تَبقى سَعيدا إذَا ما كُنتَ مُنفَرِدا

(٤١)

دوى صوت أحمد بك في القاعة الرحبة:

- شكرا لك يا إبراهيم على ما فعلته، وهذا الجميل لن ننساه أبدا

صافح إبراهيم البك المغلوب على أمره الّذي جر ذلالة الهزيمة وراءه إلى تونس، بعد محاولاته الفاشلة الّتي قام بها هو وأخوه يوسف للوقوف في وجه الأفندي الجزايرلي، خرج إبراهيم من قاعة الاستقبال الّتي تقبع داخل قصر العبدلية الكبرى بالمرسى والذي أصبح محل إقامة للعائلة القرمانلية، سلك طريق خروجه قاطعا البهو الواسع الّذي يمتلئ سطحه بألواحٍ زجاجية شفّافة. ويتجاوز الباب الرئيسي، وجد نفسه في ممرّ طويل مبلط تزيّنه الأشجار على طولٍ الطريق، أطلق قدميه خارجًا من القصر بعد أن أنجز مهمّته على أكمل وجه، وإبّان سيره قاطعه صوت أنثوي من ناحية الأشجار، نظر حيث وُجد الصوت فوجد خادمة سوداء تشير إليه بالاقتراب وقالت:

- اللالة زنوبيا تريد مقابلتك

لحِق إبراهيم بالخادمة وسط الأشجار إلى أن وصل لأريكة جميلة ملفتةً بين الخضار، تجلس عليها زنوبيا الّتي تزينت بملابس ومجوهرات تليق بمقامها ليس تلك الفرّاشية البالية التي تخصّ العوام من الناس، تبسّمت اللالة فور أن رأته وقالت مرحّبة:

- أهلًا بك يا إبراهيم، كيف حالك؟

أومأ إبراهيم برأسه احتراما وأجاب بتأدّب:

- الحمد والشكر الله، كيف حال سعادتك؟

- أنا بخير... بفضلك

أشارت زنّوبيا إليه بالجلوس، فطأطأ رأسه وقال ببشاشة:

- شكرا لك يا هانم، هكذا أفضل

- هل سترحل الآن؟

- نعم سعادتك، أظن قد حان وقت العودة للديار

- لا أعرف كيف أشكرك يا إبراهيم على ما فعلته معي

تملّص إبراهيم من حوار زنوبيا الّذي سيزيد عن حده، وهو لا يرغب في أيّة مشاكل، يريد العودة لأهله سالما فقط لا غير، فقال:

- أشكرك يا هانم على رحابة صدرك، لكنّني يجب أن أذهب الآن فطريقي طويل

- لك ذلك يا إبراهيم

استدار إبراهيم باحترام وراح يبتعد، فقاطعت سيره قائلة:

- جميلك لن أنساه وسيأتي يومٌ أردّ لك جزءًا منه، تذكر هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ على صوت عبد السلام وهو يصيح:

- هيّا انهض يا رجل... إنّ حسن هنا

خرج عبد السلام من الحجرة وهو يردّد لحن أغنية قد شوهها.

خرج إبراهيم مترنحا بعد أن استفاق، وجد حسن وعبد السلام جالسين تحت العريشة، فقال صاحبه بصوته المجنح:

- قد صدق عبد السلام إذًا، بأنّك قد أصبحت أشبه بالمرأةِ الحامل التي تنتظر موعد مخاضها

عقّب عبد السلام قائلًا:

- أقسم لك، إنّني لم أقل أيّا من هذا الكلام

ارتسمت ابتسامةٌ على وجنتيّ إبراهيم وقال:

- ياله من صباح مضجر الذي يبدَأ بصوتك المزعج يا رجل

- لكنه ليس أسوء من الصباح الّذي يبدأ بقسمات وجهك الكريهة.

جلس الثلاثي تحت العريشة وتناولوا البيض الذي أعدّته خديجة وهم يتبادلون الحديث، بعد أن فرغوا من طعامهم خرج إبراهيم وحسن باتجاه حيّ المقاهي. وإبّان سيرهم قال حسن بتحير:

- على ماذا تنوي الآن؟

- سنفتح الدكّان ونعود إلى العمل، واضحة جدا

- فقط؟

- وهل هناك شيء آخر؟

ثم أردف:

- صحيح تذكّرت، ماذا حل بلطفي؟

- أصبح عاطلا عن العمل، حاله حال الكثيرين، فالوالي اللعين قد سرّح نصف الإيالة من عملها، يريد أن يأتي بقوم آخرين ليحكمهم ابن البغيّة هذا...

قاطعه إبراهيم قائلًا:

- اصمت... لا ينقصنا في وضعنا هذا إلا لسانك السليط

أكمل الصِّديقَان سيرهما في حيّ المقاهي، جلسا على مصاطب المرمر، احتسيا القهوة وصاحبتها أنفاس السّجائر، وبعد جلسة دامت طويلا تفرّق كل منهم في طريق، سار إبراهيم وهو يتمعّن النّظر في ما حوله كما أحب أن يفعل دائما، وجد بالأزقة الّتي حفظها تغييرا شاحبا طرأ عليها لا يعرف له حلا، أحسّ بسوادٍ يتربّص بها من كل جانب، شمّ رائحة عطنه قد جعلته يبغض السير بها، وأثناء سيره سمع صوتا:

- مإذًا تريدونـ...

صاحت بها امرأة امبمكة ([33]) تقف على بعد أقدام منه، حدّق إبراهيم نحوها فوجد جنديّين يقطعان طريقها ويضيقانها، اضطرب وهو يراها تستنجد بأحدٍ لينجدها من المتحرَّشين، مدّ الجندي يده نحو صدرها وحاول أن يلمس ما لم تره عيناه. استحضر على الفور صورة العجوز الّتي استنجدت به في الزقاق أيّام الطاعون، تذكّر كرهَهُ لنفسه بسب ذلك الضّعف، فلم يدرك نفسه إلّا وهو يركض باتجاه المرأة بسرعة، مدّ يده نحو أحد الجنديين وقال:

- لا يصحّ ما تفعلانِه

حدّق الجنديان فيه وأطلقا بعض الشّتائم، خلّص إبراهيم المرأة من بينهما وهو يقول:

- هيّا اركضي...

أشرع أحد الجنود بندقيّته باتجاهه في حين أمسك الآخر بتلابيبه، فقال إبراهيم برجاء :

- صلوا على النبي، لا يصح ما تفعلانه

- اصمت.. يا ابن العاهرة

رفع الجندي يده ونزل بها عليه بكلّ قوّة، في حين كان الآخر يهطل عليه بعقب بندقيته، تملّص إبراهيم من قبضة الجندي الّذي أمسك بتلابيبه إلّا أن الآخر لم يتوقف عن الضرب، سدّد رفسة بكل قوته نحو الجندي الّذي يمسك بالبندقية. ومن حيث لا يعلم أهلّ لهم صديق ثالث، فتحامى الثلاثة عليه وأخذوا يضربونه. حاول الصمود لكنّه لم يقدر فسقط أرضا بعد جرحٍ وانبعثت منه فيضانات الدّماء، فسالت الدّماء وسط أنين مكتوم، والثلاثة لا يتوقّفون عن الضرب.

تَمَنّى رِجالٌ أَن أَموتَ وَإِن أَمُت

فَتِلكَ سَبيلٌ لَستُ فيها بِأَوحَدِ

- انهض، ستقابل حضرة اليوزباشي ([34])

صاح بها جندي قاسي الملامح يمسك بعصاةٍ فجّة، نهض إبراهيم مترنحا والدّماء تغطّي ملابسه، جذبه الجندي إليه بفظاظة وشبك يده بالأصفاد، حدّق الجندي بشاربه الكثيف في إبراهيم بشفقةٍ وقال:

- ادع الله، بأن يكون مزاج اليوزباشي رائقا

جرّ الجندي إبراهيم من الزنزانة إلى ممر قد أُتْرِعَ بالأبواب يمينا وشمالا، صعدا الدرج إلى الطابق الأعلى، قطعا عدّة خطوات قبل أن يتوقّفا عند أحَد الأبواب. فتح الباب وأدخله بفظاظة، كان المكتب متوسّط الحجم، ذو نافذة تطل على الساحة، وقد أشرعت على مصراعيها جالبة معها ضجيج المارة، وأمام النافذة يتواجد مكتب يجلس عليه ضابط أبيض في عقده الثالث تقريبا، ذو أنف أقنى وشفّة متدلّية، عيناه ثاقبتان تشع سوادا. نظر الضابط نحوهم وهو يمسك بورك دجاجة متفق في أكلها، قال الجندي بصوت جهور:

- هذا المتّهم سيدي..

بتر الجندي كلماته عندما أشرع الضابط يده بأن يسكت، حدّق اليوزباشي وهو يلوّك طعامه بصوت مرتفع مقزز، ثم قال:

- انطق باسمك.

- إبراهيم بن عمر.

قذف بعظمة الورك الخالي من اللحم على طاولة المكتب، مدّ يده لسفرة الطعام والتقط قطعة أخرى، وشرع في تناولها، ثم قال والطّعام يتحرّك في فمه:

- ماذا حدث بالضبط يا إبراهيم؟

أخذ إبراهيم نفسا عميقا وقال بضيق:

- لقد رأيتهم في الزقاق يضايقون امرأة، وعندما...

قال اليوزباشي مقاطعا إيّاه بحنق:

- إرهان، علم صديقنا التكلم بسرعة وبإيجاز.

نزل الجندي بعصاه على ابراهيم بقوّة، ثم ناوله عدّة ركلات في بطنه قد جعلته ينحني أرضا، يحارب لأخذ أنفاسه، قذف اليوزباشي بالعظم على الطاولة ومسح شفتيه بظهر يده، مدّ خنصره وراح يطرد بواقي اللحم من أسنانه وهو يصدر ضجيجا مزعجا قال الجندي مستدركا:

- هل أعيده إلى الزنزانة يا سيدي؟

- لا.

نظر اليوزباشي بعينيه الحادّتين من جديد لإبراهيم وقال بابتسامة ماكرة يشعّ منها الخبث:

- ماذا تعمل؟

- نجار.

ردد اليوزباشي بصوت فاتر:

- نجار، نجار!

ثم أردف بتهكّم:

- لم أعلم بأن النجارين يحبّون البطولات... هل المرأة التي وجدّتها من بقية أهلك؟

- لا.

- إذًا لا تخصّك، ومن حق الرجال الّذين يسهرون على حمايتكم من أطياف القرمانلي أن يضاجعوا من يريدون وفي أيّ بقعة شاءوا

تبدّلت ملامحه فجأة وبات المكر أكثر وضوحا، فقال بحدّة:

- أين تقطن؟

- في شارع عمورة.

نظر للجندي وقال:

- هل وجدت عليه أيّ أمرٍ آخر؟

- لا.

أشار لهم بالانصراف وهو يهتف بنفاد صبرهِ:

- أطلق سراحه، وإن وجدّتك هنا مرّة أخرى سأجعل الجنود تضاجع أمك أيّها المخنث.

سحب الجندي إبراهيم من أصفاده ليخرجه من المكتب، وأثناء خروجهم صاح اليوزباشي قائلًا:

- قلت لي ما هو اسمك؟

- إبراهيم بن عمر.

دام الصمت لعدّة لحظات والجندي ينتظر أمر اليوزباشي الغريب، وبعد برهة هتف هذا الأخير بقسمات جادة:

- أعده إلى هنا يا إرهان.

عاد إرهان بإبراهيم وأوقفه حيث كان يقف، قال اليوزباشي:

- ماذا يعمل والدك؟

صمت إبراهيم في حين أصابته رجفة وهو غير مدرك كيف سيتملّص من هذا المأزق، فكرّر الضابط السؤال:

- ماذا يعمل والدك ؟

ثم قاطع نفسه بابتسامة نصر :

- إنّ ذاكرتي لم تخطئ إذًا

نظر للجندي وقال بحماس:

- هل تعرف من يكون؟

ثم أجاب على نفسه ضاحكا:

- إنه ابن الكخيا يا إرهان.

استطرد وهو يشير بيده إلى الكرسي المقابل له:

- تفضل بالجلوس.. إرهان، أجلسه بطريقتك.

انهمر إرهان بعصاه على ظهر إبراهيم حتى أسقطه أرضا، بدأ اليوزباشي يبحث في أدراج المكتب وبين الأرواق المتناثرة باهتمام، وبعد لحظات من البحث أمسك بورقة ورفعها عاليا وهو يردد بفرح:

- ها، هي.

رمق ابراهيم بابتسامة ماكرة وقال تهكّما:

- أنت وحظك الآن يا ابن عمر.

تهجّى الورقة بصوت خافت ثم حدّق في الجندي بجمود وقال:

- اذهب وأتِ بالشاهدة يا إرهان، فإنّ حظ ابن الكخيا مثل قسماتك البغيضة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد به إرهان للزنزانة المقفرة تاركا إيّاه مغموسا في همّه ومنهمكًا في تفكيره. وبعد ساعات جرّه لمكتب اليوزباشي من جديد، بات يعلم ماذا يخفي هذا المكتب اللعين، وبات يعلم المأزق الّذي وقع به. دوى صوت اليوزباشي المجنح فور أن ولج للمكتب:

- إبراهيم أفندي، تقدم يا رجل.

دنا الضابط منه وربّت على ساعده، وقال ببسمة تخفي وراءها الخبث وهو يلوّح نحو المرأة الجالسة على الكرسي:

- هل تعرف من هذه .

ثم أجاب على نفسه بسخرية:

- إنها أملك الوحيد بأن تعود لأمك سالما.

أردف بجديّة وقد اقفرّ صوته من السخرية فجأة:

- تمعّني فيه جيدا، هل هو من لمحتيه في السّراي في تلك الليلة آم لا؟

اقتربت المرأة الأربعينية وهي تسدلّ وشاحا قرمزيّا على رأسها، تمعّنت النظر ثم زفرت ببطء وقالت جزعة:

- لا أعرف يا سيدي، إنّ ملامحه غير واضحة.

هيمن الصمت والأعين تتربص النظر، قال اليوزباشي بسكون:

- هل رأيت كيف ظلمنا الرجل معنا يا إرهان.

و فجأة صاحت المرأة بهلع وكأنما قد استيقظت من كابوس:

- نعم... نعم هو من رأيته يا سيدي قبل أن أضرب على رأسي من الخلف.

تبدّد السكون على قسمات اليوزباشي وأهلّ المكر، أشار للمرأة بالخروج، جلس على كرسيه، انطلقت ضحكات قويّة منه، حتّى أنّه أوقف سيل قهقهته بصعوبة بالغة، وقال:

- اجلس يا إبراهيم، هل تظنّني جاحدا لهذه الدرجة؟

فجلس ابراهيم على الكرسي وهو يغوص في عرقه واضطرابه، قال اليوزباشي ببشاشة لا تحتمل هذا الموقف البتّة:

- أنت من هرب اللالة زنوبيا إذًا؟

أجاب إبراهيم بسرعة متوترا:

- إنّ هذه المرأة تخرّف، لا دخل لي بهذا...

- لا، لا يا إبراهيم، هكذا سأكرهك فأنا لا أحب الكاذبين، ما رأيك أن تعود إلى بيتك سالمًا؟

ثم أكمل بعد أن أبصر أثرَ كلماته في إبراهيم:

- أخبرني من الّذي ساعدك وأنا سأطلق سراحك فورا، من حليف القرمانلي داخل وخارج السّرايا، الفظ بأسمائهم فقط وستعود إلى بيتك سالما غانما.

- لا أعرف أحدًا يا حضرة...

قاطعه اليوزباشي غاضبا بصفعةٍ قويّة ومباغتة، ثم هتف عاليا وهو يتأجّج حنقا:

- إرهان، جهّز غرفة الضيوف؛ إن ابن عمر سيمكث عندنا بعض الوقت.

وَما مَوتُ مَن قَد ماتَ قَبلي بِضائِري

وَلا عَيشُ مَن قَد عاشَ بَعدي بِمُخلِدي

تحرّك اليوزباشي بثقةٍ في الممرّ، متجاوزا عدّة أبواب يمينًا وشمالا، وقف أمام باب غرفته المفضلة، فمن هنا يحبّ أن يدير أموره. فتح باب الغرفة الموارب ودخل بخفّة، ضرب راحتيه بفرح وقال بصوت يملأه الحماس:

- أقسم لك يا إبراهيم أنّني قد اشتقت إليك.

أومأ الجندي الذي يحمل السوط لليوزباشي قائلًا:

- لم ينطق بشيء يا سيدي.

- حقا!

دنا اليوزباشي من إبراهيم المعلّق بالصليب الخشبي، كان عاريَ الجسد كما ولدته أمه، مقيّد الأطراف، والدماء تسيل من جروحه المتورّمة، وقد احتقن بدنه من كثرة الجلد، تجلّت ابتسامة على قسمات اليوزباشي وقال ببراءة لا تصدق:

- من الذي خلع لك ثيابك هكذا؟

ثم أردف ببشاشة:

- أقسم لك، انّني لم آمرهم بذلك، أنا قلت لهذا المتوحش أن يقدّم واجب الضيافة ليس إلاّ

دنا منه وقال هَامِسًا في أذنه:

- انطق بأسمائهم لتنفد بجلدك

أخد إبراهيم أنفاسه بصعوبة، حدّق في اليوزباشي وقال بضعف:

- لا أعرف أحدا... ليس لي دخل بهذا

تراجع اليوزباشي عدّة خطوات، مدّ يده للجندي التقط السوط، وقال وهو يشتعل غضبا:

- هناك بعض الأمور الذي يجب عليّ القيام بها بنفسي، اخرج أنت الأن

أومأ الجندي موافقا وخرج. زمّ اليوزباشي السوط بقوة، فدوى صوته في الفراغ، حدّق في إبراهيم مغتاظا، وقال:

- يا أسفاه عليك يا إبراهيم.

استطرد ببراءة متذكرا أمرا كان قد نسِيه:

- اااه.. نسيت أن أعرّف نفسي لك بشكلٍ جيّد لذلك اعذرني، أنا اليوزباشي إسحاق، ومن الظّاهر أنّ فترة صداقتنا ستطول، لذلك علينا أن نباشر بالعمل، ألا توافقنِي الرأي!؟

حدّق في إبراهيم لبرهة ثم أجاب على نفسه:

- لنبدأ بالخشبة المعلّق بها، لا أذكر العدد الذي علق عليها بالضبط ونالوا استقبالنا الرائع، وأنت مؤمنٌ وتعرف حالات الوفاة الّتي تحدث أثناء الاستقبال. في الحقيقة البقعة المعلّق بها جسدك الآن هي بقعة

عزرائيل المفضلة لسلب الأرواح...

قاطعه إبراهيم بصوت خفيض منهك:

- لا أعرف أحدا ولا دخل لي بكلّ هذا.

- أنا بشر أيضًا وصبري ينفد يا صديقي، لذلك انطق بالأسماء فقط وأنا سأتولّى الباقي ولن يعرف أحدٌ أنّك من أخبرنا، ما رأيك؟

ابتعد إسحاق بغضب عندما لم يأت الرّد اتّجه نحو الطاولة الحديديّة الّتي في الزاوية، التقط مطرقة وقضيبيّ حديدٍ شبيهان بالنّصول، عاد بهما إلى الصليب حيث إبراهيم، وقف لبرهة يتأمّل فريسته بحنق ثم اندفع بقوّة، بسط كف إبراهيم بالخشب ووضع القضيب الحديدي عليها، وقال:

- أنت أجبرتني على هذا.

صوّب المطرقة نحو القضيب بكل قوّته، فاستبطن القضيب الكف مخترقا لِلّحم ومخلّفا وراءه صراخ إبراهيم الأليم، صوّب إسحاق المطرقة مرة أخرى، فازداد تمزّق الكف وسيلان الدماء وصياح تعيس الحظّ. تمعّن فعلته بمسرّة لبرهةٍ، وكرّرها في الكف الأخرى.

لَعَلَّ الَّذي يَرجو فَنائي وَيَدَّعي

بِهِ قَبلَ مَوتي أَن يَكونَ هُوَ الرَدي

(٤٤)

صرخ وتألّم حتى لم يعد قادرا على تمييز الصّور في عينيه، معلّق منذ وقت طويل لم يدر مدّته بالتّحديد، لكنّه متيقّن بأنّه لم يعد يشعر بمعظم أجزاء جسده العاري المحتقن الذي تغرقه الدّماء، لم يتوقف الجلد والضرب منذ أن حل بهذه الغرفة، يسرق النظر وهو يصارع لأخذ أنفاسه نحو كفيه اللّذين أصبحا جزءًا من خشب الصليب، منذ نعومة أظافره وهو يدّق الخشب لكنّه لم يتوقع أن تدقّ يده بوحشية، من غريب الأطوار إسحاق الذي استعمل معه شتّى أنواع التعذيب.

كفّ الجندي عن تعذيبه وخرج من الغرفة، تاركا إيّاه بمفرده منغمسا في آلامه، أطلق آهاته وهو يشعر بالبرد ينهش جسده المتورّم من كلّ صوب، ردّد بخفوت:

- ليس اليوم، ليس اليوم موعدك..

جالت أمامه وهو يصارع للنجاة عشيقته الأبدية، فأغلق عينيه بعجزٍ وشعر بروحه تنساب إليها هجَر جسده خلفها، ركض في الدّجى الفسيح نحوها، وإبّان ذلك سمع صوتً عبد السلام يناديه:

- إبراهيم... لا تتركني

حدّق في محبوبة عند الأفق السّحيق ثم في ابنه الّذي تساقطت الدموع من عينيه، أخذ لحظات وهو يقلّب نظره بينهما بتحيّر، ودون أن يشعر وجد نفسه يعود ناحية عبد السلام، فحتّى معاقل الأفئدة يجتاحها الزّمن فتنساب مع التيّار.

- هل تسمعني...

فتح عينيه في الغرفة وأحسّ بآلامه تعود من جديد، وجد جنديا يكلمه ويهمس باسمه وهو يربتَ على خدّه ليستيقظ. قال الجندي همسا:

- لا تقلق... إنّي أتيتُ للمساعدة

مدّ يده نحو كفّ يده اليمنى المثبّتة في الخشب، وقال:

- أرجوك استحمل

نزع القضيب بقوّة من يده فانبثقَت الدّماء وإبراهيم يصارع لكتم أنينِه، فعل الجندي مع اليدّ الأخر المثل، فك قيده وأسنده على كتفه وبدأ بجرّه مبتعدًا عن الصليب الملوث بدمائه، أجلسه أرضا ببطء. ناوله سروالا وقميصا وقال:

- استر نفسك بسرعة، ريثما أذهب ألقي نظرةً في الخارج.

تحرّك الجندي بخفّة لخارج الغرفة، أمسك إبراهيم الثياب بقبضة يده المشوهة. أخذ شهيقا طويلًا والألم يفتك به، ردد من جديد:

- ليس اليوم..

ارتدى الملابس بوهن وبطء، عاد الجندي للغرفة وأسند إبراهيم على كتفه، وأخذ يجرّه خارج الغرفة بصعوبة، خرجا من غرفة الجحيم ببطء ثم قطعا الممر المظلم، ولجا إلى إحدى الغرف في نهاية الممر، وكانت الغرفة أشبه بمكتب، تتواجد بها نافذة صغيرة في أسفل الحائط، اجتازا النافذة الصغيرة، فوجدا نفسيهما في سردابٍ حالك. كان كلّ ذلك في صمتٍ عدا أنين إبراهيم المكتوم الذي سعى لإخفائه، لم يعترضهم أحد ولم يشعر بهم أحد، وكأنّما الله قد أعمى أبصارهم، سلكا السّرداب إلى ممرّ آخر أقلّ ظلمة، وأثناء سيرهم قال الجندي:

- لا تقلق يا إبراهيم فقد قاربنا على النجاة

قال إبراهيم وصوت أنفاسه الشّاقة تفصل كلماته:

- شكرا لكـ..

توقّفا عن سيرهما عندما وصلا لبابٍ موصدٍ في نهاية الممر، مدّ الجندي يده إلى مقبض الباب وفتحه بكل يسر، فبرز صوته في الفراغ، أشار الجندي بالدخول، فدخل إبراهيم مترنّحا يسند جسده على الحائط محاولًا ألا يقع، أبصر نفسه في غرفة كبيرة مبلّطة قد أضيئت بمشاعِلَ متشبّثة بجدرانها الحجرية، قطع الخواء العام للمكان كرسي في المنتصف، يجلس عليه رجل لم يستعلم ملامحه بسبب جلوسه بالصّوب المعاكس، وإبراهيم يلتقط أنفاسه العسيرة نهض الرجل من على كرسيه واستدار، وقال بصوت مجنح:

- لم تتأخر كثيرا يا صديقي

هوى إبراهيم أرضا على أثر كلمات إسحاق الصاعقة

- ما رأيك في المفاجأة، الجميع يقول بأنّني خبيرٌ في هذه الأمور

فرقع إسحاق أصابعه وأومأ للجُندي الذي كان منذ برهة بمثابة ملاك هابط من السماء، تقدّم الجندي مسرعًا وأمسك بإبراهيم وبدأ بجرّه بعد أن انهال عليه بالرّكل، قال إسحاق:

- لن تصدق ماذا أجهّز لك يا صديقي

انتهى الجندي من جرّ إبراهيم بعد أن كبّله في سلسلة مثبّتة في الحائط الحجري، خرج الجندي من الغرفة وإبراهيم يزداد اضطرابا، غرق في ألمه المتزَايد وأصبح أشبه بالغافي من فرط ما يحدث

- كلّمتك ولم يفد، ضربتك ولم يفد.. لكن ما سنفعله الآن سيفيد بكل تأكيد

عاد الشيطان ذاته للغرفة من جديد لكنّه لم يكن بمفرده، فدخل وهو يجر سعيد المكبّل، دفعه بقوة فوقع أرضا، حاول إبراهيم أن يقف وينجد أباه لكن الأصفاد أعاقته، أكمل الجندي طريقه وهو يركل ويصفع الكخيا السّابق حتى وصل به للجدار المقابل لإبراهيم، قيّده في سلسلة مماثلة لابنه وتراجع ناحية إسحاق وسط صراخ إبراهيم وهلع أبيه

- ما رأيك! مفاجأة أليست كذلك

قال سعيد بوهن يوضّح أنّه قد نال الكثير:

- أرجوك اخل سبيله، اخل سبيله وافعل بي ما شئت

قهقه إسحاق وهو يحدّق في سعيد الخائر وابنه الجامح المنكسر، وفجأة انقلبت ملامحه للهدوء، وقال :

- لقد قرّرت تسوية الأمور مع ابنك يا أفندي سعيد مسبقا، لكن رأسه أصلب من الحجر... لهذا أتيت بك هنا

ثم حدج إبراهيم بغضب وقال محذرا:

- ليكن في علمك إن لم أخرج بمعلومةٍ منك ستموت ميتة الكلاب.. والآن من الواضح أنّك لست بمفردك

نظر للجندي الذي تسمّر بالقرب منه وقال ساخرا:

- أليس كذلك يا عزرائيل؟

قال الجندي بصرامة:

- إشارة منك يا سيدي وسيموت الابن وأبوه فورا.

رنا إبراهيم أباه بحزن، شعر بضعفه وأحسّ بانكسار نفسه، تردّد القول فبقى صامتا وهو يتجرّع ذل إسحاق

أجاب سعيد عوضا عن ابنه، فقال:

- إنّه لا يعرف شيئا

زجره إسحاق بسخط:

- اصمت أنت، ها.. ما قولك؟

فقال إبراهيم بتردّد:

- أنا لا أعرف شيئا، أقسم لك أنّي لا أعرف شيئا

- عزرائيل باشر بالأب إذًا

لوّح الجندي برأسه وانطلق نحو سعيد وهو يحمل مسدّسه، قبض على فروة رأسه وجذبه بقوّة، وضع فوهة المسدس على جبينه، قاطعه إبراهيم صائحا:

- لا تفعل... أرجوك

قال إسحاق بنفاد صبر:

- هيّا يا عزرائيل نفذ، ماذا تنتظر؟

أومأ عزرائيل، وضع سبّابته على الزّناد ليسلب حياة الكخيا، لكن إبراهيم قاطعه برجاء:

- لا تفعل، سأقول ما أعرف

أشار إسحاق بتوقّف، دنا من إبراهيم وجثا على ركبتيه وقال بابتسامة خبث:

- إنّي مصغٍ.

وجم إبراهيم وهو يحدّق في أبيه بضعفٍ، صرخ إسحاق بغضب:

- هيّا ماذا تنتظر.

بقي القليل على وجومه قبل أن يبلع ريقه بوهنٍ قائلًا:

- الأورطة باشي درغوث بتمالي، وخادم يعمل في السرايا اسمه درويش الهمّالي

- ومن أيضًا؟

- أقسم لك هذا كل ما أعرفه.

- من الذي دبّر الأمر؟

صمت إبراهيم قليلًا قبل أن يجيب بجزع:

- أنا ودرغوث.

ربّت إسحاق على ساعده، وقال ببشاشة:

- خير ما فعلت.

قال وهو يبتعد من غريمه المنكسر:

- اترك يا عزرائيل ضيفنا بسلام.

ثم أردف بحنق:

- ضيوفنا الكرام أودّ إعلامكم بفقرةٍ أخيرةٍ لِليلتِنا هذه وستكون بيديّ هاتين.

مدّ يده في جيبه وأخرج زجاجةً صغيرةً، تأمّلها لبرهةٍ قبل أن يتحرك باتجاه سعيد. قبَض بكفّه على ذقن سعيد الّذي ازداد هلعا، وقال:

- عزرائيل تقدّم وساعدني من فضلك.

دنا عزرائيل من سيده ومدّ يده نحو سعيد الواهي، وضع راحته على ذقنه والأخرى على جبينه، ضغط بقوّة حتى انفتح فمه خائر القوى، نزع إسحاق غطاء الزّجاجة وأفرغها في ثغرِ سعيد، أغلق عزرائيل فاهَ الكخيا مباشرةً، فابتلع ما صبّه إسحاق مكْرها، قال إسحاق محتدِما:

- هل حقا ظنَنت أنّي كنت سأضرب دماغ أبيك أمامك؟

ثم أردف بخبث:

- لكن ما المانع إن وجدّت طريقة أكثر لطفًا، استمتع بالمشاهدة يا صديقي.

خرج اللعينان وأوصدا الباب خلفهما، حدج إبراهيم أباه وهو ينغمس في دموعه الحارقة، وقال:

- أرجوك سامحني يا أبي.

أسند سعيد ظهره بالجدار وقال بوهن:

- ستعيش يا بني لا تقلق وستخرج من هنا، لتعتني بأمّك وعبد السلام.

ثم استطرد بوهنٍ أكبر:

- أريد أن أسمع سورة يس، اقرأها لي.

حدّق إبراهيم أباه ببؤس، وعندما رأى رجاءه بدأ تلاوته، أصغى سعيد لآيات ربه بخشوع وهو يطوف في ذكريات عمره الّتي انقضت. سقط رأسه على البلاط بحدّة، تلوى من أثر الألم عاجزا عن السيّطرة على حركته، تقوّس جسده كالجنين، حاول المقاومة لكنّه لم يتمكن من فعل شيء، تزايدت التشنّجات حتى صار الجسد يتقلّص وحركته أكثر عنفا، تابع إبراهيم تلاوته وهو يذرف الدموع ويشاهد بضعف ما يحدث لوالده، شحب وجه سعيد بشدّة وعلّته الزرقة، وعضلات جسده بأكمله أصابتها رجفة مستمرة شديدة، بقي على حاله قليلا. قبل أن تزداد إيقاع التشنجات قوة، انقلبت العينان للأعلى حتّى غابتا في محجريهما وطغى عليهما البياض، كافح التّعيس لالتقاط أنفاسه بشهقاتٍ حادّة حتّى أصبحت شخيرا متتاليا، أصاب البلَل ملابسه من جراء تبوله اللاإرادي، وتدريجيا تناقصت حدة التشنجات، وبعد لحظات تلاشت الأنفاس مذاعة موته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الثالث)

الهر الجريح يصبح بعد جرحه ضرغاما...

(الراوي)

إِن كُنتَ تَغدو في الذُنوبِ جَليدا

وَتَخافُ في يَومِ المَعادِ وَعيدا

(٤٥)

تساقطت دموعه على وجنتيه كشظيّة متطايرة من بركان محموم، هبّت رياح قبليّة تحمل كومة من الأتربة فتطايرت ذرّات التراب في الهواء كطائر صغير وسط عاصفة لا يعرف لها أول من آخر، جثّة أبيه هامدة ملفوفة بكفن ناصع البياض، توسّل إليه أن ينهض ويتحرّك لكنّه لم يفعل، أنزل حفرة موحشة وسط أدعية من أفواه رجالٍ لم يكترث لمعرفة ملامحهم، أُسْكن الكخيا العطوف قبره وتبدّد تحت التّراب كأنما شيئا لم يكن.

استيقظ عبد السّلام هلعا من نومه، بعد أن رأى كابوسه المعتاد منذ أن رحل سعيد إلى دار الحقّ، تنفّس الصعداء وهو يتصبّب عرقا وقد اجتاحه خوف لم يسكنه حتى عندما كان يقيم في الأزقة المتهالكة، نظر للنّافذة فوجد الشمس لم تشرق بعد، أزال اللّحاف ونهض بكسل من على الفراش الّذي كان ومنذ وقت ليس ببعيدٍ فراشَ الشيخ ضياء الدين ومن قبله عبد الله كما سمع من إبراهيم يوما، خرج من الغرفة إلى الفناء المقفر وحدّق في الخراب الّذي كونته الأيام، فجنتّه التي عمّرها بيديه وببركة الولي الصالح قد رحلت ورحل معها كل المجهود الّذي بذله، ماتت الأزهار وذبلت الأوراق بعد أن هجرها راعيها، مد يديه باتجاه البركة الّتي قاربت أن تصبح ضحلة وغسل وجهه، لم تنطفِ الحرارة الّتي غزته فأغطس رأسه ليجدّد نشاطه، فهناك الكثير ليفعله في يومه هذا، اتّكأ على سور البركة القصير وقطرات الماء تتساقط من فرْوةِ رأسه ومن لحيته الكثة الّتي لم يحلقها منذ ردحٍ من الزّمن فأصبح مظهره يبدي عليه عمرا أكبر من سنواته التسعة عشر، حدّق في السماء التيِ استحال لونها إلى الأزرق الغامق. عاد بنظره للفناء وقد اجتاحه الحزن لفراق بيتهم الجميل بعد أن أضمر جنود الجزايرلي النّار فيه، فأمسك اللهب بكل أطرافه وأحاله إلى رمادٍ، فتتذكر كلمات أمّه: (النار لا تخلف وراءها سوى الرّماد).

فجأة وفي الصّمت الّذي غمر المكان دوى صوت قرقرة بطنه الجائعة، نهض من جلسته واتجه إلى المطبخ، بحث بين الأواني عن شيء يسدّ به رمقه فلم يجد. فعادت أمّه خديجة لخاطره، فلو كانت معه لأعدّت له ما لذّ وطاب، لكن ذلك غير ممكن بعد أن أخرجها من المدينة فور أن اعتُقِل سعيد، أجبرها على ارتداء ملابسها وهي رافضة للخروج، وقادها إلى قرية ابن سالم بسرعة في الخفاء ودون أن يشعر بهم مخلوق.

خرج من مطبخه الهزيل وهو يجر خيبته، اكتنزت عيناه دموعا وهو يفكّر بأبيه وأمّه وإبراهيم الّذي لم يصله عنه أيّ خبر. ارتدى ثيابه المتواضعة في ظلّ هذه الظروف، تسلّق شجرة البرتقال ثم قفز باتجاه السّور القريب منها، تسلّل من السور إلى سطح المربوعة، قفز من على سطحها وهو يتشبّث بسور

مقدّمتها الذي لا يتعدّى الذراع، أسكن قدميه إحدى الفجوات التي سُرّ بوجودها، ثمّ أكمل طريقه حتى وصل أرض الزّقاق في عتمة الفجر، هكذا هو حاله منذ أن سكن هذا المنزل؛ يخرج ويدخل في ظل الظّلام بعد أن وضع الجنود الأقفال على باب البيت. تحرّك في الزّقاق الهادئ الذي خلا من المارة، قلّب أفكاره في عقله وهو يقطع الزّقاق، منذ أن حلّت بهم الفاجعة وهو في اضطراب وتشوّش، لا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل، وصل المسجد فدخل وجلس يقرأ القرآن إلى أن حان وقت الصلاة، وبعد ان أنهى صلاته خرج من المسجد وسلك طريقه باتجاه شارع الأربع عرصات، قطع عدة أزقّة وقد أخذت الحياة تدبّ في أطرافها شيئا فشيئًا. وعند إحدى تفرعات الأربع عرصات وقف ينتظر، لم يمض الكثير حتى اقترب شاب يحمل شاربا خفيفا على ضوء قسماته الخمرية البارزة، سلّم على عبد السلام بحرارة وقال همسا:

- لأكون معك صريحا، إنّ صديقك الّذي تبحث عنه ليس له وجود في الأوراق والدفاتر.

ارتسمت ملامح الانكسار على قسمات عبد السلام وقال وهو يبحث عن بصيص أمل:

- كيف لا وجود له؟ إنّه مسجون في الساندانار أنا متأكّد

زفر الشاب بصوت مرتفع، وقال:

- ما استطعت أن أصِل له، إن إبراهيم هذا لديه عداء شخصي مع الضابط وإنّه قد تم ترحيله إلى السجن منذ أيامٍ.

ثم أردف قائلًا:

- ولا أعرف هل هو على قيد الحياة أم مات.

مدّ عبد السلام يده وصافح الشاب وهو يقول:

- لن أنسى لك هذا الجميل يا جفارة، شكرا لك.

مضى عبد السلام في طريقه وبعد دقائق من السير وصل للدكان، بمجرد أن اقترب من الدكّان الذي استطاع أن يخلّصه حسن من قبضة الجنود بأعجُوبة، بعد خطبة طويلة ذمّ فيها الخائن إبراهيم بن عمر وأظهر لهم ورقة مزوّرة تثبت ملكيّته للدكان بعد أن اشترى نصيب المتمرّد، دوى صوت حسن:

- أقسم لكم إن لم يقترب زبون سأضمر النار في جمال البغيض وليحدث ما يحدث.

دخل عبد السلام الدكّان وقال بصوت خالٍ من أيّ تعبير:

- السلام عليكم.

قال حسن بصوته المجنح:

- ها قد أتى نصيري.

- ماذا هناك؟

نظر حسن يمينِه وشماله وهو يشرعُ كفّيه وقال بتهكم:

- كما تنظر لا زبائن ولا عمل.

دنا حسن من عبد السلام وقد تبدلّت ملامحه للجادة في غمضة عين، وقال بصوت محموم:

- هل وصلت لشيء؟

- ليس هناك قولٌ أكيد، لكنّه من الممكن قد تم ترحيله إلى السجن.

نطق حسن كلماته بحدّة وكأنّما يريد أن يبزق:

- هناك طابور إعدام في السّاحة عصر اليوم... والحمد الله إبراهيم ليس من ضمنهم.

- ما الحل يا حسن؟

صمت صاحب التعليق على كل شيء في ظلّ هذا السؤال، ثم قال بحرقة قد توارت خلف قناع من الجمود:

- لا أعرف... ليس لنا سوى الصّبر.

قاطع حديثهم رجل دخل للدّكان، ارتسمت بهجةٌ على ملامح حسن وهو يردّ السلام على زبونه المترقب، فقال الرجل بلكنةٍ ليست محليّة

- دكان ابن عمر، أليس كذلك؟

- بلى، تفضل.

- أنا أحمل رسالة من البندقية لإبراهيم بن عمر.

أخرج الرّجل ظرف من جيب قميصه، فقال حسنٌ مستدركا وهو يشير إلى عبد السّلام :

- إبراهيم غير موجود، لكن هذا ابنه.

مدّ الرجل الظرف لعبد السلام فأمسكه دون أن يعقّب بشيء. استأْذَن الرجل وانصرف، قاطع الصمت المهيمن حسن قائلًا:

- من المرسل؟

أجاب عبد السلام بفتور:

- لويز بالتأكيد.

كان الأمر أشبه بمن يشرع كفيه في فراغٍ أسود، يبحث عمّن يواسي روحه في انفصامها العميق، لوهلةٍ أخذ يتساءَل ماذا حل بالمرء الّذي كان عليه فيما مضى؟ من سلب منه بهجتَه ووهَبه كلّ هذا القلق؟ من أخذ منه عفويّته البريئة واستبدلها بكلّ هذا الحذر، بتفكير مستعرٍ وقلبٍ لا يسجو يقضي أيّامه، وقد بات شخصا آخر لا يمكنه أن يتعرّف عليه.

فَلَقَد أَتاكَ مِنَ المُهَيمِنِ عَفوُهُ

وَأفاضَ مِن نِعَمٍ عَليك مَزيدا

(٤٦)

قفز من على ظهر العربة وهو متوشّح زيّه العسكري المهيب، أتاه صوتُ من أمامه بلغة التّرك:

- ها قد أتى الضّرغام يا رفاق

ابتسم الجندي لرؤية صديقه بعد زمن قد أبعدهم، فأجابه قائِلًا:

- كيف حالك يا كمال؟

- جيد، قد أنار سجننا بوجودك

تحرّك الجنديان قاطعان الساحة الكبيرة للسجن، دخلا الباب الحديدي للمبنى، وفور ولوجهم بدأ كمال تلقين صديقه:

- ذاك مكتب ضابط كرغلي حادّ الطبع، نصيحة لا تقربه... الّذي يجلس هناك جندي من صقلّية، هل رأيت ذاك؟

سار مصطفى وهو يكشف بنظره البهو الواسع وصديقه يعلمه بكلّ تفاصيله للمكان وروّاده، قطعا البهو إلى ممر في الناحية الغربية للمبنى، وأثناء سيرهم قال كمال:

- هل لديك أبناء؟

- رستم في السادسة وإدريس في الرابعة

ثم عقّب سائلًا:

- وأنت ماذا تفعل؟ ألا تريد أن تتزوج؟

ضحك كمال حتى احمرّ وجهه، وقال بسخرية:

- أتزوج ؟ لماذا!؟

ركبا درجا مستديرا. وبعد الدرج وجدا نفسيهما في ممر آخر، قال كمال وهو يشير للأبواب الحديدية السّميكة:

- وهنا الانفرادي..

خطا مصطفى خطواته في الممر ذي الإضاءة الهفّة. تفقّد الأبواب وحدّق في قاطني هذه الغرف من النّوافذ الصّغيرة المنبثقة في الأبواب، قال سائلًا:

- ما تهَمهم؟

- قتل، تمرد، سرقة... والذي في الزنزانة الأخيرة لا يُعرَف عنه شيء، لكنه يعلّق كل يوم ويُجلد حتى يُغمي عليه.

اقترب مصطفى من الزنزانة الذي أشار عليها كمال وقال مندهشا:

- لماذا يجلد؟

- لا أحد يعلم...

دنا من نافذة الباب وأطلّ من خلالها، كانت الزنزانة شبه مظلمة، فارغة المحتوى، بلاطها متّسخ ببعض الدماء وفي الزاوية يستلقي المسجون على البلاط الخشن، جسده متقوّس كالجنين يحاول أن يدفّئ نفسه قليلًا، أو يرتاح من إرهاق التّعذيب الّذي يتعرض له، استكمل مصطفى وصديقه جولتهم في السّجن، وبقى إبراهيم مستلقٍ على أرض زنزانته متقوّس بجسده المتورّم، يتأوّه في حين تزخر عيناه دمعا، تنهار الدّموع على الأرضية الخشنة ضائعة مثل صاحبها الّذي لا يعرف له زمان أاو مكان، قد فقد حواسه وإدراكه، ولم يبق له سِوى الفرار من كل هذا بأحلامِ اليقظةِ الّتي أصبح يعيشها كل فينةٍ، يسترجع ذكرياته الّتي خلت من الألم، يتخيل أحبّته الذين أبعده عَنهم الزمن وحظّه التّعيس، لكن بعد القليل من الوقت يعود لحاضره الأليم.

دوى أليل حجر في الزنزانة فجأة، رفع إبراهيم عيناه ليبصِر ما يحدث، فاخترقت حصاة صغيرة النّافذة وتحدّرت بجواره، سمِعَ همسا من الخارج، بقى الهمسُ على حاله لبعض الوقت فزحف إبراهيم بوهن باتّجاه الباب، يصارع للحركة، وصل إلى الباب زحفا، مدّ يده وأمسك به، ضغط على نفسه وتشبّث بالباب ونهض وآلامه تتسلّل بغزارة، لمح الخارج بعينين خائرتين، فوجد الهمس قادما من الزنزانة المقابلة له، حدج النّزيل الذي يتكلم فصُعق من الصدمة ووجد نفسه يتهاوى أرضا، تشبّث في الباب من جديد ونهض، ودرويش الهمالي لا زال يهمس:

- إبراهيم، اسمعني.

قال إبراهيم بوهنٍ والدّموع تعتصره:

- أنا آسفٌ، لم يكن أمامي خيارٌ...

- لا تقل شيئًا يا إبراهيم، جهّز نفسك الليلة...

اختفى درويش داخل زنزانته بعد أن دوى صوت حركة في الممر، تهاوى إبراهيم من جديد واضطّجع في أحد أركان الزنزانة المُوحشة وهو يفكّر ماذا يفعل درويش هنا؟ هل قُبِض على درغوث أيضًا؟ لمَ أجهّز نفسي؟ كلّها تساؤلات ملأت عقله ولم يجد لها تأويلًا وسط كومة الآلام الّتي سيطرت عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفلت العين وحلّ الظلام فاستزادت الزنزانة الجردة عتمةً، استلقى إبراهيم متقوّس الجسد منقطع الأنفاس بعد شوطٍ طويلٍ من التعذيب الذي لا يعرف له سببا، أسماء وقد أفضى بها، أبوه وقد قُتِل، وهو تجرّع ما لا يقدر عليه إنسان، فما الّذي يريده المختل أكثر من هذا؟ هام في خلده والانتظار يخنقه، وفجأة دوى صوتُ إطلاق النار، شيئا فشيئًا ازداد رقص البنادق. عمّت الفوضى في السّجن، أصوت إطلاق نارٍ هنا وهناك، ودوى انفجار مدوٍّ تبعه صوت صراخ الجنود، تسمّر إبراهيم مكانه وهو ينصت لكلّ ما يحدث من الفجوة المنبثقة في باب زنزانته، ارتفع صوت درويش:

- ابتعد عن الباب يا إبراهيم.

زحف إبراهيم مبتعدًا في حين صوّب درويش مسدسا يحمله نحو القفل، ثم انهال عليه بقوة فانفتح كُرها، قال مسرعًا:

- هيّا بسرعة.

كانت الصدمة هي خليفة إبراهيم الواهن، اقترب درويش وأفضى قائلًا:

- تشبّث بي سوف أحملك..

هزّ إبراهيم رأسه والدّهشة تعتَمِره، صعد على ظهر درويش وتشبث.

تحرك درويش خارجًا من الزنزانة وهو يصارع الثّقل والوقت والهلع، قال إبراهيم بتشوّش:

- أنا آسف يا درويش.

- سأفهمك كلّ ما يحدث عندما نخرج من هنا.

تحرّك درويش ببطءٍ وصوت البنادق لم ينقطع، وإبّان سيرهما مدّ إبراهيم يده واستلّ المسدس بسرعة، التفت ووجّه فوهة المسدّس للخلف وأطلق النّار على الجندي الذي أهلّ فجأةً، سقط الجندي مصطفى متأثرا بجرحه، انبعث خيط الدماء وفارت بشدّة من عنقه، ارتمى أرضا يصارع ليلتقط أنفاسه وهو يلطِم أطرافه في الهواء، أطلق غطِيطا مكتوما وقد أحمرّ وجهه وقارب على الانفجار، صارع للحظاتٍ طويلة والدّماء تسيلُ منه، هتف بصيحاتٍ لم يقدر على إطلاقها فبقيت عالقة في حنجرته، سيطرت عليه صور طفليه وزوجته، ذرف الدّموع وهو على حافّة حياته، تمنّى لو لم ينتقل إلى هنا، لكن الأمانيّ لا تتحقّق، شيئا فشيئا أصبح شهيقه يختفي والحراك يقلّ حتى غابت الأنفاس وقُبضت الرّوح، بينما ودّع مصطفى عالم الأحياء كان درويش وإبراهيم قد حلّا بغرفةٍ تشبه المطبخ، أشار درويش لنفّاذة حديدية صغيرة وقال وهو ينزل إبراهيم:

- هذا مخرجُنا، من هنا نستطيع أن نخرج من السّجن سالمين... سأدلف أنا أولًا وبعدها بقليل اتبعني.

أومأ إبراهيم موافقا، فنزل محمّد في النفق الحديدي المظلم، عبّأ إبراهيم المسدس الّذي سفك بحياة أب منذ لحظات وحرم أطفاله منه، حشا المسدّس ونبضه يتسارع وهو يحدّق خلفه بجزع، شعر بأنّ ستائِر عينيه ستتهاوى في أيّة لحظة، دنا من الطّرف الحديدي ودلف بصعوبة داخله، لم يبصر شيئًا خلال رحلته القصيرة، وبعد برهةٍ عاد النّور لعينيه بسقوطه فوق تلّ القمامة المرتفع. إبّانها دوى صوت إطلاق نارٍ حيث سقط، كشف ببصره في المكان فوجد الجندي كمال يشرع بندقيته ودرويش واقع أرضا. سبّح إبراهيم بصعوبةٍ بين أكوام القمامة وصوّب سلاحه نحو كمال فأرداه أرضا، زحف بين أكداسِ القذارة ووجعُه يشتّت تركيزه، رغم ذلك وصل لجسد درويش المسجى، مدّ راحته نحو منقذه ليوقف حمام الدّماء قدر الإمكان، والجندي كمال يتأوّه، أطلق درويش شهيقا طويلا وتنهد قائلا بصعوبة:

- اللالة زنوبيا تبلّغك السلام وتقول لك: جميلك لن أنساه وسيأتي يومٌ أردّ لك جزءًا منه.

ثم أردف متألما:

- اهرب بسرعة قبل آن يأتي أحدٌ.

قال إبراهيم باضطراب قد سيطر عليه:

- سنذهب سويا.

- لا تكن أحمق... هيا اهرب بسرعة.

قاطعه بحدّة قبل أن ينطق بكلماته:

- هيّا ماذا تنتظر...

طأطأ إبراهيم رأسه، صارع للوقوف على قدميه الجريحتين. دنا من كمال وأنهى أنينه فخار المرتزق التّركي مسلّما نفسه لمصيره المشؤوم، ترنّح يمينًا وشمالًا وهو يبتعد، سقط مرّات عديدة وزحف على ركبتيه متألّما، لا يعرف إلى أين يذهب لكنه يجب أن يفرّ بجلده بسرعة قبل أن يعود للجحيم، انتقل بين الأزقة مشيا وتعثرا وزحفا، بكى وانتحب وهو يقطع طريقه في الظلام، لم يعد قادرا على الصبر أكثر من هذا، قد فاض به وشعر بنفسه يهوي على الأرض دون رجعةٍ لمرات عدّة، في الظلام شقّ طريقه وأصواتُ الفوضى تبتعِد عن مسمعه، سلك سبيله نحو الحياة رغم الوجع الهائل، وبعد حربٍ ظنّها قد دامت لسنوات وصل إلى منزل حسن، طرق الباب بصعوبة، لم يكن حسن يكمل فتح بابه حتى هوى إبراهيم أرضا مغشيا عليه بين أقدام نديمه، تهافت حسن مسرعًا، حمله وأدخله. تركه بين يديّ أمه وزوجته وانطلق نحو عبد السّلام بعجل، وبعد جولات من القرع أجاب عبد السلام محتدِما:

- ماذا هناك يا حسن؟

- اخرج بسرعة.

تسلّق عبد السلام طريق خروجه المعتاد قفزا من سطح المربوعة، ثم أفضى بقلق:

- ماذا هناك يا حسن؟ لقد أرعبتني.

- إبراهيم قد هرب من السجن... وهو في بيتنا الآن.

قال عبد السلام باندهاشٍ وفرحة في آن واحد:

- ماذا؟ متى حدث هذا؟ هيا بنا أريد أن أراه...

ثم قطع جملته بوجل:

- كيف حاله؟

- قد أغمِيَ عليه من أثر التعذيب.

- لابد أن الجنود سيبحثون عنه الآن.

قال حسن وهو يعتصر وجهه:

- لهذا أسرعت إليك.

اجتاحهم الصمت فجأة وهما يفكران في الحل، وبعد طول انتظار قال عبد السلام وكأنَما تذكر شيئًا قد نسيه:

- رسالة لويز.

- ما بها؟

- وصلتنا منذ أيام؛ يعني أنّ السفينة الّتي جلبتها قد تغادر عائدةً إلى هناك في أيّ وقت... سأذهب وأتأكّد.

راقت الفكرة لحسن وبعد أن قلّبها في رأسه قال مشكّكا:

- إذًا وجدّتها، كيف سيصعد إبراهيم على متنها؟

هزّ عبد السلام رأسه ثم قال:

- اتركها لي، الذي أريده منك هو أن تجهّز نعشا فورا.

ولم يكد ينهي جملته حتى انطلق عدوا، التفت وهو يحرّك قدميه بسرعة وقال:

- ولا تنس النقود أيضًا.

لا تَيأَسَنَّ مِن لُطفِ رَبِّكَ في الحَشا

في بَطنِ أُمِّكَ مُضغَةً وَوَليدا

(٤٧)

- سيّدي القائد.. تتكلم العربية أليس كذلك؟

أومأ قائدُ السّفينة برأسه موافقا، فأكمل عبد السلام قائلًا:

- كما أخبرتُ البحّار منذ قليل، هناك نعش يجب أن يذهب...

قاطعه البندقيّ مغتاظا بعربية ركيكة:

- ألا تفهم... لا مكان على ظهر السفينة

تجلّت ابتسامةٌ طفيفة على قسمات عبد السلام، التفت للخلف، وأخذ يحدّق في أحد أطراف الميناء المظلم، أشرع سبابته حيث ينظر وقال بهدوء:

- هل ترى ما أراه يا حضرة القائد؟

انبثق استغرابٌ على وجه البندقي الأبيض، أطلق عبد السّلام صفيرا عاليا، وعلى أثره أهلّ رجال من العتمةِ كالأشباح، ناوأت البشاشة وأردف:

- إن أقارب المتوّف حادّي الطّباع قليلًا، وربما يقدِمون على حرق شيء يطفو إذا اضطر الأمر إلى ذلك.

- هل جننت...

قاطعه عبد السلام قائلًا:

- أنا لا أقصد الإهانة، لكن الظّروف قد تجبرك على أمور

أخرج كيس نقودٍ من جيبه ومدّه إليه وهو يقول بحدّة:

- هذا ثمن رحلتنا يا سيدي

حدّق البندقيّ في الكيس وبعد تردّد التقطه في حين قد اختفت ملامح الانزعاج الّتي بدت عليه منذ برهة، مدّ عبد السلام يده وصافحه وهو يقول بكياسة:

- أنا أعتذِر مرّة أخرى، وأريد أن أخبرك أنّي مليءٌ بالمفاجآت، لذلك لا تجرّبني

رحل عبد السلام من أمام البندقي، استقل السلّم الخشبي وقفز بخفة على مدرج المرسى، مسح عرقه بكمّ قميصه وقلبه يخفق بسرعة رهيبة، تجاوز المدرّج وذهب حيث أطلّت الأشباح، ريثما وصل لهم ربّت على كتف حسن وهو يقول:

- هيّا يجب أن نحمل التّابوت على ظهر السفينة

تقدّم يوسف وساسي وصالح وجمال وحملوا التابوت وذهبوا به صوب السفينة، حدّق حسن في عبد السلام وقلبه يجأش فزعا، وقال:

- على ماذا تنوي؟

- السفينة ستنطلق مع أوّل خيوط النهار، أرجو من الله ألا يحلّ الجند بالميناء إلا بعد أن نرحل.

- وأن أتوا قبل أن ترحلوا؟

- أريد منك أنت والرجال أن تقفوا على بعد أزقّة من مداخل الميناء، وإن لمحتم جنديا، صيحوا بأنّكم قد رأيتم الهاربين من السجن وضلّلوهم في الأزقة والأحياء إلى أن نرحل.

غرق حسن في الصمت وهو يقلّب ما سمعه، وبعد لحظات استدرك قائلًا:

- وأنتم ماذا ستفعلون؟

- عندما نصل للبندقية سنذهب لمنزل لويز، إنه صديقه ولن يبخل على مساعدتنا بالتّأكيد.

دنا حسن من عبد السّلام، فرد ذراعيه وأخده في طوقه، همس في أذنه الكلمات الأولى الّتي جمعتهم وعيناه تكتنز دمعا:

- سنكون صديقين جيدين أنا وأنت بدون هذا الأحمق أقسم لك

فكّ حسن أسر صديقه وهو يفرك عينيه محاولًا أن يشغل نفسه بألا ينظر إليه أو للتابوت الّذي أصعده الرّجال ظهر السفينة، قال عبد السلام بحزن:

- كما قلت لك يا حسن، أبقوا على جميع مشارف الميناء.

أومأ حسن برأسه موافقا وهو يشغل نفسه بالنَظر لمياه البحر المظلمة التي لا يدرك منها سوى صوت أمواجها العتيّة، تراجع عبد السّلام ثم تحرّك بسرعةٍ نحو السّفينة، وقبل أن يدلف لسلمها، صافح أصدقاء إبراهيم المقرّبين.

ازداد جزعه بالانتظار، تلاشى حسن ومن معه في الظّلام وكأنّهم سراب قد توهمه في خلده، تشبّث في سياج السفينة بقوّة وهو يحدّق في انعكاس القمر الطفيف على المياه الدّهماء والجزع حليفه.

مع أوّل خيوط النهار فُكّت الحبال وسبحت السفينة في المياه بكلّ دماثة، بعد أن كاد يُغمى على عبد السلام وجلًا.

لو شاءَ أَن تَصلى جَهَنَّمَ خالِدا

ما كانَ أَلهَمَ قَلبَكَ التَوحيدا

(٤٨)

في الرُّواح الهادئ للمدينة العائمة سلك عبد السلام طريقه من السّوق إلى المنزل وهو يمسك بأكياس ملأها بالخضروات، أنقذ البائع وهو يفاصله في السعر بكلماته الإيطالية القليلة الّتي تعلّمها في شهوره الخمسةِ الماضية. طافت بخلده أمّه خديجة وهو في طريق عودته، استحضر صوتها وابتسامتها وهي تمدحه بعد أن يجلب لها طلباتها، قطع الشّارع بخطواتٍ ثابتة وهو يتمعّن النّظر في أرجائه، أثارت إعجابه البندقية بطبعها الغريب لكنّها لم تضاهي لديه المدينة البيضاء قط، قطع الشارع الضيق ثم صعد قنطرة متواضعة مقامة على جدول ماء ضحل، تابع سيره إلى أن وصل إلى أحد البيوت في نهاية الحيّ، طرق بقبضته على الباب ولم يمض الكثير حتى أهلّت الجدة بوجهها البشوش، قالت مبتهجة وعيناها الزرقاء تتألق:

- (Mia nonna) (جدتي)

أجابها عبد السلام بقهقهة:

- (Mia nonna)

ولج عبد السّلام بعد أن ناول الجدة الأكياس، خلع نعليه ودلف للغرفة الأقرب للباب وهو يقول:

- إبراهيم!

دخل الغرفة فوجد إبراهيم مستلقيا على فراشه يطالع كتابا قد جلبه له لويز. كانت الأشهر الماضية كفيلةً بأن تطيّب جراحه، لكنّها لم تفلح بتطييب نفسه المنكسرة، بات كئيبا تكاد أن تلمح أسنانه، لا ينفكّ عن عزلته، نادر الكلام، اقترب من النافذة وأشرع الستائر لينبعث النور في الغرفة، قال وهو يفتح النّافذة المطلّة على جدول الماء:

- لم يعد لويز بعد؟

- لا. أجاب إبراهيم بفتور

هزّ عبد السلام رأسه ثم قال بابتهاج:

- ماذا تريد آن تأكل؟

انتظر الرد لكنه لم يأتِه، استدار خارجًا ليلحق بالجدة في أرض الوطيس، فمنذ أن حلّا بالبندقية وهو لا يكفّ عن مساعدة الجدة أو قضاء أوقاته بصحبتها، يتبادلا الحديث ببعض الكلمات البسيطة المجرّدة، وإن استحال الفهم يكون وصف الأيادي والأسارير كفيلا بالفهم، ذكّرته بأمه خديجة رغم اختلاف ملامحهما وطباعهما أو لربّما لامس الحنيّة ذاتها .

وضع إبراهيم الكتاب جانبًا، فرك بيده وجهه وخلّل عينيه المتعبتين، وضع قدميه أرضا فسارت رعشة بجسده، استنشق الهواء الّذي تخلله ألسنة البرودة. وقف مترنحا فشعر بتقلّصات جسده المتعب، أبعد تلك الشوائب التي لا تأثير لها أمام الأهوال الّتي عاشها، خطا خطواته باتجاه النافذة تشبّث بأطرافها وأمعن النظر، كشف بنظره الطرقات والنوافذ المشروعة، نساء يجلسن بداخل بيوتهنّ تحكن معاطف أو قمصانا، أو تعدِدن طعاما قد تلاقت روائحه في الزقاق، ولم يكذّب عبد السلام والجدة الخبر فبدأت رائحة الطعام تنبعث منهما أيضًا، قطع لويز سرحانه قائلًا:

- مرحبا.

استدار، تمعّن النظر في صديقه بوجه واجم، ثم قال بتحيّر:

- ماذا هناك؟

خلع لويز قبعته باسِما، دنا من الفراش وجلس بعد أطلق زفيرا طويلًا يوحي بالخطر، فقال إبراهيم:

- فعلة خرقاء من أفعالك؟

- نعم..

جلس إبراهيم بجواره وقال بعد تفكير لم يطل:

- تريز أليس كذلك؟

طأطأ لويز رأسه مثل طفلٍ صغيرٍ واقعٌ في مأزق، وقال بصوت منخفض:

- لا أعرف لماذا ألحت بفعلها في وضح النهار؟ وأين ؟ في المستشفى، ذهب كل شيء بشكلٍ جيّد حتى قبض علينا تومس اللعين ونحن...

أردف إبراهيم بيأس:

- وتومس يحبك حبا جما بالطبع، ماذا فعل هذا اللعين؟

- الخسيس لم يتردّد لحظة لجمع كلّ من في المستشفى، بدأ صراخه واستنجاده... وأنا وتريز كما ولدتنا أمّهاتنا

اندفعت ضحكة منه بحرقة وهو يتابع:

- وخلال لحظات كان عددا كبيرا من الناس قد تجمعوا... في حين كنّا نلبس ثيابنا فزعين

- ماذا حدث بعدها؟

- تم فصلنا فورا...

دوى صوت عبد السلام من الخارج وهو يقول:

- Andiamo، Il cibo è pronto))

قال لويز معقبا:

- يقول لك: هيا، الطّعام جاهز

ساعد لويز صديقه للنهوض وهو يقول باسما:

- اتركه هنا قليلًا وسيتحدث الإيطالية أفضل منّي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتح عينيه متعرّقا على أثر كابوس خنيق قد أطبق على روحه، تنفّس الصعداء وهو يتمالك نفسه ويطمئنها، أزال لحافه الخفيف الّذي لم يشبه ألحفة أمه الأثيرة، نهض مترنحا، حدّق باتجاه النّافذة فوجد العتمة لم تنجلِ بعد، تملّكته رغبة بالخروج دون أن يدرك السبب، فلم يكذب خبرا، استعار الملحف الصوفي ووضع قدميه في النّعل، مد قبضته المشوهة وفتح الباب، خرج من الدار في صمت تام، كان السَّحَرُ بعتمته وهدوءه اللطيف قد حلّ، فهجعت المدينة العائمة واستكانت من الصخب، قطع إبراهيم الشارع مسترشدا بضياءِ الهلال الباهت. تابع سيره بخطى متزعزعة حتى وصل إلى جدول الماء، جلس على ضفّة الجدول وخلع نعليه وضع قدميه في الماء، شعر ببرودة لاذعة لكنه أبقاهما وراح يضرب الماء مكونا موجاتٍ صغيرة منبعثة الأَلِيل. قاطع هدوءه الجميل نعيق غراب محلّق على مقربة منه رفع رأسه عاليا وأخذ يتَتبّعه في دجى السّماء الّتي بدت كأنها إحدى جناحيّ الطائر المشؤوم كما تقول أمّه دائمًا، عاد لسكينته بعد أن مرق الغراب بغير رجعةٍ، غرق في بحر ذكرياته المتلاطِمة، محبوبة تعصف به شمالا وأبوه جنوبا، قبلة الخالة مبروكة تضربه شرقا وحكايات الحاج الهادي تلفقه غربا، قد استحضر أمامه في الظّلام كل أحبّته، كل ذكرياته معهم، ضحكة محبوبة، صوت الشيخ ضياء الدين وهو يشرح درسه، نهر أمه على فعلةٍ خرقاء قد قام بها، صوت أبيه يبزغ في رأسه كالبرق، استحضر كلّ شيء حتى فاض به تألما، نهض من جلسته الّتي أصبحت مشؤومة كطائرها بعد تدفّق كل هذه الذكريات الّتي انهمرت عليه حتى أغرقته، أسكن قدميه النّعل وعاد من حيث أتى. دخل الدارِ وأغلق الباب رويدا. نظر أمامه فوجد الجدة تجلس على الأريكة المقابلة للباب. دنا منها وأفضى قائلًا: صباح الخير. بالإيطالية كما علمه عبد السلام. استغرب، فلم يأتِ جواب الجدة أو تنبعث ابتسامتها المألوفة، اقترب أكثر فوجدها ساكنة في مكانها وعيناها ثابتة لا تتحرك. تكلم مرة أخرى فلم يأته الجواب. مد يده نحوها بعد أن انغمس في اضطرابه. ربت على كتفها بلطف، فبقيت على حالتها. غمره الشك، فاقترب أكثر ولمسها؛ لكنها بقيت في سكونها باردة الملمس منعدمة الحياة. أصابه الخرس فلا يوجد مسألة يصعب على المرء حلها أكثر من الخرس الذي يصاب به تحت تأثير الفائض من الشعور.. أي قدر هذا الذي جعل منه وكيلًا للموت، فيحل الهلاك حيث ما وضع قدميه. وبعد لحظات الخرس صرخ بهلع:

- لويز، لويز.

يا راكِبًا قِف بِالمُحَصَّبِ مِن مِنىً

وَاِهتِف بِقاعِدِ خَيفِها وَالناهِضِ

(٤٩)

جلس عبد السلام على الأريكة التي كانت المحطّة الأخيرة لحياة الجدة، قد غادرت الجدة عالمهم منذ أسابيع بسلامٍ تام، تاركةً وراءها البيت أشبه بالخراب بعد زوال ضحكتها الرقيقة:

- يا لويز...

قالها إبراهيم متقطّع الأنفاس وهو يجلس مقابل لويز، فلفظ عبد السلام باضطراب:

- هل تعي ما تقوله أنت أيضًا يا إبراهيم؟

تبادل الثّلاثة نظراتهم الصامتة، ثم قال لويز بتحيّر:

- قل له يا عبد السلام

أفضى إبراهيم بنفاد صبرٍ بعد أن دوى زفيره الطويل:

- لن أبقى هنا مكتوفَ الأيدي أكثر من هذا، لقد عذّبت ورأيت الجحيم بأمّ عيني... رأيت أبي يقتل أمامي وتريدونني أن أنسى كل ما حدث!؟

- لكن...

قاطع إبراهيم عبد السلام بغيظ قائلًا:

- ليس هناك لكن

- هل هذ آخر قولك؟ قال لويز بعد تفكير

- نعم

- أنا أيضًا سأذهب معك إذًا

تنهّد إبراهيم، في حين كانت تنزل قبضته على الطاولة بغضب وهو يقول:

- ماذا تهذي أنت؟

- كما سمعت، أنا معك حيثما تذهب

وقف إبراهيم مكفهرّ الوجه، فكر لبرهة ونطق:

- كفّ على الجنون يا لويز

قهقه لويز بحرقة ثم أضاف ببؤس:

- حياتي هي الجنون بذاته يا صديقي، ماذا لديّ في هذه المدينة المنكوبة الآن لكي أبقى؟ عملي وقد ذهب، جدتي وقد ذهبت...

قرّر عبد السلام أن ينهي الجدال، فقال بحزمٍ يناسب مظهره الجديد ولحيته الكثة:

- ليكن ذلك إذًا، سنرجع ثلاثتنا لطرابلس.

انقضت أربعة أيّام حتى وجدوا سفينة تقلّهم إلى خطوتهم المتهوّرة، فأغلق لويز منزل جدته إلى أمدٍ غير معلوم، غادر مدينته المنكوبة وهو يلتمّس فرصةً جديدة لحياته البائسة مهما كانت المخاطر الّتي سوف تواجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اليابسة انبرت تطلّ في الأفق، أسراب من النورس تحلق على مقربة من السفينة، بياض الأثيرة أصبح باديا بجلاء، ولم تكن بمفردها بل صحبتها المنشية الخضراء والقلعة الحمراء؛ فأكّدت بوجوب تعليقها ضمن لوحات السرايا كما خيّل لإبراهيم يوما، رست السّفينة دون أي عائق، ربطت الحبال حتى سكنت مكانها. أهبط السلم وبدأ الركاب بالنزول بعد رحلتهم الطّويلة، لكن قبل خروجهم من الميناء كان عليهم المرور على الجنديّين اللذين كُلِّفا بفحص الوافدين للمدينة. توالت الأدوار على الحاجز إلى أن حان دور إبراهيم ومن معه، تفرّس الجندي النظر فيهم وبالخصوص إبراهيم، ثمّ قال:

- ما اسمك؟

رنا إبراهيم باستغراب، لوّح بيديه: أيّ لم يفهم، فتدخّل لويز مسرعًا وقال بعربية قد عمد تهجينها:

- اسمه فرانكو لوك، وهو لا يتكلم العربية يا سيدي

صمت الجندي وهو يحدّق بتمعن، فقال لويز مستدركا:

- نحن جِئنا في بعثة طبيّة، أنا الطبيب ميشيل ستوك والسيّدان يعملان معي

فتح حقيبته مسرعًا وأخرج منها ورقة، وقدّمها بثقة قائلًا:

- وهذه الورقة تثبت ما أقوله.

أمسك الجندي الورقة بثقةٍ زائفة، حدّق في محتواها ثم مرّرها لزميله الّذي لم يكن أحسن حالا، قال بعد أن لم يستوضح شيئا من الرموز المطموسة:

- مرحبا بكم في طرابلس

تجاوزوا الجنديين وخواطرهم تستكين، قطعوا الرّصيف وبعده بقليل كانوا خارج الميناء، تنقلوا بين الأزقة والسعادة تتراقص في عينيّ عبد السلام، أمّا عن إبراهيم فلم يكن سوى كتلة حجر منعدمة الملامح، أكملوا طريقهم، وإبراهيم يشعر بأنّ المدينة أصبحت غير المدينة، اين ذهبت طرابلس المتألّقة تحت أضواء الشمس؟ ماذا حدث لها؟

وصلوا لمنزل حسن وطرقوا الباب. لم يمضِ الكثير حتى دوى صوته المجنح من الداخل، ثم فتح الباب، صعق حسن من المشهد، اندفع نحو نديمه وأخذه في طوقه وهو يقول بوجه مشرق وصوت مهلّل:

- الحمد الله.. الحمد الله على السلامة

أفاق حسن من صدمته بعد لحظات، وقال بحرارة:

- ادخلوا، ماذا تنتظرون

دخلوا المنزل، جلسوا وارتاحوا، أكلوا وملأوا بطونهم، وبعد الغداء كانت الجلسة.

- ما حال طرابلس؟

صمت حسن قليلًا وتبسم كاذبا ثم قال:

- الحمد الله..

- ماذا؟

- لم تختلف كثيرا أعمال الجزايرلي وجنده، ذل وسرقة وانتهاك، قد ضاق الحال بالناس، وهاجر الكثير إلى تونس وغيرها من البلاد.

- ما أخبار المقاومة في الدواخل؟

ضحك حسن ثم قطب بحزن وقال:

- مقاومة! أيّ مقاومة هذه، الكل قد هرب واختبأ في جحره

- ماذا حلّ بالدكان ومنزلنا؟

لم يقدر أن يكذب على خليله، فرنا لعبد السلام وقال بضعف:

- ألم يقل لك عبد السلام؟

- لا لم يقل شيئا

قال حسن بتسليم:

- قد أحرق الجند منزلكم... لكن الدكان قد نجا من قبضتهم.

عمّ الصمت للحظات طويلة، إلى أن قال حسن متسائلًا:

- ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

- لا أعرف، لكن قبل كل شيء يجب أن أرى أمّي.

ثم أردف قائلًا:

- ماذا حلّ بالرفاق

- يوسف وساسي ظلا على حالتهما دون جديد يذكر، ولطفي جلبتُه للعمل في الدكان بعد أن تمّ فصله من الجيش

- وصالح؟

- الدوام لله وحده، أصابته عينٌ حقودةَ ومات فجأةَ .

و كأنما همس الموت في أذنه قائلًا: طالما لا زلت تتنفس سأكون أنا في أثرك أينما حللت أيّها الملعون.

سَحَرًا إذًا فاضَ الحَجيجُ إلى مِنىً

فَيضًا كَمُلتَطِمِ الفُراتِ الفائِضِ

(٥٠)

- اعذرني يا ابن أختي

قالها زكريا في ردهة منزل الحاج الهادي، وهو يقلّب النظر بعيْنين جَاحِظَتين، وتبرز وحمة في خدّه الأيسر رغم اختفاءِ نصفها تحت لحيته السوداء الكثة، أومأ إبراهيم فأردف خاله:

- هناك رجل يريد مقابلتك.

- من؟

- اسمه الشريف موسى.

تجلّى الاستغراب على قسمات إبراهيم، فأكمل زكريا:

- على الأغلب أنّك لا تعرفه، ينتظرك في المربوعة

- لنذهب إليه إذًا.

قطعا الردهة إلى الباحة التي دلت الحبال في أرجائها لتجفيف القديد، سلكا الطرف الآخر للبناء، ثم دلفا المربوعة البرحة، دنا إبراهيم من الرجل الّذي يجلس متوركا، سلم عليه، ثم جلس الثلاثة أرضا على أثر صوت زكريا وهو يعرفهما على بعض، كان الشّريف رجلًا يجري في عقده الثالث، ذو ملامحَ فجّة، بارز القسمات، أسمر الأدمة، أعبن، نحيف الجسد، قال الشريف بتودّد:

- الحمد الله على سلامتك يا إبراهيم

- الله يسلمك

- إن الشريف يعرفك جيدا يا إبراهيم... إنه يعرفك منذ أن كنت في الجيش الإيالة

قال الشريف بعد نظرات إبراهيم السّائلة:

- أنا أيضًا كنت ضمن جيش البك حسن، لكنّك على الأغلب لا تعرفني..

- خيرا يا أخي، لماذا طلبتني؟

فغر زكريا ثغره لينطق لكنه تراجع عندما قال الشريف:

- لقد وصلني ما قمت به مع اللالة زنوبيا، والوالد رحمه الله

قال إبراهيم بحدّة:

- لم تقل ليّ ماذا تريد؟

قال زكريا بتردّد:

- إن الشريف قد فقد أباه بسبب علي الجزايرلي

فتابع الشريف وهو يصك على أسنانه:

- وهذا بيت القصيد، لقد فقدت والدي وبعض من قبيلتي وشرّدت عائلتي وخسرت رزقي بسبب هذا الملعون الجزايرلي، مثلك

قال زكريا وقد انبرت ملامحُ ابن اخته تتغير:

- إن والد الشريف قد وقع فريسة عندما قرر الجزايرلي تأديب القبائل وفرض سيطرته في المنطقة.

قال الشريف بحسم:

- أريد أنّ آخذ حقي، وحقّ الكثيرين، وعندما علمت برجوعك دفعت زكريا لنجلس جلستنا هذه

ثم أضاف قائلًا:

- نريد أن نعيد المقاومة بعد أن اختفت يا إبراهيم

قال إبراهيم بقسماته الذي خلت من أيّ تعبير:

- ولماذا أتيت لي؟

قال الشّريف ببسمة طفيفة على شفتيه:

- أظنّ أنه ليس من الغريب على أحدٍ قد انضم إلى جيش البك حسن أن يأتيك ركضا في مثل هذا الحديث

قال زكريا بعمق وهو يرفع حاجبيه:

- هناك قافلة ستمر غدا أو بعده بالقرب من ضريح سيدي السايح، تحمل ما لا يقل عن الخمسين سجينا، ذاهبون بهم لطرابلس، مساجين قد هربوا معك عندما هُجِم على السجن، وآخرون قد فرّوا من المنشية أو المدينة بعد التّهم التّي ألصقت إليهم.

أنهى الشريف ما بدأه زكريا:

- نريد أن نهاجم القافلة ونحرّر الرجال... وهذه ستكون البذرة الأولى للمقاومة، بهؤلاء الرجال نستطيع أن نكون مجموعة تقف ضدّ الملعون ومرتزقته.

انغمس إبراهيم في صمته وهو يفكّر ويقلب أمورا عدّة في خلده، حاول أن يقف ضد رغبته الجامحة لكنه لم يقدر، فتبدّد كل الخوف والتعذيب بمجرد سماعه لهذا الحديث، بدا عليه الاستعداد لأن يعود لجحيم إسحاق بشرط أن يأخذ حقّه. فقال بقسمات جامدة:

- وما خطّتكم لمهاجمة القافلة، وبعد مهاجمة القافلة؟

استعاد الشريف شيئًا من حماسه وهو يقول:

- لم نعدّ خطة دقيقة إلى الأن..

- كم الرجال الذين معنا والسلاح؟

قال زكريا :

- عشرون رجلًا حتى الآن، وعشرة بنادق ومثلهم خيل

- كم عدد الجنود في القافلة؟

- خمسة وعشرون أو ثلاثون أو ربّما أكثر...

تنهّد إبراهيم قائلًا:

- نريد سلاحا وذخيرة، وإذا استطعنا رجالا أكثر

لوّحا برأسيهما موافقين، فأكمل ابن الكخيا:

- وكيف ستدبّرون أمرهم؟

- لا نعرف حتى الآن

فأجاب بحسم:

- اتركوا السلاح والذخيرة لي

تجلّت البهجة عليهما في حين تابع إبراهيم:

- الأهم من هذا، أن نعرف عددهم بالضبط وطريقهم بالتحديد

قال الشريف والابتسامة تتدلّى منه:

- سوف أهتم أنا بهذا.

غادر الشريف مربوعة الحاج الهادي وقد تجدّد لديه الأمل للأخذ بثأره وثأر أبيه. وبعدها بقليل تساءل زكريا:

- من أين ستأتي بالسلاح؟

أجاب ابراهيم وهو يدنو منه:

- أين جدي إذًا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل بستان الحاج الهادي الّذي يرعاه اكثر من أولاده، رحّب به جده الكهل وهو يقول:

- مرحبا بابن أمه، لماذا لا تترك حضنها الدافئ قليلًا وتأتي إلى جدك؟

سخَن الحاج الهادي آبريق الشاي وجلس مع حفيده في مجلسه المعتاد حيث الكوخ الصغير، ثم قال بحماسه الرافض للشيخوخة:

- هيا قل ليّ ماذا تريد يا سليل ابن عمر؟

فأجاب إبراهيم مترددا:

- هل دمّ أبي ذهب هدرا؟

تجرع العجوز الحزن فجأة وكأنّما قد سكبه مع الشاي، فقال:

- الله يرحمه ويغفر له، لقد كان رجلا صالحا... وكذلك أبوه

- أريد أن آخذ حقّي يا سيدي

- إذا أردّته ستأخذه من آلاف الرجال والنساء

ثم استطرد الحاج بهدوء:

- أتذكر يوم العرس كاليوم، كان أبوك في أبهى طلعةٍ وكذلك زكريا بشاربه النّحيف، آه لو تبصر فرحة جدك محمد يومها، كان يقارب أن يطير من السّعادة... وكذلك أنا.

توقف الشيخ وبلع كلماته، حدّق في حفيده بتمعّن وقال بصوت لا تخلوه المشاعر:

- قل حاجتك يا ولدي والله الّذي خلق السموات والأرض لا أرفض لك طلبا ما حييت وإن كلفني ذلك كل ما أملك.

لِقَلَعُ ضِرسٍ وَضَربُ حَبس

وَنَزعُ نَفسٍ وَرَدُّ أَمسِ

(٥١)

استترت الشمس في محجرها منذ ساعات، حلّت العتمة الّتي تصاحبها نسمات هواءٍ عليلة، وعلى مرأى من الأحدب الذي انبثق في السماء سلكت القافلة طريقها وسط دربٍ ترابي قد اكتَسى بالحَصى في الكثيرِ من أطرافه. مضت القافلة مسترشدة طريقها بإسراجه قليلة قد علقت على عرباتها الخمس. نسقت القَافلة بشكل مستقيم بأمر من أميرها التركي المتعجرف؛ خمسة خيالة وعربة إمداد تحتوي على مدفع متوسط الحجم، ثم الشطر الأكبر من جنود المشاة، ثم العربات الأربع التي زخرت بالمساجين، وتابع الشطر الأقل من الجنود العربات، وفي المؤخّرة اصطفّ خمسة خيالة بجياد.

أصبحت معالم الطريق تتغير في الأرض المنبسطة الشّاسعة؛ قد تحولت لممر ضيق واقع بين وادٍ منحدر وتبّة صخرية مرتفعة، لم تغير القافلة من تنظيمها رغم ذلك فاستمر السير، وقائدها بات يتوهّم قاعة العرش أمامه والوالي يرقيه على إنجازه العظيم، ومن سخرية القدر وتعاسةُ حظّ المتعجرف أنه لم يحدق بين أقدام جواده لوهلة واحدة، لم يفكر بأن ينظر للحصى الّذي اختلط بالأسود، دوى صوت أحدهم يقول:

- الطريق مسدود.

رغم الإضاءة الخافِتة إلا أنّه تبين للقائد الحاجز الحجري المرتفع الّذي يسد طريقهم، وفي حين غرّة، تحول الممر الضيق إلى بقعة من الجحيم، تعلت كتلة هائلة من اللّهب لعنان السماء بعد أن دوى صوت انفجار صاخب في عرض الجنود. تطايرت الحصى بصحبة أشلاء عشرات الجنود الّذين فقدوا حياتهم في غمضة عين، مزقت الأبدان، وتناثرت الدماء، وأمسكت النار بأجساد الكثيرين. انبرى صراخ وعويل الجنود يعلو وهم يركضون ويصارعون وسط فوضى عارمة قد حلت. أطلّت مجموعة من أعلى التبّة الصخرية وانفتح انفجار البنادق، لم يكن أحد في القافلة قد أفاق من غلفته بعد، الجميع هلعونٍ والسنة اللّهب تتأجّج أكثر فأكثر. دوى أنين قد تبدّد إلى عواء مع تزايد الألم، تجلّت كرة من النار متمثلة في أجساد الجنود الثملين من المضض، فأخذوا يركضون في كل صوب يستغيثوا برفاقهم، قد تلاشت بعض الأجساد الملتهبة في الوادي السّحيق بعد أن انعدمت كل السبل لتخفيف معاناتهم، هوى بعضهم أرضا بعد أن ظفرت النار بهم وقبضت على حياته البائسة في مشهد مرعب، لم ينطوِ إطلاق النار من الأعلى أو من المجموعة الأخرى الّتي انقضّت عليهم من المؤخرة بعد أن فتكوا بحياة الخيّالة الخمس. وصلت أيدي من لم تصبه النّار إلى بنادقهم وشرعوا يصدّون بها العدوان في حركة أخيرة لشخص مقدِم على الهلاك، دامت النّار في التأجج وقد جعلت الممر المظلم قطعة من شمس الظّهيرة، تقدمت فرقة من الرجال وبدأوا بسحب العربات للخلف وسط تغطية بنادق رفاقهم، خرّت الأجساد وانهمرت الدماء على الحصى المشتعل، اتخذ القائد حصانه المصروع سترا، حبا أرضا وهو يقبض على مسدسه، تابع حبوه بين جنوده المطروحين أرضا يتجرعون آخر أنفاسهم والدماء تخرّ منهم، نظر حوله بهلع وأضمر كلّ التعجرف الذي كان عليه، وجد ألسنة اللهب لا زالت تعلو غير مبالية بالأرواح الّتي حصدتها، لم ينقطع إطلاق النّار الكثيف من أعلى التبة لحظة، وكأنما جيش جرار يصوب نحوهم. فكّر للحظة وهو ينتفض رعبا، نظر نحو المقدّمة ورنا لعربة الإمدادات الّتي سلمت من الانفجار بأعجوبة، التقط أنفاسه بصعوبة وهو يغمض عينيه وبعد برهةٍ انطلق يعدو تجاهها، ركض والطلقات تحذوه أو هكذا خيّل له، تابع ركضه والصراخ يرتفع لعنان السّماء، أهل المدفع على بعد خطوات.

فقال في قرارة نفسه: لربّما أنّه سيغيّر الوضع ويقربه لقاعة العرش الذي استحضرها طوال الطريق، لم يكد ينهي أفكاره المزعومة حتّى هوى أرضا على أثر انفجار رصاصة في دماغه منبعثة من بندقية إبراهيم، لقّم بندقيته من جديد وهو متوارٍ خلف العربة، أسند ظهره على خشبِها وأخذ نظرةً حذِرة على مجريات الأمور، فوجد أنّ الشريف ومَن معه قد نجحوا في سحب العربات منذ زمن، ولم يبق من الجنود سوى ثلاثة أو أربعة قد بقوا يقاومون. تقدّم وهو يصوّب بندقيته نحو جندي قد فرغ من إطلاق النار فأسقطه قتيلا، لم يمض الكثير حتّى بقى إطلاق النار من طرفٍ واحدٍ فقط بعد أن سقط جميع الجنود، خيم الصمت للحظات قبل أن يصيح أحد الرجال:

- سقطوا جميعهم.

بزغت شمس الصباح ولم يبق أثر شيءٍ غير الرماد الجثث المتفحمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألم الأصيل فتوقّفت العربات، ارتبك المساجين أكثر وهم لا يدركون ماذا سيحل بمصيرهم بعد أن شاهدوا المعركة الضّارية بأمّ عيونهم، أشرعت الأبواب، وبدأوا بالنزول، تحرّك الاثنان والخمسين

بتوجّهات من رجالٍ ذوي ملامح قاسية. جلسوا أرضا في صفوف مستقيمة وبدأوا توزيع الطعام عليهم. فانبروا يتناولون ما قدّم إليهم بشراهةٍ غير طبيعية فمنهم من لم يذق الطّعام منذ أيّام، تناولوا طعامهم في صمت الألسن وأسئلة الأعين الّتي لا تنعقد، بعد أن انتهوا من طعامهم تقدّم إبراهيم من بين الرّجال ووقف مقابل الصفوف، جدجهم بنظرةٍ متمعّنة فوجد أغلبهم تمرّ بهم حالة شبه مزرية، صدور عارية لم تجد ما يكسيها، ثياب رثّة هذا إن وُجدت، أوجه متربة ،أجسادٌ واهنة، أقدام حافية، شعور منفوشة قد اكتسى شطرها بالقمل، تنفّس الصعداء ثم قال بثبات:

- لعلكم تتساءلون ماذا حدث، ومن نحن؟

استشْعر همهمات مكتومة فأردف:

- نحن إخوانكم في الدّين والوطن، قد قرّرنا أن نقف في وجه الجزايرلي الرجيم ومرتزقته، جمَعْنا شملنا وحشدنا سلاحنا وبدأنا أوّل خطوة في طريق نضالنا.

لامس أثر كلماته في النفوس فأكمل:

- جميعنا دون استثناء قد طالنا أذى الوالي الملعون، هاجمنا القافلة وبفضل من الله استطعنا تحريركم، وبكم وبهمَم الرجال سنكون فرقةً تقف في وجه الطاغوت وأعوانه.

هيمن الصمت للحظات، وما إن لبث السكوت حتى قال أحد الجالسين متهكما:

- إنك قد أخرجت مجرمين من السجن، فمنّا من سرق ومنّا من قتل...

بتر إبراهيم كلماته قائلًا:

- ومنكم من أخذ ظلما، ومنكم من قبض عليه وهو يدافع على عرضه

حدَج الجالسين بنظرةٍ تطوي فيها كل المعاني، ثم تابع:

- ولكن كل هذا لا يهم الآن، لا يهم من أنت أو لماذا دخلت السجن، أنت الأن كالطّفل الذي ولدته أمه صفحته بيضاء كالثلج، لا علاقة لنا بالماضي، أملنا هو المستقبل؛ ومستقبلنا في الخلاص من الجزايرلي.

أفضى صمته للحظات وعقّب ختاما:

- والآن، من أراد منكم الانضمام فليقف.

خيّم الصمت على أفواه الجميع، تبادلوا النظرات الّتي احتوت في طياتها التردد والقلق والتساؤل، ازداد إبراهيم قلقا وقلبه يخفق بتسارع، أصبح يشعر بأنّ ما كان يخشاه قد حدث وسيذهب كلّ الذي فعلوه هباءً منثورا. وإبّان الصمت وقف رجلٌ في المنتصف، حدق في الجموع متحيرا ثم هتف عاليا:

- ماذا تنتظرون؟ إن الله قد بعثكم للحياة من جديد وأنتم ما زلتم تفكرون!؟

رنا إبراهيم بحمية، وضع يده على صدره وأردف بثبات:

- أنا معكم

وقف آخر بعد لحظات وصاح:

- أنا معكم

ثم آخر وآخر، تغيرت النبرات.. لكن الكلمات ذاتها قد أصدت:

- أنا معكم... أنا معكم... أنا معكم

أخذ الرجال يقفون واحدا تلو الآخر وسط تكبيرٍ مفعم بالحماس، ولم يمض الكثير حتّى كان الجميع قد قرر الانضمام لمصيرهم المجهول.

وَقَرُّ بَردٍ وَقَودُ فَردِ

وَدَبغُ جِلدٍ بِغَيرِ شَمسِ

(٥٢)

أطلق حصان عبد السلام نخيرا وهو يعدو بكل ما لديه، وجاء في أثره عشرة رجال بجيادهم، فكون ذلك الرهط ثورة عارمة بغبار حوافرهم الّتي تدك الأرض. كانت الشمس تعلو معلنة انتهاء الظهيرة في البر الجاف الّذي حلّوا به. وبعد فراسخ قد قطعوها تبدّد الجفاف الفسيح إلى سهول وأودية، فذرعوا دربا جبليا وعرا، وفي المقدمة مرشدهم عبد السلام، مع حلول العصر وصلوا إلى المعسكر الّذي اتخذه إبراهيم ومن معه، كان المعسكر عبارة عن أرض شبه منبسطة في سفح الجبل، تخترقها عدة كهوف ومغارات، عندما اقتربوا من المكان أهلّ عدّة رجال ملثمين وبنادقهم تتدلّى على أكتافهم، ألقى عبد السلام تحية علي البعض وسلم على البعض الآخر، فأكملوا سيرهم في الطريق الواقع بين مرتفعين صخريين والذي كان أشبه بجرح عميق على ظهر دابّة، قال الأورطة باشي درغوث وهو يرّبت على عنق حصانه وقد كان قد تخلص من زيه العسكري الأنيق وطربوشه الأحمر الأثير، وارتدى البسيط من الثياب كما هو حال الجميع

- تالله لقد فعلها ابن عمر..

قال لطفي وهو على صهوة حصانه:

- ليس هناك أفضل من هكذا مكان

أصبح المكان مفعما بالحياة بمجرد أن ولجوا المدخل، مجموعات تتحرّك ذهابا وإيابا تنجز ما وراءها من أعمال، أطلّت بضع غرف في الأطراف والذي أقيمت من خشب النخيل وسقفت بالجريد، أراحوا الخيول في الإسطبل المتواضع القائم على جذعين عتيقين، ترجّل عبد السلام ولطفي ودرغوث خيلهم، وسلكوا طريقا نحو المرتفع في حين بقى الرجال في الساحة، انتهى طريقهم بمغارة فسيحة في قلب الجبل. لم تكن المغارة مظلمة رغم عمقها؛ فأشعة الشمس تتدلّى من مدخلها الواسع كألسنة الأفاعي، وإبان دخولهم كان إبراهيم يجلس مع الشريف موسى على حصيرةٍ بالية يتبادلان الكلام. رنا ابن الكخيا المدخل بعد أن سمع الحركة. فوقف مسرعًا وقال:

- يا ألف مرحبا، الحمد الله على السلامة

جلسوا بعد سلام حار، فباشر الشريف الحديث قائلًا:

- كيف كان الطريق يا رجال؟

حدّق لطفي في عبد السلام مبتهجا وقال:

- جيد.. البركة في عبد السلام

حدق لطفي في عبد السلام باسما وهو يشرع راحتيه:

- عبد السلام أكثر من سلك الطريق إلى هنا يا رجال

- كيف حال حسن؟ قال إبراهيم

أجاب لطفي ببشاشة:

- يرسل لك سلامه الحار ولعناته أيضًا، لكنّه مغتاظٍ بعض الشيء لرفضك مشاركته معنا

قال إبراهيم بأسى:

- هكذا أفضل للجميع

- طمئنا كيف تجري الأمور هنا

- كما ترون بفضل الله قد كوّنا المعسكر، وقسّمنا الرجال إلى مجموعات؛ المؤن، والتمريض، والإسطبل، وبدأنا تدريب من لا يتقنون حمل السلاح، ومع الرجال الذين جئتم بهم اليوم قاربنا المئة.

قال الشريف بصوت يملأه الحماس:

- ولن يبقى الكثير حتّى نباشر غاراتنا

فأكمل درغوث الذي انغمس في تفكيره:

- على بركة الله، وأنا لديّ بضعة غاراتٍ جاهزة للتنفيذ

أضاف لطفي بخفّة ليحد من شدة الحديث:

- أظن أنّ الرجال ستهرب وتنظم للجزايرلي بعد أن أتى درغوث أفندي.

وَأَكلُ ضَبٍّ وَصَيدُ دُبٍّ

وَصَرفُ حَبٍّ بِأَرضِ خَرسِ

(٥٣)

أصدى عزفُ البنادق في الفضاء الفسيح، كانت فرقعةٌ البنادقة تدوي بشكل منتظم معلنة إشراف درغوث أفندي عليها. كان الرجال يقفون بترتيب ودرغوث في منتصفهم بصوته الجهوري، حتى أنّه يعلو على صوت البنادق أحيانًا، باشر الضابط النّظامي تدريبه ولم يتخل عن الشّدة والصرامة المعتادة، كان المعسكر ينبض بالحياة حينما خرج لويز من المغارة الّتي اتّخذها لعلاج المصابين، تخلى البندقي عما اعتاد من ثيابٍ واستبدلها بسروالٍ وسوريةٍ وفرملةٍ سوداء وأنهى كل ذلك بطاقيّة

تاجورية متواضعة، ذاب الغريب بين الجموع مسلما نفسه للمغامرة التي استهواها دون أن يدرك، فانصهر البندقي بين الجمع بلباسه الجديد ولسانه الأعجمي الّذي تحسن بشكل ملحوظ في نطق الكلمات العربية المعقّدة. وضع الخُرج على كتفه وصوت مساعده عبد الباسط يعلو بسخرية:

- أخاف أن تضيع في الطريق أيّها الأشقر وتأكلك الضباع

أجاب الأشقر بسخريّة لم تكلفه عناء الالتفات:

- لا تخف عليّ.. وإن لم تغلق فاك الثرثار سأخيّطه لك

اتّجه للساحة ودنا من إبراهيم الواقف بصحبةِ الشريف، وقال:

- السلام عليكم.

ردّا السلام، ثم قال إبراهيم:

- إلى أين العزم؟

- إلى زكريا، سأجلب النّواقص.

قال الشريف بتردّد وهو يحدق فيه:

- ألا يعرف زكريا النواقص ليجلبها!؟

- لا يستطيع أن يجلبها بمفرده يجب أن أذهب معه.

ربّت لويز على كتف صديقه وقال قبل أن ينطلق ناحية الإسطبل:

- نلتقي قريبا، في أمان الله.

بقى إبراهيم والشريف مكانهما يراقبان سير الأمور، وخلالها انقطع إطلاق النار، واتجه درغوث ومن معه للساحة حيث يقام التدريب والنزلات، قال الشريف وهو يرنو المجتمعين:

- إن الأفندي صارم للغاية.

- وهذا ما نريده، بصرامته هذه سنختصر الوقت والجهد.

- لهذا انتظرت قدومه إذًا ..

لم يجب إبراهيم وخطا باتجاه الحشد فتابعه الشّريف، كان يقف اثنان وسط دائرةٍ كبيرة من المحتشدين يخلعان ثيابهما عدا ما يستر عورتاهما، أحدهما طويل القامة عريض المنكبين، فذكّر إبراهيم بأحمد العملاق لولا الشرخ البارز في خده الأيمين، وكان الآخر أقلّ طولًا وبنيّة من منافسه، صاح الرجال مشجعين:

- فرج، فرج.

أمسك كلًا منهما سيف تدريب، بدآ حركة نصف دائرية وهما يشرعان السّيوف صوب بعضهما، استمرّ الدّوران للحظات قليلة، قبل أن يباغت فرج بجسده الضخم خصمه بحركة خاطفة، تقدّم فرج

بجسده مسرعًا نحوه، وهوى بضربته الأولى فصدّها الآخر بسيفه، سدّد فرج ركلة بقدمه نحو صدر خصمه فاندفع خلفا وارتطم بالأرض بقوّة وسط صياح الرّجال، كان إبراهيم والشّريف قد وصلا إلى الحلبة ووقفا مع المحتشدين، وبعد النصر أسند فرج سيفَه على كتفه وأخذ يبحث في الوجوه بابتسامة ظفرٍ، عندما لمح إبراهيم علق نظره به وقال باسما:

- ما رأيك أن تشاركنا تدريبنا يا ابن عمر؟

هيمن الصمت، والأعين جميعها تتربص بإبراهيم، فغر درغوث فاه لينهر فرج لكن إبراهيم كان أسرع فقال:

- ولمَ لا؟

خلع إبراهيم عمّته وتجرد من ثيابه فأهلّ جسده الذي يحمل بصمات إسحاق بوضوح، تقدم باتجاه فرج، فأصبحت الحلبة أشبه بمدرّج روماني يعجّ بجمهور متعطّش للقتال، قال فرج:

- أنا أعتذر مقدما إذًا أقدمت على شيء متهور.

ثم أشرع كلتا راحتيه وتابع بتحدٍّ:

- لكن الرّفاق يحبون الحماس.

- دعنا نبدأ، فالرّفاق كما قلت يحبون الحماس.

التقط إبراهيم السيف الّذي سقط من الرجل منذ قليل، أمسكه جيدا بقبضته. أشرع كلا المتبارزين سيفيهما، تبادلا النظرات، والأقدام تزحل في حركة دائرية. رفع إبراهيم سيفه وسدّده بقوّة، صدّ فرج الضربة وحاول أن يغير عليه بضربة مباغتة لكن إبراهيم صدّها بكل سهولة، بدأت السّيوف تتلاقى يمينًا وشمالًا مطلقةً هتافها بين الجموع المترقّبون. توالى التسديد والصد من كلا الطرافين. أصبح إبراهيم أكثر تسديدا لحظة بعد أخرى، إلى أن أجبر فرج على التراجع أمام تسديده الكثيف، وفجأة سدّد إبراهيم ضربة جنبية مباغتة جعلت نصل فرج يحلق مبتعدًا عن قبضته، ثم صوّب لكمة متينة جعلت الضخم يترنح فاقدا لتوازنه، وهوى أرضا بعد رفسة محكمة في ساقه وسط همهمات الرجال وهتافهم المحموم:

- إبراهيم، إبراهيم.

وقف ابن عمر يأخذ أنفاسه ثم دنا من فرج ومد يده مساعدا له، وقف المتباريان وصوت التشجيع يعلو، فقال فرج بإجلال:

- صدق من لقبك بالبطل.

تجلت ابتسامة طفيفة على شفتي إبراهيم وقال:

- الرفاق يحبون الحماس ليس إلا...

و لم يمض الكثير حتى انبرى يعلو صوت درغوث ليعيد الصفوف لرشدها، التقط إبراهيم ثيابه وقبل أن ينصرف دنا من درغوث، وهمس له قائلًا:

- هل رأيت هذه الحركة من قبل؟

أجاب درغوث بتكبر:

- نعم، قد أوقعت بها ولدا طريّا من قبل، هل تعلم أن هذا الساذج كان يظن أنه سيهزمني؟

وَنَفخُ نارٍ وَحَملُ عارٍ

وَبَيعُ دارٍ بِرُبعِ فِلسِ

(٥٤)

زخت شمس الأصيل على الطبيب البندقيّ فزادت من حمرته تحت عمامته السوداء الّتي حلت مكان الطاقية المتواضعة، امتطى حصانه منذ حين واتجه نحو قرية ابن سالم، ليلتقي بزكريا. أبطأ الحصان من عدوه في التّل المخضر بعد أن زم لويز اللجم. سيطر الخضار والمراعي على بصره فور حلوله أراضي ابن سالم. باتت الأشجار تتضحو بثمارها المختلفة معلنة الحياة، بدّل نظره فالأفق بسكون وهو يرى كيف قامت المراعي بدور الحراس وهي تحيط بالبيوت البسيطة، أيقظه صياح فتاة من غفوته، كشف بنظره حوله فوجد مصدر الصوت، فتاة جاثية على الأرض ملتفة بردي قطني زهي اللون يسمّى (سبع سلاطين) وتلبس بخنوق ([35]) مزيّن بعُقل جميلة، ويستلقي بجوارها صبيّ. اقترب لويز بحصانه ثم ترجل عنه بخفة، عندما اقترب أكثر وجد خيط دماء يسيل من الصّبي الذي يطلق تأوّهات تألما، فقال لويز بصوت جهور:

- السلام عليكم، ماذا حدث يا أختاه؟

أجابت الفتاة بوجل:

- لقد انزلق من أعلى المنحدر وارتطم بالحجر

- خير، خير إن شاء الله، هل تسمحين لي..

أومأت الفتاة موافقة. دنا وهو يطأطئ رأسه احتراما فلن ينظر البندقيّ لمرأة في طرابلس وخصوصا بعد الكلام الّذي قاله عبد الباسط له، جثا على ركبتيه ورفع ساق الصبي بلطف، ألقى نظرة سريعة على الجرح، ثم خلع عمامته فأهلّ شعره الأشقر معلنا ضياءه حيث أشعة الشمس تداعبه. قطع جزءًا منها وأخذ يمسح بها الدماء، قال بأدب للفتاة:

- المعذرة، هل تأتيني بقربة الماء الموجود في السّرج

لوحت الفتاة بلهفةٍ. التقطت القربة وناولتها للويز. بلل لويز الخرقة وراح يمسح بها ساق الصبي النحيفة، ولما تبيّن له الجرح قال مطمئنا:

- لا تقلقي، سمحاق ولكنه ليس عميق ولم يبلغ العظم

أكمل مسح الدماء ثم لفّ ما بقي من عمامته على الجرح. أعاد قدم الصبي أرضا. وقف وعيناه بين قدميه ثم قال:

- إنه صغير لا أنصح بخياطته، سيلتحم وحده

ثم أردف:

- أنصحك بالمراهم حتى يساعد على لحمه، وأقربهم إلى ذلك العفص... أستطيع أن أحضره لك

قالت الفتاة بحشمة:

- شكرا لك، لقد أتعبناك معنا.

- لا يوجد تعب.

تراجع خطوتين، وقال بذات اللياقة:

- هل تريدين أن أساعدك في حمله؟

- شكرا لك.

نظر لويز لها للمرة الأولى: رشيقة الحواشي، متوسطة الطول، سمرتها كستنائية شهية، لون سليلة المنشية التي شوهتها الشمس ودبغتها بهذه البشرة النبيذية الغامقة، كانت الأضواء تتراقص على بشرة الترقوة الناعمة عندم أطلت تحت الردّي. تمعن لويز فيها ونسى كل ما قاله عبد الباسط، فهام في عينيها البنيّتين الواسعتين، غاص في قسماتها الودودة الكفيلة بأسر القلوب قبل الألباب. قال مستدركا توهانه بها وتمنى لو كانت البرهة دهرا ليشبع من جمالها الفائق لكل وصف:

- كما تشائين.

تراجع وهو يسرق النظر قدر الإمكان للفتاة التي لم تتكبد سوى برهة لتأسر فؤاده. قالت الفتاة باحتشام:

- شكرا لك، أنا ممتنّة لك.. تأمّل فيها إبداع الخالق ثم قال:

- السلام عليكم.

امتطى حصانه، وكزه بقدمه وانطلق يعدو، لم يستغرق إلا القليل حتى وصل إلى منزل زكريا. وجد زكريا ينتظره في المربوعة كما كان الاتفاق، أفشى لويز السلام فلم يكن من زكريا إلا أن يفكّ عنان حصانه ويمتطيه، وانطلق الحصانان باتجاه طرابلس لجلب النواقص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت الرحلة بيسر وهما يتبادلان أطراف الحديث:

- ألم تتزوج في بلدك يا لويز؟

- نعم، لم يشأ الربّ بذلك.

قهقه زكريا بوجهه الخمري وهو يقول:

- من يدري من الممكن أن تجد ابنة الحلال هنا.

تبدّدت ملامح لويز في غمضة عين وقال بجدية:

- حقا؟

ربّت زكريا على عنق حصانه وقال مستدركا:

- نعم فيوجد نصارى كثر هنا..

هدَأت ملامح لويز رويدًا، ثم قال سائلًا:

- هل الإسلام يحدّد موصفات الزوج؛ أقصد إذا كنت مسيحيّ الاسم فقط لا أقوم بشعائره أو أذهب إلى الكنيسة..

- أي رجل غير مسلم لا يزوّج لمسلمة.

- لنفرض أنّ نصرانيا وقع في حب مسلمة...

- مرفوض هذا العبث يا صديقي سامحني يا صديقي لو فعل هذا الفعل القبيح نصراني مع أهل بيتي سيكون دمّه حلالا لي حينها.

وكز حصانه فراح يعدو مخترقا للسهل الفسيح، شرد لويز للحظات في نفسه وانغمس بالتفكير في المجهول الذي حل به مع تلك الحورية الّتي أسرته في غمضة عين، شعر لحظتها بأنّه سمكة خائرة القوّة قد وقعت في شباك صياد لا يخطئ التصويب.

وَبَيعُ خُفٍّ وَعَدمُ إِلفٍ

وَضَربُ إِلفٍ بِحَبلِ قَلَسِ

(٥٥)

اخترقت أشعّة الشمس النافذة الهشّة وتساقطت على رأس لويز المتدلّي على كتفه وهو غارق في سباته، فتح البندقيّ عينيه ببطء وهو يتحسّس الحرارة على وجهه المتعرق، اعتدل في جلسته وهو يستعيد رشده رويدا، نظر حوله فوجد زكريا مضطجعٌ بجواره غائصٌ في نومه ومصباح كان نائما في فراشه ساكنا منعدم الآهات، والآلام الّتي سيطرت على ليلته التّعيسة، أخذ يستعيد صوابه ويتذكّر ما حل به بالضبط، فتذكّر أنّهما عادا من طرابلس بعد أن ابتاعا الأغراض المطلوبة، وفي طريق عودتهما غربت العين وحلّ الظلام فقرّرا بأن يبيتا في القرية وينطلقا إلى المعسكر في الصباح الباكر، لكن هذا لم يحدث، فبعد أن تناولا طعامهما في المربوعة وغطا في نومهما. أيقظتهما طرقات على الباب في آناء الليل، فتح زكريا الباب وبعد برهة قال للويز:

- نريد منك المساعدة يا لويز، إن أخي مصباح مريض..

و لم يمض الكثير حتى حلّا بغرفة مصباح القابعة داخل بيته البسيط الذي لا يحوي سواها وحمٌّام متواضعٌ، أزال زكريا اللحاف عن جسد أخيه فانبعثت رائحة كريهة وتواجدت تقرّحات بشعة بلونها البنّي والأسود، ولم يخلُ الأمر من فقّاعات مليئة بالقيح تنتشر بكثافة في جسد مصباح القعيد؛ الّذي أصيب بالشلل منذ سنوات. فقَضى لويز ليلته يداوي جراح مصباح إلى أن أخذه النوم بغتة.

بقى لويز على صمته يراقب الفراغ وصورة الفتاة تداعب عواطفه الجياشة، مد يده نحو جيبه وأخرج علبة سجائره، رنا الأخوين النّائمين وهو يفكر، وبعد فينة وجد نفسه يتحرك باتجاه الباب. فمن الممكن أن يخرج ويدخن سيجارة طالما خلا البيت من النساء، لم يخطُ خارج الغرفة سوى خطوتين فقط، وفتح باب البيت وولجت منه الفتاة ذاتها التي التقى بها عند التل وهي تحمل سُفرة طعام. أصابه الذّهول، بل كاد أن يقتله وهو يراها متجلّية أمامه، قال في نفسه هل أصابه الجنون لهذه الدرجة؟! هل هذه أوهام من كثر تفكيره بها؟! مضت الثواني وكأنهما دهور وهو ينظر إليها. تجلّت ابتسامتها المفعمة بالحياء الذي أسر فؤاده، حدّق فيها باندهاش فضيّع وكأنما قد أصابه مسّ شيطاني، محتويات السُفرة تهتز، أصوات أطفال تدلف من الخارج بشكل منتظم، غطيط زكريا على خلفية المشهد، نظرت الفتاة أمامها ببطء فوجدت الشخص الّذي ساعدها، يصيبها الذهول والدّهشة هي الأخرى وفجأة، عادت الثواني تمضي بسرعتها الطبيعية من جديد، وضعت الفتاة ما بين يديها على المصطبة خوفا أن تسقطها على أثر المفاجأة. بقى لويز على صمته والدهشة تزداد لا تنقص، عادت الفتاة بنظرها نحوه، فقال لويز بصوت مضطرب:

- أنتِ الـ..

أجابت الفتاة بخجل:

- نعم أنا ذاتها

تصبب عرقا وقد زاد ارتباكه أكثر وكاد قلبه أن يعطل من شدّة خفقانه. قال بذات الاضطراب:

- أنا أحلم...!؟ ماذا تفعلين هنا، آه... آ أقصد ماذا...

- أعلم أنها صدفة غريبة لكن هذا الرّجل طريح الفراش يكون والدي

- والدك!

أومأت بحياء ونظرات لويز لم تنقطع حتى إنّها ارتبكت وقالت بتوتر:

- لقد جلبت الإفطار

أجاب وهو يستعيد القليل من صوابه:

- لا زالوا نائمين

زاد ارتباك الفتاة فقالت:

- إذًا سأذهب أنا الآن..

تبادلا النظرات الصامتة لبرهة قبل أن تتراجع الفتاة وتعود من حيث أتت باحتشام. تبعها لويز إلى الخارج، شعر بأنّ حلمه يضيع منه، ففكر بسرعة والفتاة تبتعد. وقال:

- لا تقلقي على والدك إنّه بخير

توقفت مكانها والتفت؛ فعادت الحياة للويز من جديد. قالت بتردد:

- حقا!؟

- نعم، حالته ليس بالخطيرة سيتعافى خلال أيّام... أنا الطبيب لويز

- نعم أعلم... لكن لم اكن أتوقّع أنك أنت الّذي ساعدتني

عاد قلب لويز يخفق بقوة، قال والابتسامة تزداد اتساعا:

- كان يجب عليك أن تتركيني أساعدك لإعادة الصبي

ثم تابع:

- وكيف حاله الآن؟

- بخير..

أومأت وبسمة خجولة تدلت من شفتيها، انطلقت تبتعد بحركة سريعة بعد أن أدركت نفسها أنّها قد أطالت الوقوف مع الرجل الغريب، أشعل لويز سيجارته، وشرع في تدخينها وهو لا يكاد يصدق ما حدث للتّو . بقي يتابعها بنظره وهي تختفي ناحية منزل الحاج الهادي، كان يتمنى لو أطالت الوقوف وتبادل الكلام معها، تمنّى لو بقيت لبعض الوقت حتى يشبع منها ومن نضارة جمالها الفاتن. هام لوقتٍ طويل بها قبل أن توقظه كلمات زكريا الحادة : لو تجرّأ نصراني على أهل بيتي سيكون دمه حلالا لي حينها، ماذا سيحدث لو عرف زكريا بأمره؟

بقِيَ يراقب الحقول الّتي تطل هنا وهناك، أشجار بمختلف ثمارها قد تفرقت وتقاربت بقاعها، صبية يلعبون تحت ظلالها وآخرون يركضون مبتعدين عنها. صوت بعض الحيوانات تخترق الأسماع بين فينة وأخرى، قاطع سرحانه الّذي طال زكريا قائلًا:

- منذ متى وأنت مستيقظ.

- منذ قليل.

اقترب زكريا وجلس بجواره وهو يلوّك بيضة قد التقطها من السُفرة، قال لويز بهدوء بعد أن هجست له فكرة وأشرع في تنفيذها:

- يجب علينا العودة للمعسكر، لا نستطيع أن نتأخر أكثر من هذا.

- ومصباح؟

انهمك لويز في صمت وتفكيرٍ مفتعلٍ، ثم قال:

- لقد تجاوز الخطر وبقى العلاج الّذي سيداوم عليه فقط.

ثم استطرد سائِلًا بلا مبالاة كاذبة:

- هل لديه ابن أو ابنة؟ أستطيع أن أخبره ماذا يفعل وبعد أيّام أعود لأطمئنّ عليه.

صمت زكريا قليلا ثم وافق على اقتراحه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربط الحمار بحصانه كما فعل سابقا، جهّز دابته وأمسك بالعنان وزكريا في طريقه إليه، قد استطاع بدهاء منه أن ينعم ببعض الوقت مع فتاته وهو يلقنها ماذا تفعل، ولو كان اللقاء خنيقا بوجود زكريا ومصباح، نعث لها وصفة السكر والعسل، ودهنها لأماكن التقرحات بالإضافة لوصفة الكركم المطحون، أخبرها بلزوم حركة جسد أبيها الساكن بين الفترة والأخرى حتّى لا تعود التقرحات من جديد.

كان الأطفال قد تجمعوا عندما أُخرجت الدواب من حظيرتها، تواجدوا صبية بطواقي بيضاء وصبيّات بشعور مضفورة. جثا لويز على ركبتيه وهو يسلم على إحدى الصغيرات، وقال لها مبتسما:

- ما اسمك يا حلوتي.

- منصورة.

أخرج قطعة حلوى من جيبه، ثم قال لها بذات اللطف:

-إن هذه الحلوى أعطتها لك... آه، نسيت ما اسمها.

غرق في تمثيل مصطنع ثم تابع:

- ابنة عمك مصباح... ما اسمها، يا الله لقد نسيت اسمها.

قالت منصورة ببراءة:

- سارة.

ابتسم لويز وهو يمسح على شعرها:

- نعم نعم سارة، بالضبط.

ركب دابّته وكذلك فعل زكريا، وانطلقا إلى المعسكر. وقلب لويز يتراقص فرحا وخصوصا بعد أن عرف اسم التي خطفت قلبه وعقله، أثناء مرورهم من أمام بيت مصباح، حدّق في البيت علّه يلمحها لمرّة أخيرة، فوجدها تطل من خلف الباب في خفوت، وعندما تقابلت العينان أقفلت بابها بسرعة خجلا، أو هكذا تخيّل لويز وداعه مع سارة بنت سالم التي اختطفته إلى حيث المجهول في غمضة عين... فربما تقتادك صدفة لم تكن تبالي بها إلى واقع لم تكن تفكر به.

و إبّان طريقه استحضر صوت عبد الباسط وهو ينشد:

أشــركْ وألــبس تَحــت البَخُنــوق

المحـــزِم خـــاوي جُوفَـــه

مـــن صُــغره.. قلــبي محروق

إمهبِلنِـــــي.. بكلوفـــه

أَهوَنُ مِن وَقفَةِ الحُرِّ

يَرجو نَوالا بِبابِ نَحسِ

(٥٦)

في غياهب لِيْلة لا قمر فيها، بالقرب من ساحل المنشية كان إبراهيم ومن معه من الرجال قد اتّخذوا موقعهم يترقبون عدوهم لمباغتته كما هي الخطة. كمن الرجال خلف الأشجار الكثيفة للطريق الترابي الطويل، والبعض الآخر تسلق الأشجار وتوارى بين أغصانها. سكنت المنشية وأطرافها، وقد بدأ الكسل يتسلّل للألباب لطول الانتظار، بقي الطريق غارقا في سكونه قبل أن تجتاحه سنابك الخيل معلنةً وصول تعيسي الحظّ الذين سيلقون حتفهم، بتقدّمهم ازداد انغماسهم في الفخ المعدّ بإتقان. رمى إبراهيم بشعلةِ نار في عرض الطريق فتتابع البارود سبيله وأخذ الطريق يشتعل كما حدث في المرّة السابقة. وفي ذات اللحظة افتتح إطلاق النار عليهم من كل صوب، تفجّرت البنادق وانبعثت منها سالبات الأرواح كالمطر نحو الجنود المحاصرين، فالطريق مسدود بكومة من الخراب، لم يتوقف إطلاق النار لبرهةٍ ولم تعرج النار عن التأجّج أكثر. انبرى جندي وراء الآخر يتهاوى قتيلًا إبّان الاشتباك الكثيف، حاول بعضهم المقاومة لكن ذلك لم يدم طويلا، فهم في العراء لا ساتر لهم وأيّ عدوّ يتصدون له وهم لا يبصرون سوى شرار بنادقهم في الظلامٍ، استمر دوي البنادق وصراخ المصابين، زادت النار تأجّجا بعد أن وُجِدت جثث المصروعين فاحمةً. ولم يمض الكثير حتّى اختفت المقاومة ومن بقي على قيد الحياة من السرب الطويل ولّى الأدبار هاربًا، لكن ذلك لم ينجح لأن زكريا ومن معه كانوا ينتظرونهم فوقعوا في الأسر جماعةً مسلّمين أنفسهم للقدر. قَفز الرجال من مواقعهم وبدأوا بتمشيط ساحة الوطيس، عاد زكريا بعشرة جنود مأسورين لابن أخته وسط تكبير مفعم بالحماس، قال زكريا بنشوةِ نصرٍ جامحة:

- ماذا نفعل بالأسرى يا إبراهيم؟

حدج إبراهيم العشرة المنبطحين أرضا بصمت، توجّهت الأعين صوبه منتظرين قراره، تابع زكريا قائلًا:

- أقول أن نطلب فيهم فدية..

قال إبراهيم وهو يتقدم نحوهم:

- سنفعل معهم الصّحيح بكل تأكيد

دنا منهم أكثر، فتبينت ملامحهم الفازعة وهناك البعض منهم قد بال في ثيابه خوفا، رمقهم بازدراء، وفجأةً، أشرع مسدسه وأخذ يطلق عليهم النار تباعا. انتهت ذخيرة المسدس فقذفه أرضا واستهلّ غيره من أحد الرجال، وتابع إطلاق النار إلى أن سقط العشرة مصروعين، تقدّم زكريا مفزوعا وهو يقول:

- ماذا فعلت؟ إنّه الجنون..

أجاب إبراهيم بنفاد صبرٍ:

- هل كانوا سيفعلون معنا غير ذلك؟ أم نسيت ماذا حدث لأبي؟

ابتعد إبراهيم ثم هتف بصوت جهوري:

- اغنموا ما تجدونه، بسرعة..

لا أحد ينقلب بغتةً، كل ما في الأمر، أننا نخور بعد طعنات الحياة الموجعة، فيتبدّل المرء الصالح الّذي ازدهر في حضرة وليّ صالح إلى حيوان شرس لا يعرف سوى لغة الدماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قافلة الضرائب تسير مسترشدةً طريقها ببضعةِ سُرُجٍ، حمل بعض الجنود الشعلات لإنارةِ دربهم قدر الإمكان وسط العتمة الموحشة، سيطر الهدوء منذ أن سلكت القافلة طريقها فلا وجود لأيّة عوائق، لكن ذلك الهدوء لم يدم طويلًا، فدوت أصوات خيلٍ تقترب فجأةً، صاح البولوك باشي ([36]) المسؤول عن القافلة في حين كان حصانه الأسود يجول يمينًا وشمالًا:

- تأهّبوا..

نفّذ الجنود أوامر قائدهم فأخذوا مواقعهم وجهّزوا أسلحتهم، صوّبوا فوهات البنادق نحو المقتربين وأصوات الخيل لا زالت تدوي وخصوصا بعد أن عم صمت الترقب الذي امتلكهم، ازداد التّوتر بالانتظار، وقبل أن يعطي القائد أمر إطلاق النار، علا صوت من بعيد:

- لا تطلقوا النّار نحن معكم، نحن قوة جاءت للمساندة.

لم تتغيّر مواضع الفوهات المستعدة إلى أن أهلّ الزي العسكري من بعيد. اقتربت القوة شيئا فشيئا، وكان يتقدمهم قائدهم على صحوة حصانه الأبيض. عندما ظهرت القوة أكثر اطمأنت القلوب وسكنت بعد الهلع الذي أصابها، ترجل القائد من على حصانه، وكانت رتبته بارزةً رغم الضوء الخافت، عدّل طربوشه الأحمر، وتقدّم ناحية قائد القافلة الّذي يساويه مرتبةً، قال بعد التحية العسكرية من الطرفين:

- لقد أرسلنا من طرابلس خصّيصا من أجل مساندة القافلة، وهذا مكتوب الإرسال.

أخرج ورقة من جيبه وناولها لقائد القافلة، قال القائد بعد أن طالع محتويات المكتوب:

- مرحبا مراد أفندي، كم عدد الجنود الّذين معك؟

أجاب درغوث الّذي عاد إلى زيه القديم متخفّيا، بكياسة:

- عشرون وهذا ما موجودٌ في المكتوب، سيدي.

أومأ البولوك باشي قائلًا:

- نعم أرى ذلك، كما أرى أنّك ستقود القافلة إلى أن نصل.

- بالفعل.

أشار درغوث بيده لرجاله الّذين تنكّروا في زيّ جنود للانضمام إلى صفوف القافلة، وبعد لحظات باشرت القافلة حركتها من جديد بقيادة البولوك باشي المزوّر، تحرّكت القافلة في هدوء من جديد، رجعت البنادق لمواضعها السابقة بعد زوال الخطر، فاستكان الجنود وقد شعروا للحظات بهلع المعارك يقترب.

قال القائد محدثا درغوث:

- غريب يا سيد مراد لم نلتق من قبل.

فأجاب درغوث بحنوة رأس خفيفة وقال:

- بالفعل غريب هذا الأمر.

نظر في وجه البولوك باشي وتابع:

- أستميحك عذرا يا سيّدي في هذه..

أخرج مسدّسه من محجره وفجّر رأسه، هوى جسده أرضا واقعا من صهوة حصانه. وكان العشرون الآخرون ينتظرون الإشارة للتنفيذ، أطلقوا النّار على الجنود العزل في لحظة واحدة، أصدى صوت الرصاص وسقط الجنود أرضا وغرقت الأرض بدمائهم، فزعت الخيول وصهلت إبّان المجزرة التي حدثت في غمضة عين. فعاد درغوث برجاله العشرين دون أن يمسسهم أذىً بعد أن غنم كل ما وجده في القافلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء ذاته، لكن الجو لم يكن بذات الهدوء فقد دوى صخب عدد من الألسنة معلنة عن مشاجرة أعراب في وقت غريب ومكان أغرب. كانت المشاجرة تدور على بعد أقدام من السانداناار الذي يقع غرب المدينة على طريق تونس. عندما تصاعد الضجيج عن الحد خرج خمسةُ جنودٍ بطرابيشهم الحمراء ليفضوا الخلاف، دنا الخمسة وبنادقهم تتدلّى على أكتافهم، وقبل أن يفعلوا أيّ شيء أُطلق عليهم النار فخرّوا مصروعين، في الوقت ذاته كانت مجموعتان قد اقتحمتا السانداناار من طرفيه، دوى اشتباك بين عبد القادر ومجموعته والجنود الذين استيقظوا في آناء الليل على إطلاق النّار. اخترق الرجال صفوف الجنود واستطاعوا أن يدخلوا السانداناار عنوة، دامت الاشتباكات لبعض الوقت، وقد ارتوت أرض المنشيّة بدماء الجنود مرّة أخرى، صاح عبد القادر بعد آخر جندي قتيل ببندقيته:

- أخلوا المبنى، أخلوا المبنى.

خرج الرجال مبنى السانداناار وسط إطلاق نار كثيف، وبعد التراجع وجه عبد القادر المدفع الّذي تم غنمه من قافلة المساجين وأطلق النار نحو الصرح العريق. تهشّمت بعض أجزاء المبنى على أثر القذيفة الأولى، لقّم عبد القادر ومن معه المدفع من جديد ودكّوا المبنى مرّة أخرى، تهاوت القذائِف على المبنى وغناء البنادق لم ينقطع إلى أن سقط أنقاضا على رؤوس من بقي داخله، وبعد الظفر الساحق الّذي حققه عبد القادر ومجموعته عادوا أدراجهم وفي صفوفهم قتيل وأربعة مصابين فقط لا غير..

يا مَن يُعانِقُ دُنيا لا بَقاءَ لَها

يُمسي وَيُصبِحُ في دُنياهُ سَفّارا

تقدّم شاويش ذو صوت جهوري على رأس الموكب، وقال:

- حضرتنا علي أفندي الجزايرلي.

دخل علي الجزايرلي قاعة العرش مع فوج من الحرس والمماليك، تقدم بين الأجساد المنحنية إلى أن وصل كرسّيه المذهب، و جلس الوافدون للقاعة وسط نظرات علي الحادة التي تقفز من عينيه الجاحظتين، لم يدم الصمت طويلًا حتى صاح الجزايرلي بقسماته الكريهة حانقا:

- ما هذا العبث الذي يحدث؟

تكلّم بك الجيش ونبرة صوته متوجسة:

- سعادتك المعضلة تكمن بأننا لا نعرف مكان المخربين، فهم يهجمون على غفلة ويختفون كسراب.

أشار علي أفندي إلى الخوجة ([37]) وقال متهكّما:

- أسمِعنا ما لديك.

بسط الخوجة أوراقه وباشر في القراءة بصوت جهوري:

- قافلة بحوزتها ستّون سجينا تمّ الهجوم عليها ولا ناجٍ من فرقة الحراسة. قافلة الضرائب بحوزتها الآلاف من الدنانير ولا ناجٍ من فرقة الحراسة، فرقة تمشيط من الخيالة والمشاة فُقِد أثرها في المنشية ولا ناجٍ منها، هجوم على السّاندانار ودكه ولا ناجٍ أيضًا، بالإضافة إلى حملات طعن في أماكن عدة..

وقف علي أفندي من كرسيه مغتاظا، حدّق في بك الجيش وقال بازدراء:

- سلّم كل ما يخص منصبك للحاجب، أنت معزول.

- كما تشاء سعادتك.

نطق بها البك المعزول ثم أدبر خارجًا من القاعة والعرق ينهمر منه.

عاود المغتصب بالجلوس، حملق في مستشاريه وهتف بنفاد صبر:

- ما وظيفتكم أنتم إذًا؟ ائتوني بحلٍ.

تطارحت الأعين النظرات القلقة، ثم أخذت الآراء تتوالى:

- نجهّز حملة قوية تهاجمهم.

- نحن لا نعلم مكانهم، كيف سنهاجمهم؟

- هذه ليست مشكلة، لكن كيف سنسيّر هذه الحملة إذا كانت الخزينة لا تتحمل نفقتها؟

- نعم، نعم، الخزينة شبه خاوية لا نستطيع أن نسيّر قوة وخصوصا بعد مهاجمة قافلة الضرائب.

تضاعف التوتر بزيادةِ الآراء، وازداد الجزايرلي اغتياظا. وسط الارتباك القائم قال حميد بيّ، ذو الشنب الكثيف:

- أنا لديّ حل سعادتك.

- ما هو يا بيّ؟

- نحتلّ جزيرة جربة سعادتك .

تهامس الجميع:

- ماذا؟

فأردف حميد بصوت جهوري:

- نحن نواجه مشكلتين في وقتنا الحالي، المتمرّدين الّذين لا يكفون عن غاراتهم المباغتة، وعجز الخزينة لتسيير حملة كبيرة، أليس كذلك!؟

فتابع بعد لن لمح أثر كلماته في الجموع:

- وباحتلال جربة تُحلّ جميع مشاكلنا، الجزيرة خيرها وفير ونستطيع احتلالها بسهولة لعدم حصانتها.

قال الخوجة توفيق متردّدا:

- هذا يسمى عدوان وسيتدخل مولانا الخليفة.

داعب حميد شنبه الكثيف ثم قال بثقة:

- كانت جربة فيما سبق تتبع لطرابلس وبهذا لن تتدخل الدولة العليا في شأن داخلي للولاية.

هيمن الصمت للحظات قبل أن يتابع حميد قائلًا:

- نحن في الوقت الرّاهن لا نستطيع أن نردع المتمردين كما سمعتم بك الجيش السابق، ولتيسير حملة ضخمة تقدر على الصّمود لفترةٍ طويلةٍ خارج الأسوار يجب أن نزوّد الخزينة بالخيرات.

اعتدل الجزايرلي في جلسته وقال بعد تفكير طال:

- رأيك صائبٌ يا حميد.

ثم أردف بحماس:

- سأعين قره محمد أميرًا للجيش لاسترداد جربة لأحضاننا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الليل قد حلّ عندما نزل حميد بيّ بمساعدة عبده من العربة، خطا بين أشجاره المثمرة لمزرعته القابعة في المنشيّة، وصل للبيت ذي الطّابع الريفي، فتقدّم العبد بخفة وفتح الباب لسيده. ولج حميد وهو يداعب شنبه، وفور أن دخل الردهة سمع صوتا يقول:

- لم تتأخّر كثير يا بيّ.

دخل حميد لغرفة الاستقبال الواسعة، ووجد إبراهيم يتوسّط إحدى الأرائك، يضع رِجْلا فوق الأخرى، تابع إبراهيم قائلًا:

- هل جرى ما خطّطنا له؟

جلس حميد على الأريكة بجوار إبراهيم وقال متقطّع الأنفاس:

- نعم... وسيرسل القره محمد على رأس الجيش.

- جيد.

فأفضى حميد بخواطره:

- ولكن أين مصلحتنا باحتلال جربة؟ فجزء كبير مما قلته في الاجتماع كان حقيقيا.

أجاب إبراهيم بابتسامة سخريّة:

- كنت أظنك أذكى من هذا يا بيّ، صحيح أن الخليفة لن يحرّك ساكنا باحتلال الجزيرة؛ لكن حمودة باشا والي تونس سيفعل، وبهذا نضمن عودة العائلة القرمانلية لساحة النّزاع من جديد، فهم الآن تحت حماية حمودة باشا، بالإضافة لنقص قواته وضعها هنا مما يتيح لنا السيطرة.

قال حميد بقلق:

- لكن لا تستهن بهذا اللّعين، إنّه ماكرٌ لأبعد الحدود ولا يظهِر كل أوراقه حتى للمقربين منه

قال إبراهيم بنفاد صبر:

- أين هديتي إذًا؟

أجاب حميد بنصف ابتسامة:

- إنه في الكوخ ينتظر الجارية المليحة كما وعدته

- من الأفضل ألا أتأخّر عليه إذًا.

وقف وحمل الصّرة التي بجانبه، خرج من البيت إلى الفناء المشْجِر، قطع طريقه بين الزرع إلى أن وصل لكوخٍ أنيقٍ متوارٍ بين الأشجار، فتح بابه ودماؤه تسري في عروقه بجنون، ولج الكوخ فوجد الضابط إسحاق نصف عارٍ يجلس على الفراش، نظر إسحاق لإبراهيم بهلعٍ لا يصدق ما يبصر، وقبل أن يقوم بشيءٍ انقض عليه إبراهيم مثل الغضنفر وانهال عليه بالضرب، جَندله أرضا والدماء تتسايل منه، صوب نحوه الرّكلات حتى عُمِي بصره من شدّة المضض. أمسكه من رقبته وبدأ يجرّه والدماء تتدفّق من جروحه بغزارةٍ، كومه فوق الطاولة شبه مغشي عليه، فتح الصرة الذي جلبها معه بجنون، وأخرج منها مطرقة وقضيب مدبب. صاح مغشيا عليه بجنونٍ حاد:

- هل رأيت هذه، انظر لها... انظر يا ابن العاهرة

ثبّت كفه وانهال عليه بالمطرقة، حتى اخترق النصل الكف وانغرس في خشب الطاولة، فعل المثل مع يده الأخرى ونشوة النصر تطغي عليه، قال وهو يلهث من فرط الضرب:

- هل رأيت هذا يا ابن الباغية، سوف تتمنى الموت ولن تذوقه.

وبعد أن فاض به من ضربه وتعذيبه، صوّب نصل ختامي نحو ذكره وانهال بالمطرقة ببأسٍ شديد، فانغرس النّصل في العظم وبقى إسحاق ينزف وهو يتجرّع الألم إلى أن مات.

وبعد أن سلبت روحه رمى بجثّته إلى الكلاب تنهشها، حتى لا يبقى له أثر يذكّره بأيام الجحيم تلك.

إذًا لَم تَجودوا وَالأُمورُ بِكُم تَمضي

وَقَد مَلَكَت أَيديكُمُ البَسطَ وَالقَبضا

(٥٨)

داعبت عينيه الّتي أصبحت متيقّظة لكل شيء أشعّة السحر الخافتة. فور أن فغر عينيه انتصب من جلسته وأمسك بسيجارة وأشعلها، قد أصبحت السجائر قبل كل شيء في أيامه التّعيسة، أخذ نفسا عميقا وحبسه في صدره، تأمّل الجمر الصغير الّذي يحرق التبغ مطلقا دخانا يردّ الروح لمدمنيه، أكمل تأمّله في العلامة الّتي يتركها في كل غارة يقوم بها هو ورفاقه. استحضر كلمات أمّه: النار لا تخلف وراءها سوى الرّماد، قال في قرارةِ نفسه: إنّه هو النار وهرطقة الجزايرلي هم الرّماد الذين سيخلفهم وراءه.

أكمل سيجارته ونهض من فرشته البالية. خرج من مغارته مع بداية الفجر الهادئ، فاكتسى ذاك البساط الّذي لا نهاية له بزرقاء خافتة. كانت الروح بدأت تدبّ في المعسكر، فهناك من يسلّم سلاحه لرفيقه معلنا أنّ فترة حراسته قد انقضت، وهناك من اكتسى وجهه بالنعاس ورغم ذلك يمشي مترنحا بين الصخور. ذهب إبراهيم لحوضِ المياه الّذي شيدوه بعد أن شقوا قناة بلحاء الأشجار لنقل ماء العين إلى المعسكر .

في الباكور أهلّ عبد السلام بحصانه الّذي لقّبه بجحفل وبصحبته جمع من الرجال، قد عاد عبد السلام بعشرةِ رجال طلبوا الانضمام للمقاومة وقد شاركهم طريق العودة زكريا ولويز اللذين قضيا ليلتهما في قرية ابن سالم، وفور وصولهما انطلق زكريا لابن أخته، فوجده يجلس مع الشّريف والرجل الأسمر ذو الطباع الحادّة عبد القادر ،فقال زكريا:

- لقد خرج جيش من طرابلس باتجاه جربة

ربّت إبراهيم على كتف خاله وقال:

- أعلم بذلك

فقال الشّريف موسى بحماس:

- والآن قد حان دورنا لنُقَصِّصَ أجنحتهم

و أضاف عبد القادر بنبرة صوته الفريدة:

- حرب الخفاء ستنتهي، الأن سنهاجم علنا وبقوة

قال زكريا بريب:

- ما الخطة الآن؟

تأمّل إبراهيم السؤال طويلًا ثم أجاب:

- سنقصّ أجنحتهم، سنسيطر على الدّواخل والقرى آملين أن ينظم إلينا أهلها.

دخل عبد السلام المغارة لاهثا والهلع متجسِّد في قسماته، وقبل أن يطرح أحدهم عليه السؤال: لمَ كل هذا الرعب، مدّ قصاصة ورق لإبراهيم، أمسكها إبراهيم، شرع بقراءتها، تبدّدت أساريره، وبعد لحظات من التوتّر، قرأ على رفاقه ما أثار حفيظته:

- قد خرجت مجموعة أخرى غير الّتي علمتم بشأنها، باتجاهكم وهذه كانت مفاجأة لي ولكم، وأعلمكم إنّهم قادمون لكم بهدايا كثيرة وعددهم كبير على منزلكم ولا طاقة لمطبخكم بإطعامهم

أضاف عبد السلام بقلق:

- زاجلة قد وصلت قبل قليل من طرابلس.

فَماذا يُرَجَّى مِنكُمُ إِن عَزَلتُمُ

وَعَضَّتكُم الدُنيا بِأَنيابِها عَضّا

(٥٩)

سمع حمحمة حصانِه رغم الزحام، احتشد العشرات بخيولهم وعلى أقدامهم معلنون خلوّ المعسكر من قاطنيه. خرج المعسكر بكامل عتاده في موكب كبير. قد أرسل إبراهيم خاله زكريا ليقود الموكب ليلتقوا في المكان المتّفق عليه. استحضر زكريا وهو على صهوةِ حصانه اجتماع شيوخ القبائل الّذي أقيم في مربوعتهم منذ ساعات، وبعد أن توافد الشيوخ الثمانية دوى صوت إبراهيم:

- هناك خطر آت لنا جميعنا، رجس الأعمال قد تجسّد في الوالي الّذي يسمى الجزايرلي يا أسيادي، وإن هذا الملعون قد جهّز جيشا قويا متّجها نحونا. ولأصدقكم القول إن هدف هذه الحملة هو إبادتي أنا وأخوتي في المقاومة، لكن هل ستقف الحملة عند ذلك فقط ؟ والله إنّي قادمٌ للنصرة والنصيحة من أسيادنا وشيوخ أمرنا، أن وصلت هذه الحملة ونجحت في هدفها سيهجمون عليكم وينهبون خيراتكم لأنّكم حينها ستكونون متفرّقين غير قادرين على رد العدوان.. نحن في صف واحد جميعنا وكلّنا متضرّرين من هذا الوباء.

علا همس الجالسين فأضاف ابن عمر قائلًا:

- قد وصلتكم أخبارنا وما قمنا به ونحن قلّة، ما بالكم ونحن في وفرة السلاح والرجال.. أعطوني ما أطلب وسأجلب لكم النصر والأمن والأمان لبيوتكم وخيراتكم يا أهل الخير.

ارتفع صوت أحد الشيوخ منفعلًا:

- هل وصل بك الحال إلى هذا القدر يا حاج الهادي؟ أنا وقبيلتي أبرياء منكم وممّا تفعلون، يكفينا ما فقدناه.

نهض الشيخ ميلود بجسده الهزيل متكئا على عصاه، تحرك باتجاه الباب وخرج دون أن ينطق بحرف آخر، بخروج الشيخ ميلود ازداد التوتّر والهمس داخل المربوعة، قال شيخ بدين الجسد جاحظ العينين يسمى الجفلو:

- فليرجع الجميع من حيث أتى ليست لنا طاقةٌ بالوالي وجنوده

وسلك درب من سبقه.

هيمن الصّمت من جديد وطغى القلق، فقال الحاج الهادي بحزم بعد أن فاض به وهن الشّيوخ:

- ماذا؟ هل جميعكم أصبح يحب الوالي الآن؟ هل نسيت ماذا فعل بك يا شيخ صابر؟ هل نسيت ما حلّ بك يا حاج محمد؟ هل نسيتم جميعكم؟

بعد كلمات الهادي الزاجرة نهض شيخ مكفهر الوجه وقال:

- أنا معك يا ابن عمر فانظر ما أنت فاعل

وبعده بقليل نهض الشيخ صابر وقال:

- انا وكلّ قبيلتي معك يا ابن عمر

شاهد زكريا توالي الشيوخ للانضمام مع ابن أخته الّذي لا يكف عن إظهار المفاجآت في أحلك الظروف، عاد زكريا لواقعه وللموكب المسلّح، سمع درغوث يقول بفظاظته المعهودة:

- كم عدد الرّجال الذين سينضمون لنا؟

أجاب زكريا بتردّد:

- لا أعرف... لكنهم كثر

استطرد درغوث بحنق:

- كثيرون، أي أن أغلبهم لا يعرفون الحرب وفنونها، ممّا يعني أنه خلل في صفوفنا... مما يعني الهزيمة والتنكيل بجثثنا

قال لطفي بابتسامة مبتورة:

- لمَ كل هذا التشاؤم؟

- هذه الحقيقة أم ظننت أن انتصاراتنا أتت من فراغ

قال عبد القادر بصوته الخالي من المشاعر دائمًا:

- سنجد حلًا بالتأكيد، والمكان الّذي نحن في طريقنا إليه يدل بأنّ إبراهيم قد أخذ احتياطه لكلّ شيء يا رفاق

قال الشريف الّذي اقترب بحصانه من المتكلمين:

- صدقت القول، دعونا نسمع من إبراهيم أولا، ومعنويات الرجال قادرة على فعل العجب، لا تنسوا ذلك

كانت هذه المجموعة تتصدّر الموكب ثم تتوالى الأدوار حتى تصل في عبد السلام حيث يمينه لويز ويساره عبد الباسط الذي ذكره بحسن كثيرا، قال عبد الباسط:

- هل تراهن يا لويز؟

- على ماذا؟

- على أننا سننتصر، وسندخل طرابلس وسنسبي جواري الوالي الحسناوات

انطلقت ضحكةٌ من عبد السلام لا إراديا، ثم قال بسخرية:

- إذا سمعك إبراهيم تقول هذا، سيسبيك أنت شخصيا

وبعد قليل أردف عبد السلام قائلًا:

- لم تقل ليّ يا عبد الباسط ماذا ستفعل عندما ندخل طرابلس؟

أخذ نفسا عميقا وقال بحنق أطفال:

- لولا القسم اللعين الذي أقسمت عليه لسبيت ذلك اليهودي ابن الزانية الذي أدخلني السجن، ولكن هذه سنّة الحياة يجب أن نحلف على أقسام لعينة

قال لويز بسخرية:

- إنك لم تجاوب على السؤال في الحقيقة

- نعم، سأبحث على ما أقتات منه أنا وعائلتي، فقد انفطر قلبي من فراقهم يا أصدقاء

جالت خديجة والبيت الّذي أكلته النار في خاطر عبد السلام، وطافت رائحة الجدة والمعشوقة سارة في خاطر لويز، لكن عبد الباسط أيقظهم من غفلتهم قائلًا:

- هل تظنون إني أستطيع أن أستثني هذا اليهودي الحقير من القسم؟ اذهب اضربه وحطّم بيته فوق رأسه، ثم ارجع إلى القسم الجميل الطيب ولن أفعلها مجدّدا؟

ارتسمت ضحكات مكتومة على وجوههم فأكمل عبد الباسط:

- لا؟ إذًا ما رأيكم إذا أرسلت له رجالا يضربونه وبهذا أنا لن أخالف قسمي اللعين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل الموكب للمكان المنشود، وقد وجدوا إبراهيم ينتظرهم بصحبة عدد من الرجال وآخرون في الطّريق إليهم، ترجل الرجال عن خيلهم وارتاحت الجموع. كان إبراهيم ينغمس في الحماس والقلق في ذات الوقت. تقدّم نحو رفاقه وسلّم عليهم، وبعد السلام حان وقت كلماته التي ستبث الروح المعنوية من جديد، رتب كلماته ثم تقدم نحو الجموع وبجواره الشريف. وفجأة، دوى إطلاق نار. بزغ مسدس ولمع تحت أشعّة الشمس، وراح دخان إطلاق النّار يتصاعد من الفوهة الحديدية، رصاصة

تنطلق بسرعة نحو إبراهيم والشريف. يتهاوى الجسدان أرضا. عمّ الارتياك والصخب. صوّب عبد السلام بندقيته مسرعًا نحو صاحب المسدس، وأخرّه قتيلا. ركض نحو الجثّتين الهامدتين. كان يصرخ بعلو صوته لكنّه لم يستبين كلماته.. سمع في أذنه كلماتٍ كانت كفيلة بأن تغيّر مجرى حياته:

- هل تريد أن تترك هذه الحياة البائسة وتعيش مثل بقية الخلق؟

دنا أكثر من الجثّتين، طغت على بصره بركة الدماء الّتي تجمّعت بجوار الجسدين. تهدمت أركانه وهو يشعر بعدوّه الحقيقي في المكان، شعر به وهو يشرع لسانه هازئا، باتت تذعره فكرة الموت، الموت الأخير والفرصة غير متاحة بغتة. أصبح يرعبه جدا تساقط الأجساد من حوله وهو ينتظر أن يحين دوره، أبعد هواجسه قدر الإمكان.. وتقدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الرابع)

يا دنيا كوني سلاما على الصالحين...

(عبد السلام)

وتَستَرجِعُ الأَيُّام ما وَهَبَتكُمُ

وَمِن عادَةِ الأَيّام تَستَرجِعُ القَرضا

(٦٠)

لا أستطيع أن أتخلى عن ذكرياتي في شارع الأكواش المريرة. مشاهد وذكريات تداهمني كل ما أمعنت التفكير في نفسي، أحاسيسٌ قد صحبتني لفترة من الزمن حتى بعد أن مدت لي يدُ الرّحمة وأصبح لديّ أهل وأناس يحبّونني ويخافون عليّ. لم أكن أتجاوز العاشرة حينها، رثّ الملبس، حافي القدمين، فارغ البطن، وواهن العظم، أتسلل كل ليلة في الخفاء إلى أحد الأزقة المتوارية كي لا يقبض عليّ. أرمى بجسدي نحو أكوام القمامة المتكدّسة التي كانت بمثابة النعيم حينها، أضمِر جسدي الهزيل فيها من أعين رجال الساندانار الّذين يجوبون الشوارع، وتتزين أيديهم بهراوات قادرة على الإيقاع بثور جامح في غمضة عين، ففي تلك الأيام بدأ هؤلاء الملاعين حملة قد أطلقها الوالي ليقبض على أمثالي، فنحن نعيق الأمن على حد قولهم، حتى إنهم أمسكوا بالكثير من رفاقي ولا أعلم ماذا جرى لأغلبيتهم، كانت تلك الأيام عسيرةً بحق، لم أعهد إبّانها سوى الجوع والخوف.

لكن رحمة الله لم تنقطع، فقد تجلّت في المساعدات الّتي ينفعنا بها الأخيار والطيبون من ملبس وطعام. وأقربهم لقلبي أولئك الذين يحبّون الله ويقيمون الولائم لذكره، لم أغب على أيّ وليمة قط، أحضر الذكر كما سمعت أحدهم يقول يوما، فأنا لا تهمني المسمّيات الفارغة؛ بل تهمني تلك المشاعر الفيّاضة الذي تجتاحني برفقة الأخيار الّذين يحبون الله، والأهم من كل ذلك هو الطّعام الشهي الّذي يقدّمونه. كنت أقف بجانب الرّجال وأفعل كما يفعلون، أهوي برأسي يمينًا وشمالًا وأردد:

- الله الله الله..

كانت تلك الليالي مفعمة بالحماس بحق، رجالٌ بمختلف أعمارهم وملابسهم، يصيحون ويدعون بطاقة لم أستطع أن أبصرها في بقعة أخرى سواها. كل الفوارق تذوب في حضرة الحي القيوم فلا وجود لبيّ أو باشا أو ابن زنا أو لقيط، فالجميع سواسية، تمنّيت يوما لو كانت الدنيا أجمعها في ذكر لا ينتهي كي تختفي كلّ تلك الشوائب الّتي تجوب بين الناس، ننتهي من رقصنا أو ذكرنا أو ما كان المسمى الصحيح لذلك، أنطلق بسرعة نحو الطّعام الّذي يقدمونه بالمجان وكنت دائما أوّل المزاحمين عليه، أتلم ما أعطى لي وإذا استطعت الزيادة أستزيد ثم أفرّ مسرعًا.

لم تكن علاقتي مع الله مختصرة في تلك الولائم فقط، بل كانت المساجد أيضًا تهواني، أماكن عطرة نظيفة وتُلافي المرء من أشعة الشمس اللافحة. أتمدّد في أحد أطراف قاعة الصلاة ذات البساط الناعم وأغرق في النّوم، وإن لم أكن ناعسا أبقى مستلقيا مستمتعا بالراحة. لكن غالبا تلك الراحة لا تدوم طويلًا، فيأتيني عامل المسجد ويطردني، كانت المعاملة تختلف؛ فبعضهم ملاح الطلعة يأتون بلطف

لابزجر وأوقات كانوا ينفعوني بطعام، وبعضهم أقل لطفا وقليلهم يزجر وهذا النوع على الأغلب كانوا يستعملون أيديهم لتقليعي، وأحيانًا أجد خرزانا تهوي عليّ وكنت دائما أمطرهم بالحجارة فور أن أبصرهم خارج المسجد. لكن قاعة الصلاة لم تكن وحدها مكان الراحة؛ بل كانت الأروقة الباردة جميلة خصوصا في أوان الظهيرة.

تعلمت كيفية الصلاة عندما كنت في السابعة تقريبا، فقد علمني إياها رجل طيب لم أعرف اسمه ولم ألتق به مرّة أخرى. وجدني مقرفصا في الرّواق وقد لاحظ نظراتي للناس الذين يصلون، فدنا مني وتحدث معي، كان حديثه جميلا وكأنما لسانه ليس كلسان البشر. لقنني الوضوء والصلاة، وبعد أن انفضت الصلاة نفعني بمال وقال:

- إن استعصت عليك الأيام قل: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.

ومنذ ذلك الحين لم أكفّ عن الصلاة أغلب الأوقات، ولم يسلم مسجد في المدينة من زيارتي. زرتها جميعها وجرّبت نعومة سجاجيدها وأهواه شيوخها. ولم تكن المساجد هي الملاذ الوحيد فهناك الكنائس أيضًا، رغم إنّي لم أهوها إلا أنّني زرتها وجربت طعامهم بالطبع. حضرت لمرات عديدة القداس الّذي يقام وكانت الطقوس غريبة نوعا ما بالنسبة لي لكنها لا بأس بها إن وفرت الطعام والراحة. وفي يوم ما أوقفني كاهن ذو لحية كثه فقلت بالطبع، كما وُجد الطرد في المساجد فانه يوجد هنا، إلا أنّ الكاهن لم يطردني وأخذ يسترسل معي في الحديث ،عرف اسمي وأخبرته بقصّتي التي أصبحت أشعر أن جميع أهالي طرابلس يعرفونها، نسيت تقريبا أغلب الحوار الّذي دار إلاّ إنني لم أنسَ سؤال الكاهن:

- هل أبواك نصرانيان أم مسلمان؟

لحظتها استدرك الكاهن نفسه واستطرد حديثه بشيء آخر، إلا أنني لم أقدر على نسيان ذاك السؤال، بقيت لأيّام طويلة وأنا منغمس في التّفكير، أجلس في إحدى طرقات السوق وأتابع تيار السابلة، من أبي بين هؤلاء الرجال؟ من أمي بين هؤلاء النسوة؟ رحلا عن الدنيا أم لا يزالا فيها؟ هل يعرفاني أم يجهلانني؟ لماذا قذفاني في الطريق بليلةٍ لا قمر فيها؟ هل أنا ابن حرام كما يقول الكثير؟ هل والدَيّ قد اجتمعا في علاقة محرّمة وأنْجِبت أنا منها؟ ولا تنفكّ الأسئلة عند ذلك وحسب بل كانت كالبحر الهائج تأخذني معها إلى حيث المجهول والبؤس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المسدّس بزغ تحت أشعّة الشمس، دخّان البارود يفوح من الفوهة الحديدة. شعرت في تلك الثواني الّتي مضت ببطء فضيع، شعرت بأن يده لم تتنشلني من الضياع، أوجست بأنّني قد عدّت من حيث أتيت. لمحت نقطة البداية تعود ويؤوب معها ذلك الفراغ القاتل والقلق الجامح والفزع المسموم الّذي كان يصاحبني في أيّامي العصيبة، لكن الله قد استجاب لدعائي كما استجاب من قبل، رأيته يحرّك يديه بتراخٍ، أزاح جسد الشّريف الصّريع من عليه وهو يكتسي بدماء شريك كفاحه، أبصرته كما لم أبصره من قَبل، فوجدّت هلعا فضيعا متجسّدا في ملامحه، لمحت الجحيم يتبعثر من شزر عينيه، لكنّه لم ينبس ببنت شفة.

دفنّا الشّريف دون غسل فقد احتسبناه عند الله شهيدًا، أقيمت الجنازة وسط ارتباكٍ خانق. الجميع لا يدرك ما الذي حدث أو كيف حدث بهذه السرعة. كان مطلق النار الّتي أردته قتيلًا من ضمن العشرة الجدد الذين جلبتهم بنفسي للمعسكر، فقتل المندس واختفى سرّه معه، وأثناء الظروف المحيطة كانت

الأعداد تتزايد لحظة بعد آخرى، عائلات تنضم، جماعات، فازداد العدد حتى قلت لنفسي إنه لن يتوقف، تجمعت عوائل وقبائل كثيرة تحت رايةٍ واحدة كما لم يحدث من قبل، فلم يستطع أحدٌ أن يوحّدهم بهذا الشكل قط. أو ربما الظلم والخوف قادرين على فعل العجب.

لم تكن الأعداد المتزايدة فقط المثيرة للتفكير بل الأرض الّتي حللنا بها أيضًا. اختار إبراهيم وادي الهيرة للمعركة وهو وادٍ يجري في بعض فصول السنة بغزارة وعلى ضفتيه تتواجد سفوح جبيلة تخترقها في بعض أجزائها الأشجار والأعشاب الجافّة وفور أن انتهينا من الارتباك، جمع إبراهيم قواد العوائل المنظمة لمناقشة الخطّة الّتي وضعها وكنت أنا بين حاضري الاجتماع الذي أقيم تحت ظل شجرة سدر عتيقة. استهل إبراهيم يشرح التفاصيل ويجاوب على الأسئلة المطروحة، وبعد نقاش لم أشارك فيه، انفضّ الجمع؛ كلٌ حيث المهمة الّتي كلف بها. لم تكن المهام مختصرة على وقت المعركة فقط بل كانت جلّها تجهيزا للمعركة. أمّا أنا لم يكن لي سوى اختيار العناصر الذين سيقمون بالمهمة معي. تحركت مبتعدًا عن ظلال الشجرة نحو الجموع المتفرقة، بحثت عن صحبتي لويز وعبد الباسط وأثناء سيري وجدّت يد تربّت على كتفي مشجّعة. التفت فوجدته زكريا، فتدلت منه ابتسامة وهو يقول مشجعا:

- نحن نعتمد عليك يا بطل..

فور أن ابتعد وضعت يدي في جيبي وأخرجت المنديل الّذي منحتني إياه خيرية. قربته من أنفاسي و أخذت أستنشق رائحة الخزامي الّتي تفوح منها على الدّوام. عدّت إلى رشدي وأعدت المنديل لجيبي وانا أحدّق في زكريا المبتعد و أقول في نفسي: آه لو يعلم أنّني متيّم بابنته..

فصدعت أنغام أنشودة في جوفي وأنا أتابع سيري:

مــا يعجبــك في الزّين زين الصُورة

زِين البَــرمبُخ خايخــات قعُوره...

إِنَّ الغَريبَ لَهُ مَخافَةُ سارِقٍ

وَخُضوعُ مَديونٍ وَذِلَّةُ موثَقِ

(٦١)

انسل الليل بعتمته الّتي أصبحت جزءًا من واقعنا، تأكّدت من جاهزية سلاحي للمرة المئة في هذه الليلة الحافلة بالمخاطر، ثبّته على الأرض بخنوع وأشهرت حربتي فظهرت نظافة النصل وحدّته، كنت قد حبوت أنا وتسعة رجالٍ قد تريثت في اختيارهم في الدجي واختبأنا ونحن متوشّحين بزيّنا العسكري كما هي الخطة. ولم يبق لنا سوى ترقّب الإشارة، لتنفيذ مهمتنا.

أمست قوات الوالي بالمكان الذي اختاره إبراهيم للمعركة دون أن تعلم، ولم تكلفه تلك الحركة أيّ جهد، مجرد معلومة قد سرّبها إليهم دون تكلّف. كانت القوة ضخمة بحق؛ خمسمِئة جندي مشاه أو أكثر، مئة خيّالة أو يزيد، خمسة مدافع بمختلف أحجامها وهذه المعلومة الوحيدة التي كنت متأكدا منها فهي صلب مهمّتي. تبعت بنظري بوادر المعسكر الذي بدأ يظهر، خيم بدائية قد نصبت وأخريات قيد الإنشاء، جنود غافين على الحجارة من فرط التعب وآخرون ألوا بأسلحتهم جانبًا وأمسكوا بأشباه

الملاحف غارقين في نومهم، وعلى مرأى من النجوم والبدر الوليد دوى صوتَ مدفع بوجل في الأنحاء، ولم يلبث الصوت وحيدا حتى هطلت قذيفة في نصف الجموع الغفاء بمجرّد أن خَرّت القذيفة الأولى حتى أخذت الأرض بالاشتعال في لمح البصر وهي الخطة الّتي لا يكف إبراهيم عن استعمالها، وهي رشّ البارود في موقع الوطيس، تشتت الجمع مرعوبين وسط القذائف الّتي تنهمر عليهم واحدة تلو الأخرى. فرّ الكثيرون يمينًا وشمالًا مذعورين وجلّهم قد فقدوا بنادقهم من أثر المباغتة. تأجّجت النيران وأضمرت كل ما اعترضها. وإبّان كل ذلك أطلت قواتنا وتتقدمهم متاريس محكمة وأخذوا يطلقون رصاصاتهم. حوصرت قوات الجزايرلي من كل صوب، فالرجال طوقوهم من ثلاث اتجاهات ولم يبق لهم إلا جرف الوادي السحيق. انفجار البنادق، هطول القذائف، صياح المصابين، عويل الخائفين، صراخ الثائرين، وكل ذلك يدور على خلفية تأجّج النار الّتي لا ترحم.

أصدى صوت الطبول من ناحية الغرب وهي ناحية القيادة حيث يتواجد إبراهيم. فتوقّفت قذائف المدفع الّتي تبث في الضفة الأخرى من الوادي وقد أبلى حسنا وكان نقطةً فارقةً في تشتيت الجنود كما توقّع إبراهيم في الاجتماع. تغير تشكيل الصفوف خلف المتاريس التي زاد تقدمها بشكل مهول على أثر ضعف مقاومة الجنود المفزوعين، كان قلبي يخفق بقوة وأنا أتابع المعركة، صورة خيرية ترتسم في مخيّلتي وتتبعها صورة أبي سعيد، صوت مولانا يقرع في أذني. كلماته تدوي من جديد في خلدي، كلماته الّتي بثّها قبل أن يرحل وكانت نقطةً فارقةً في حياتي بحق. أبعدت كل ذلك عني وأنا أقبض على سلاحي، قلت بجديّة:

- لقد حان دورنا يا رجال.

نظرت لأحمد وقلت في عجل:

- كما اتّفقنا.. السرعة والحذر.

انطلق أحمد وأربعة آخرون في حين انطلقت أنا بمثلهم. مهمّتنا هي التسلل لمعسكرهم وغنم المدافع الخمسة، اندفعت أجتاز الصخور سالكا طريقي ركضا باتجاه المعسكر الّذي يحترق، كانت مهمّتنا أشبه بدخولٍ لجهنم والخروج منها بأبي لهب، فور أن ولجنا للمحرقة طفقت الجثث تظهر بعشوائية. أكملنا طريقنا نحوً العمق من ساتر إلى آخر كي لا يصيبنا رفاقنا برصاصهم وهم غافلون. اجتزنا مرحلة اكتشاف أمرنا فقد أصبحنا في عمقهم حيث يتجسد الرعب في أبهى صوره البشعة، تواريت خلف صندوق مؤن أغلب الظن، وشكرت في نفسي المشرف لسماكة خشبه فالرصاص أصبح يهطل علينا كالمطر. لا تستطيع أن تبصر وجوه المطلقين أو أماكنهم، لكنك بلا شك تلمح شرار بنادقهم المتدفّق بغزارة. خيّمت الفوضى العارمة في صفوف القوة التي أذهلتني منذ قليل بعددها وعتادها، لكن ذلك الانذهال قد تلاشى بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة وغرق الجنود الكثر في رعبهم، بقيت قليلًا في مكاني لا أجرؤ على التّحرك لكثافة إطلاق النار. راقبت بنظري ما يحدث وأنا أتمعّن في ذاك المدفع الذي أطل وسط كومة من الصناديق وكان على بعد خمسين ذراعا لا أكثر، لمحت انتصارنا بوضوح، فقتلاهم لا يحصون وجرحاهم أضعاف، حبوت وكذلك فعل الرجال وتبادل إطلاق النّار يصم الآذان. وصلت للمدفع بعد حين، حملقت خلفي فوجدت أن الرجال لم يصيبوا بأذىً. أشرعت بفك القيود بمساعدة رفاقي. أخذت نظرة خاطفة حولي فوجدت جنديا يتقدّم نحونا وهو يلقم بندقيته فصوبت سلاحي فورا وأردته قتيلًا. باشروا الأربعة بجر المدفع في حين بقيت أنا أبحث عن أحمد ومن معه.

اطمأن قلبي عندما لم أجد المدفع الآخر لكن لا أثر لأحمد ومن معه، هتفت للأربعة الأشداء الذين تعاونوا بجر المدفع:

- أسرعوا.. سأحمي ظهوركم.

بقيت في حالة تأهّب بعد أن لقّمت سلاحي وكلي يقين أنّ طريق العودة محفوف بالمخاطر، تواريت خلف جثة حصان والرجال لا زالوا في طريقهم. لمحت أحد الجنود قد أفاق بسرقة المدفع وقبل أن يفعل شيئا كنت قد أوقعته أرضا. وبعد قليل، خرج آخر من خلف كومةِ حجارة وقبل أن أفعل أيّ شيء كانت رصاصة من بعيد قد اغتالته، أكمل الرجال عملهم البطولي إلى أن وصلوا بالمدفع لمكان آمن، وفجأة أصدى صوت المدفع من جديد لكن هذه المرة من صفوف الجنود بواسطة الثّلاثة الباقين في حوزتهم، وفور أن بدأت القذائِف تهطل على رؤوس رفاقنا دوى صوت الطبول من جديد فعاد مدفعنا من الضفة الأخرى بأمطار قذائفه ولم يكن بمفرده هذه المرة بل كان المدفعان اللذان سرقناهما منذ لحظات بمباشرة عملهما، تسمّرت مكاني وأنا أرمق القذائف المتطايرة في كل صوب، وبعد تفكير طال وجدت نفسي أركض نحو عمق المعسكر من جديد تاركا رفاقي، سلكت طريقا مليئا بأشلاء الجثث والرصاص يحازيني، أكملت جريي بكل ما أُوتيت من قوّة في قلب الفوضى العارمة، قفزت جانبًا خلف كومة من الجثث بعد أن هوت قذيفة بالقرب مني. أخذت أنفاسي بصعوبة وسط الغبار الخانق. صمّت أذناي للحظات وهيمن عليهما الصفير، تحول المعسكر إلى جحيم بالفعل، وقد علمت لحظتها أنه بإمكانك أن ترى الجحيم في الدّنيا أيضًا وقد جرّبت ذلك بأم عيني، بقيت للحظات أستجمع شتات نفسي، ثم انطلقت نحو هدفي الذي بات واضحا، ارتميت خلف الحاجز الذي يقبع فيه المدفعان بعد ان احترق ثالثهما أغلب الظّن، لم يعرني الجنود أيّ اهتمام، فأخذ أحدهم يضع الذخيرة والآخر يصوّب وثالث يفتح صناديق الذّخائر، صرخ أحدهم بعد أن لمِح وجودي:

- ماذا تنتظر؟ ساعده بسرعة.

أفقت من غفلتي واقتربت من الصّناديق، أخرجت حربتي وأشرعت أحدّها. فصاح ذات الجندي قائلًا:

- ليس هذا الصندوق أيها الأخرق.

فكرت قليلًا وأنا أرنو رفاقي الذين تهطل عليهم القذائف، مددّت يدي داخل الصندوق وقبضت على قنبلتين وطنينُ المدفع يصمّ أذني. تشابكت ذكرياتي وشعرت بسريان الدم في عروقي، ولا أدري بنفسي إلا وأنا ألقي بالقنبلة الأولى في حجرة التّعبئة والأخرى في منتصفهم، ثم قفزت مبتعدًا قدر الإمكان. لم أعلم ماذا حدث بالضبط بعدها، لكنّي سمعت صوت الانفجار المدوي ثم أهلّ غبار كثيف. ارتطمت بالأرض والسواد يهيمن على بصري، وإبانها سمعت صوت أمي خديجة تغني:

يا ريــتْ خُـــوتي ثلاثين

وأولاَد عَــمــِي بــزايــدْ...

فَإذا تَذَكَّرَ أَهلَهُ وَبِلادَهُ

فَفُؤادُهُ كَجَناحِ طَيرٍ خافِقِ

(٦٢)

أوجست مضضا يفتِك بي قبل أن أشرع عينَيّ أو أدرك ما حدث، فتحت عيني ببطء، في البدء لم تكن الرّؤية واضحة، لكن شعرت بضجيج حولي لم أستعلم مصدره، كان النهار قد حل وهتاف البنادق قد انقشع، الرؤية تنجلي شيئًا فشيئًا لكن الألم لا زال يشتّت تفكيري، لم أستوضح مركزه بالتحديد لكنّه كان يعصف بشدّة. أخذت الأصوات تنفكّ من الضجيج رويدا، وأصبح كل صوت ينطلق بمفرده. ورغم حالتي لم أرتب في نبرة صوت عبد الباسط:

- ناولني الشاش من هناك إن اللّعين الذي جلبته قد لقي حتفه ..

حررت تأوّهات وأنا أستنشق هواءً مغبّرا برائحة الدّماء والهباب. دنا عبد الباسط مني على أثر صوتي، أبصرت ابتسامته رغم نصف غفوتي، وصرخ مبتهجا:

- الحمد لله على سلامتك يا بطل..

قلت بعسر وقد بات صوتي أجشّا:

- أريد ماءً

لوح برأسه ثم اختفى من مرمى بصري، وبعد برهة عاد بقربة ماء، فتحها وباشر يسكب الماء رويدا في ثغري، لم يسقيني الكثير وكفّ وقال وهو يرمي بالقِربَة جانبًا:

- سأخبر لويز أنك قد استيقظت

غاب عبد الباسط والوجع يبطش ببأس. حاولت أن أسترجع ما حدث قبل أن يغمى عليّ. لم أتذكر سوى أنّني رميت بالقنبلة وقفزت مبتعدًا، أطل لويز، وجثا بالقرب مني وهو يقول:

- الحمد للرب على سلامتك..

بسط كفّيه وأخذ يتفقّد بدني. أطلقت آهاتٍ تألما مع لمساته، فقال:

- هل تشعر بألم؟

أجبت بمضض :

- نعم

- لا تقلق سيختفي كل هذا.. سأجلب إبراهيم إنّه قلق عليك

اختفى لويز عن مرمى بصري ورؤيتي لا زالت مشوّشة لكنّها تحسّنت بكثير. استعدت القليل من لمام نفسي وقلت:

- ما الّذي حدث يا عبد الباسط؟

انطلقت قهقهة ضحك منه ثمّ قال:

- لقد فاتك الكثير، لقد سحقناهم وهشّمنا أدمغتهم.. لقد ازدادت القذائف في الهطول على رؤوس أولاد الستين كلب، وإطلاق النار كذلك لم يتوقف، تقدم الرجال شيئًا فشيئًا وخصوصا بعد ما دمرت أنت مدافعهم. وبعد الهزيمة النّكراء والحصار الخانق استسلم من بقى على قيد الحياة.. الجثث لا تحصى

والأسرى أكثر من المئة مكبّلين أمثال الكلاب، هل تصدق أن من قوتهم تلك كلها لم يقدر أحدٌ منهم على الفرار، إمّا يكون قد قتل أو ألقى بنفسه في الوادي ومات وهو يحاول النّجاة، وإمّا قد أسر مثل الكلب الأجرب.

أطلّ إبراهيم فجأة. جثا وبدأ يقبّلني بحرارة وعلى قسماته ابتهاج لم أره منذ أمدٍ. أخذ يربّت عليّ ويطمئن مثل الأم الّتي لاقت إبنها بعد فراق طويل، وقال:

- الحمد الله على سلامتك يا بطل، لم تخيب ظني للحظة

أطلق أنامله في خصلات شعري وهو يقول بابتهاج:

- الكل يتكلم على ما صنعته يا عبد السلام، لولاك لما استطعنا أن ننتصر

ثم استطرد:

- ستذهب مع الجرحى للقرية، أريدك أن تتعافى بسرعة مفهوم؟ فلن أدخل لطرابلس إلا وأنت بجواري..

جسدي ينتفض، أصبحت الأصوات تتداخل وتتلاشى، الألم يزداد تأزّما، الرؤية لم تعد واضحة، أصابني العرق واجتاحتني سخونةٌ لم أعلم مصدرها، ستائر عيني انبرت تنغلق حتى عم الظلام وانقضى كلّ شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحت عيني مرة أخرى، لا أعلم الوقت الذي انقضى لكنّني أتذكر أن آخر وجه لمحته كان إبراهيم والآن قد تبدّد، الوجع لا زال في موضعه لكنّني شعرت بشيء فوق جبيني، وضحت الرؤية قليلا فوجدت نفسي أرقد في غرفةٍ وأتمدّد على فراش رهيد لم أنعم به لفترة من الزمن، أحسَست بيدٍ ناعمة تمسك بيدي. نظرت يميني بصعوبة فوجدت خيرية، حسِبت نفسي أحلم لكِنّي شعرت بقبضة يدِها، كانت تجلس بجواري وهي تلبس عصبة ([38]) بيضاء، صباحة وجهها باديةٍ رغم تشتّت تركيزي من فرط الألم، عيناها السوداوان، زجّج حاجبيها، أنفها الحاد، ثغرها الذي خُلق للتقبيل، كل ذلك كان واضحا. هتفت خيرية مبتهجة عندما رأتني قد أفقت:

- الحمد الله.. لقد قلقت عليك.. هل تسمعني؟

داعبت وجنتيّ بفرحٍ وهي تردّد كلاما لم أستوعبه، ثم قالت والسّعادة تغمرها:

- سأقول لعمّتي...

غادرت خيرية بعد أن طبعت قبلةً على جبيني بحياءٍ. ولم يمضِ الكثير حتّى اقتحمت أمي الغرفة، سمعت صوت أنفاسها يعلو ولمحت دموعها تتساقط منها، رغم حالتي المزرية دنت منّي مسرعة وأخذت تقبّلني وابتسامتها تتراقص وهي تقول:

- الحمد لله على سلامتك يا ولدي

لا أعرف ماذا جرى، ستائِر عينيّ أبت أن تتركني، اندفعت بالنّزول رويدا، اجتاحني بردٌ لم أعلم مصدره. غابت عنّي الصورة لكنّ الصوت بقى واضحا، وكان آخر ما سمِعته صوتُ سارة الّتي دخلت مع أمّي تقول:

- سأجلِب الطّبيب لويز...

غمرني الظلام بغتةً، فأصدى بداخلي صوتُ أمي وهي تنشد:

لا نـاكـلُوا لُقــمــه الـدَّين

ولا نلَـبسُـوا جــرِد بـــايِد...

أَرى راحَةً لِلحَقِّ عِندَ قَضائِهِ

وَيَثقُلُ يَومًا إِن تَرَكتَ عَلى عَمدِ

(٦٣)

أشرعت عيناي بإعياءٍ مبرح، كانت صحوتي للمرة العشرين تقريبا، وفي كل استفاقاتي كانت خيرية بجواري تمسك بيدي أو غافية على ساعدي، لكن هذه المرة لم أجدها، وضحت الرّؤية لي وأشعّة الشمس تتساقط على شكل شرائط طولية من خلال النّافذة الّتي فتحت ستائرها القرمزية وأشرع جزء منها ليُدْخِلَ طِفاف من الهواء المنعش، تقلّص الألم عمّا سبق لكنه لا زال يعصف بي في بحره الهائج، كانت ساقي اليمنى غارقةً في خيط من الألم المبرح وتغطّيها جبيرة بيضاء، وكذلك الحال في يدي اليسرى، استغرقت بعض الوقت وأنا أتجرّع أنفاسي ببطء، ثم ألقيت باللّحاف جانبًا، ظهر جسدي النصف عاري بخدوشه وجروحه المتفرقة، عصرتني نوبة من الحكّة تحت الشاش الّذي لفّ على خصري. وبعد محاولات عديدة استطعت أن أضع قدميّ أرضا. تأمّلت نفسي للحظات وأنا أتنفّس الصعداء. ذكريات مشوشة تعصف بي في بحر الظلمات، البحر الّذي غرق فيه غندور والملعون ليوم الدين برغوثة البغيض، التقطت اللحاف وأسدلته على كتفي، لم أفكّر بشيءٍ سوى النهوض والخروج من الغرفة الّتي ستسلبني عقلي، أريد وبشدة الرجوع لإبراهيم والرجال، لكن لا مناص من وقتٍ للعلاج.. وخيرية أيضًا..

وقفت بصعوبةٍ بالغة، خطوتُ خطواتي المترنّحة نحو الباب وألم ساقي قد صحا من غفوته وبدَأ عزفَ موسيقاه، مدَدّت قبضتي وفتحت الباب ثم ولجت للردهة التي تأخذني نحو البهو، وفور أن خرجتُ سمِعت صوتها وهي تقول:

- ما الّذي أنهضك من الفراش؟

دنت منّي خيرية مسرعةً وأسندتني قبل أن أقع. لم تفقد شيئًا من بريقها أم أنا الّذي أصبحت أهذي كثيرا؟ ترتدي رديّا مزركشا، وتلبس بخنوق زهي لتخفي شعرها الأدهم، عيناها تتألق لرؤيتي بوضوح، قالت بنبرة توبيخ:

- قال الطبيب لويز أن تبقى في الفراش ولا تتحرك..

أجبت وأنا أتمعّن النظر فيها:

- سأموت إذا بقيت لحظة أخرى في هذه الغرفة

قالت بسرعة بدون أن تشعر:

- بعيد الشّر عنك

ابتسمت لها فغرقت في خجلها وتورّدت وجنتاها، ثم قالت بانفعال مزيّف:

- هل ستبقى تنظر لي هكذا!؟

دنوت منها لأخطف قبلةً لكنّها تملّصت كما تفعل دائمًا، وقالت بذات الانفعال:

- توقف عن ذلك.. إن رآنا أحدٌ فسيطبقون الدّنيا فوق رؤوسِنا، هيّا عد لفراشك

- هل ستساعدينني في الخروج أم أذهب بمفردي؟

وافقت بخنوع بعد أن لمحت الإصرار في ملامحي، أسندتني وبدأنا حركتنا نحو الخارج، وبعد أن لمحت الفضاء الواسع، سألت أن أتأمّل في الحقول التي تطل في الأفق:

- أين لويز ومن معه؟

- في الحوش العربي

رأيت عصاةً مُلقاة أرضا بالقرب مني، فطلبت منها أن تجلِبها، أسندّت نفسي على العصا بصعوبة وقلت بأنفاس متقاطعة:

- هيّا عودي إلى الداخل

- دعني أساعدك..

قلت مغتاظا:

- هل جننتِ؟ هيّا عودي إلى الداخل

أومأت بخجلٍ وتراجعت خطوتين ثم قالت بسرور:

- هل تغار عليّ يا عبد السلام

- إذًا لم تدخلي سأكسر العصا على ظهرك

ضحكت بحياء، ثم أدبرت مسرعة، استندّت على العصا وبدت الخطوات البطيئة والوجع حاضرين بكل تأكيد. لم يهمّني الألم بقدر ما همّني ما حدث لإبراهيم والرجال في أيام غفوتي، قطعت مئة ذراعٍ أو أكثر بشقّ الأنفس. لمحت عبد الباسط في الأفق فهتفت عاليا:

- عبد السلام.. تعال إلى هنا

فور أن لمحني جاء يركض، وعندما وصل سلم عليّ بحرارة وهو يقول بسخرية تقت لها:

- ما كل هذا النوم؟ ظننتك امرأة تنتظر مخاضها.. قل لي هل تشعر بتحسن؟ بالتأكيد تشعر، أليس كذلك..

أسندني، وانطلقنا إلى الحوش العربي حيث البقيّة. لا أعرف لماذا يطلق عليه الحوش العربي، لكنّي سمعت من إبراهيم يوما يقول إنه كان منزل الحاج الهادي قبل أن يشيّد بيته الكبير، وهو بيت صغير من ثلاث غرف وفناء بسيط. وصلت بعد رحلة شاقّة بالنسبة لي، جلسنا أمام البيت على درجات قد محا الزمان آثارها، أخرج عبد الباسط السجائر وانهمكنا في تدخينها، ويا لها من أنفاس المفعمة بدخّان التبغ، بعد أن تجرّعت أنفاسي الأولى قلت:

- ماذا فاتني يا باسط؟

نفث دخانه وقال بابتسامته:

- فاتك الكثير في الحقيقة، بعد الانتصار الساحق على قوات الوالي اللعين بدأ إبراهيم زحفه نحو طرابلس، وفي كل موضع تطأ فيه قدماه كانت الأعداد تتزايد، حتى القبيلتين اللتين رفضتا المشاركة في المعركة أتوا وقبلوا أقدام إبراهيم.

انتابني شعور بالنّصر لكن سرعان ما طغت عليه رغبتي للانضمام لهم، فقلت وأنا أتجرّع السيجارة:

- وأين هم الآن؟

- على مرمى من طرابلس، ينتظر اكتمال العدد الّذي يريده، فالحصار أمرٌ آخر لم نعتد عليه قط، وأسوار المدينة منيعة.

قهقه عبد الباسط وهو ينفث دخّانه ثم قال:

- كل هذا ولم أقل لك أهمّ ما فاتك..

قلت باضطراب:

- ماذا ؟

- في غضون المعركة الحماسية وشجاعتك الزّائفة، قد وجدنا عددا من الجواري.. أقسم لك قد وجدناهم بين صفوف الجند، وقالوا إنّهم لقائد الحملة، آه لو ترى حسنهم يا عبد السلام، أظنّ أنني قد نسيت الليلة الدامية بعد أن أبصرتهم، اثنتان شقراوان وأخرى زنجية.

وضع السّيجارة بين السبابة والإبهام وألقى بها بعيدا وهو يكمل بحنق:

- هل تصدّق بعد كل الّذي فعلته من إنقاذٍ للأرواح، يأتي هذا البغيض الّذي يسمّى إبراهيم ويمنعني بأن أحظى بالقليل من الهدنة، وجدناهم في أرض المعركة أي إنّهم سبايا فما المانع أن أحظى بالقليل من حقي المهضوم؟

قال لويز باستهزاء وهو يقترب:

- يجب أن يكون لديك ما عند بقية الرجال أولًا يا باسط لتطالب بحقّك المهضوم..

دنا لويز وسلم عليّ بحرارة ثم جلس بجوارنا، قد تلاشت أوجاعي بوجود الثنائي الغريب، رغم اختلافهما العجيب إلا أنهما لم يفترقا لحظةً منذ أن التقيا في المعسكر، قال عبد الباسط بحنق:

- هل رأيت هذا البغيض، أجعله في العربية مثل الحصان، ثم يأتي ويستخدمه ضدي، أين حق المعلم يا ابن الشقراء؟

قال لويز غير عابئ بكلام عبد الباسط الّذي لا ينتهي:

- كان يجب عليك عدم النهوض من الفراش

- أنعمني بالصمت يا لويز بالله عليك

ثم أردفت وأنا أرمى بالسيجارة:

- وماذا حل بالأسرى؟

تبادل الاثنان نظرات مضطربة. ابتلعت الأرياق وكأنما أرادا أن يهربا من الإجابة، فكررت سؤالي. فأتى رد عبد الباسط:

- تبا لك يا لويز، سأقول الحقيقة

ثم تابع باضطراب:

- في الحقيقة.. قد تمّ قتلهم جميعًا

نهض مبتعدًا ثم قال بجمود:

- بأمر من هذا إبراهيم اللعين، وقفوا في طابور طويل وأفرغت البنادق في رؤوسهم ومن ثمّ تمّ إلقاء جثثهم في الوادي.

وَحَسبُكَ حَظًّا أَن تُرى غَيرَ كاذِبٍ

وَقَولَكَ لَم أَعلَم وَذاكَ مِنَ الجَهدِ

(٦٤)

كنت غارقا في العسل بينما انتصارات إبراهيم تورّد إليّ، أصبحت آلامي تتلاشى مع الأيام حتى باتت شبه منعدمة وكيف لا تتلاشى وأنا بين أحضان أمي خديجة ومعشوقتي خيرية؟ ومع خيرية أيقنت معنى آخر للحياة. أدركت معاني تلك السّطور المبهمة الّتي في كتب إبراهيم، حتى إنّي أصبحت أشكر الإصابة والخطوة المتهورة التي قمت بها؛ لأنها قرّبتني منها بهذا الشكل، باتت عينيها السوداوين هما ما أصحو وأهجع عليهما. صحبتني أمي لليالٍ طويلة وحدثتني عن محبوبة زوجة إبراهيم وعن طفولتهم، وقصة حبهم الشاعرية، إلى أن أدركت بأنّ الحكاية قد عادت للحياة من جديد، وفي إحدى الليالي دخلت خيرية الغرفة وشاركتنا أمسيتنا بعد أن تملّصت من أمّها الخالة لطيفة وعينيها المتربصتين، قاطعت أمّي خيط النظرات الّتي تبادلناها في صمت وقالت:

- ورب الكعبة لأزوجنك إياها يا ولدي..

انغمسنا نضحك بسرور وأمي تكمل قائلة:

- ريثما يزول الغم سأقيم لكما عرسا لم تره الولاية من قبل..

تحسّنت حالتي وفكّت الجبيرة وصرت قادرا على الركوب، قررت الرحيل رغم السعادة التي غمرتني هنا. حاولت أمي وخيرية منعي من الرحيل، لكني كنت عازما على أمري، اتفقت مع لويز وعبد الباسط وبعض الرجال المنضمين للمقاومة بالرحيل مع أوّل خيوط النهار، ودعت أمي وسط دموع غزيرة ورجاءٍ بأن أتراجع على ما أنا مقدم عليه، قالت وهي تكلّل عينيها بي:

- أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه

بعد أن قبّلت يديها ورأسها ذهبت لجدّي الهادي، أخبرته برحيلي فشجعني ودعا الله أن يسدّد خطاي، وكان الوداع الأخير والأهمّ بين أشجار البرتقال، ذرفت خيرية الدموع وارتمت في حضني تبكي فقلت لها مبتسما:

- حان وقت القبلات إذًا

أجابت وهي تجفّف دموعها بكم مريولها ([39]):

- في عينك.

ثم أدركت نفسها أنّها في طوقي فتراجعت مرتبكة، فقلت:

- لقد تأخرت على الرجال.. يجب أن أذهب.

غفرت عيناها وهي تتأمّلني بحزن. لثمت كفّيها نحو ثغرها مثل الأطفال. قالت وهي تضع يدها في جيبها:

- لقد ذهبت للفقي وأعطاني هذا الحِجَاب، قال الشيخ إنّه سيصونك من كل شر بإذن الله.

دنت مني وعلّقته في رقبتي، ثم قالت بشجن:

- إياك أن تخلعه..

تراجعت بعد لحظات من الصمت والتأمّل. التفتّ ورحت أخطو باتجاه الرجال، سمعتها تقول:

- عدني بأن تعود.

قلت باسِما وأنا أكمِل طريقي:

- أعدك يا أمّ إبراهيم.

اندفعت مسرعًا قبل أن أتقهقر عن قراري وأرتمي في حضنها مثل الأطفال. وفدّت لرفاقي ولم يخلُ اللقاء من سخرية عبد الباسط المعتادة، امتطينا خيلنا، وانطلقنا شمالًا باتجاه رفاقنا المرابطين على أبواب طرابلس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلت طرابلس في الأفق ببهاء، أهلت أسوارها وأبراجها العالية مرحّبة، أكملت عدوّي بحصاني بعد أن أثار قربي لها هيجاني، وباقترابي بدأت الرؤية واضحة؛ معسكرٌ كبيرٌ لا تعرف لخيمه أول من آخر، متاريس وحواجز قد أقيمت في كل صوب، خنادق شبه محصنة شيّدت بالقرب من الأبواب، رجالٌ كثر على مرمى البصر متأجّجون بأسلحتهم، باقترابنا أصدى إطلاق نارٍ بجوار حصن سيدي عمران وفي غمضة عين أصبح إطلاق النّار كثيفا بين الطرفين. اقتربتُ أكثر منَ المعسكر وأنا أبصر الحلم على وشك التحقّق، فمن كان يصدّق أن كل هذا سيحدث، لكن لا مستحيل مع إبراهيم.

قطعنا شوطًا طويلًا من السّير وصحبه تسليم حار من الرجال المرحبّين، وصلنا خيمة ابراهيم، دخلت وأنا متشوّق للقاء، متشوّق بأن أكون معه حينما ندخل طرابلس ونأخذ بثأر أبي. كان إبراهيم منهمكا في التّكلم عندما ولجنا، فغر فاهه فور أن لمحنا، فنهض مسرعًا وأخذني في عناق حار وهو يقول:

- الحمد لله على سلامتك..

سلّم على لويز بذات الحماس ثم أجلسنا بجواره وانضممنا للمجلس الذي يناقش أمر الحصار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحلول العصر كان وفد علي الجزايرلي قد حضر. وكان مكوّنا من ضابطين شراكسة وأحد أعيان المدينة الخانعين لحكم الجزايرلي. دخلوا الخيمة وجلسوا على الحصير البالي. باشر إبراهيم الحديث فور جلوسهم:

- ما الّذي أتى بكم؟

أجاب كبيرهم بكياسة، وكيف لا وقد وصله خبر قتل الأسرى:

- إن الوالي قد أرسلنا للتفاوض معكم.

قال درغوث:

- وهل ستنفّذون مطالبنا؟

أومأ كبيرهم موافقا، فقال إبراهيم بفظاظة:

- وأول مطلب لنا هو رأس الوالي الّذي تركع له، ثانيا فتح الأبواب، ثالثا عودة كل كلب مرتزق من حيث أتى..

أشار بسبابته نحوهم وأكمل قائلًا:

- وأنتم أحد هذه الكلاب في الواقع.. هل ستنفذون مطالبنا؟

أجاب الضابط الآخر بشيء من الحنق:

- وأنا أريد كرسي الخليفة في إسطنبول، اطلب شيئًا يعقل ونستطيع أن نتفاوض عليه.

- ليس لديّ شيء أتفاوض فيه غير هذا، ونصيحة أن تعودوا إلى خلف الأسوار وتضاجعوا نساءكم قبل أن أدك منازلكم فوق رؤوسكم..

ثم صاح بغضب:

- ماذا تنتظرون؟ ارحلوا قبل أن أقطع رؤوسكم.

نهض الثّلاثة بخنوع، وهم في طريقهم صاح إبراهيم:

- أخبروا ابن الزانية أن لا سلام معنا.

..صدع داخلي صوت خيرية وهي تنشد بعذوبة:

لاَبِـس عبــى حمــرة وقــبّل قُبْلــه

بــالله يــا ســيدي الفقــيه تكتبلــه

وَمَن يَقضِ حَقَّ الجارِ بَعدَ اِبنَ عَمِّهِ

وَصاحِبِهِ الأَدنى عَلى القُربِ وَالبُعدِ

(٦٥)

استيقظت على أثر الأرق الّذي استباحني منذ أن حللت بالمعسكر، رميت باللحاف جانبًا وخرجت من الخيمة الصّغيرة التي تشاركتها مع لويز وعبد الباسط لكن لا وجود للاثنين في هذه الساعة، كان الفجر لم يحن بعد، والسّماء مفعمة بسواد قاتل؛ فظننت أنّه لا وجود للضوء بعد اليوم، تنقّلت بجوار الخيمة وأنا أكشف بنظري مجريات الأمور عند السور، همدت معظم النيران بخمود جالسيها في سبات لن يطول أمده، فمع بزوغ أوّل خيوط الصباح تستفتح الاشتباكات وتشرد الاستراحة القصيرة حيث العدم، سرت باتجاه الصّخرة التي اتخذناها مجلسا أنا ولويز وعبد الباسط، جلست وأخذت أتأمّل الأسوار الغافية. استهلت الحماسة تنفرط من بين أصابعي مع مرور الأيام حتى قاربت على الاختفاء، صحيح أن المناوشات لم تنقطع إلا أن الحصون وقفت منيعة في وجوهنا، انقضت الساعات والأيام ونحن نرابط على الأسوار ولا وجود لتقدّم يذكر،تناقش درغوث مع إبراهيم وكاد يتشاجر معه بعد أن طرد مبعوثي الجزايرلي الّذين أتوا منذ أيام، لكن إبراهيم ظلّ يردد ذات الكلمات:

- إن دفاعهم ينهار وحصارنا يشتدّ وإلا ما بعث لنا كلابه قط

لم أقدر أن أرتاب في كلامه رغم المجريات التي تدل بالعكس.

أعود بنظري للأسوار الخامدة وأسترجع ذكرياتي التي قضيتها داخلها. استحضرت كل الشوارع التي وطأتها قدماي الحافيتان. أنْصت لهتاف البحر من بعيد ووابل النسيم كفيل بأن يشعرني بأنّي في المنشية ولو كنت أصمّا. مددّت يدي وأمسكت الحجاب الّذي زعمت خيرية أنه قادر على حمايتي، أمعنت فيه وفي الأسوار وقلت: هل يقدر بفتح طرابلس لنا؟ هل من الممكن أن يجعلنا ننتصر؟ وإن كان ذلك سيكلّفنا المئات منه لتدلى على أعناق كل المقاتلين.

- هل أتيت لتحارب؟ أم لتبكي على الأطلال؟

أتى صوت عبد الباسط من الخلف معلنا بدء المهرجان. اقترب وجلس بجواري وهو ينفث سيجارته، قلت له فور أن جلس:

- ما الذي أيقظك؟

- أيقظني الذي أيقظك

- أين لويز إذًا؟ لم أجده في الخيمة

ارتسمت ابتسامته على شفتيه، وقال:

- البندقي اللعين يخفي أمرا وراءه، دائما يختفي وإلى أين؟ الله يعلم.. حتى عندما كنّا في القرية، إلى أين يذهب هذا اللعين؟

ثم استطرد وقد جعلته الفكرة يقهقه ضحكا:

- هل تظن أنّ إبراهيم قد آثره علينا وأعطاه إحدى الجواري؟

اندفعت ضحكة مني دون أن أشعر، ثم قلت بتعجب مفتعل:

- ما سرك مع الجواري يا باسط؟

- شاب فاتن مثلي في أوج شبابه، فمن الإجحاف أن الجواري الحسناوات لا يجربنني ولو لمرة واحدة في حياتهنّ..

وقفت مترنحا وقلت وأنا أرفع حاجبي:

- أشكّ في هذا القول وبقوة

خطوت أتحرك في المعسكر دون أن أعلم السّبب. وكان عدد من الرجال جالسين في مراكزهم تأهبًا لأي مباغتة. وبعد القليل من التسكّع في أنحاء المعسكر لمحت عبد القادر، رأيته متبسّما كما لم أره من قبل وبصحبته رجل لا أعرفه، قلت له:

- خير إن شاء الله

أكمل سيره في ابتهاجٍ مريب ثم قال:

- اتبعني لخيمة إبراهيم وستعرف.

لم أكذب خبرا فتبعته. دخلنا الخيمة فوجدنا إبراهيم جالسا يقلب بعض الأوراق. تساءل عن جمعتنا، فقال عبد القادر بحماس غريب:

- إنه النصر يا صديقي، إنه الخلاص.

نهض إبراهيم متحفّزا، قال عبد القادر وهو يشير نحو الرجل:

- الشارف هو أحد الرجال الذين انضموا لنا من الدّواخل

تكلّم الشارف ذو الملامح البارزة والشارب الخفيف:

- في الحقيقة يا ابن عمر آنا مجرّد مرسال، وما سأقوله هي رسالة قد وصلتني من داخل المدينة، هناك مجموعة من الأحرار ستهاجم باب زناتة فجر الغد بإذن الله..

- ماذا؟

- نعم كما أقول لك، عدد من الرجال الذين لا يقبلون الظلم قد جمعوا أنفسهم في الخفاء وسيفتحون البوابة لندخل ونخلص الجميع.

عِش سَيِّدًا يَستَعذِبُ الناسُ ذِكرَهُ

وَإِن نابَهُ حَقٌّ أَتَوهُ عَلى قَصدِ

(٦٦)

غمرنا الترقّب ولا شيء غيره. وفي جنح الظلام وعلى مقربة من بزوغ الفجر دوى صوت خلف الأسوار فجأة ولم يلبث باب زناتة طويلًا حتى أشرع على مصراعيه وأطلّ منه زمرة من الرجال. وفي لمح البصر أخذ التكبير يعلو وقواتنا تخطو باتجاه الأسوار العنيدة المنيعة، انبرت القوة تولج عبر البوابة وسط تهليل وتكبير منيف. أبصرت بأمّ عيني الحلم يتحقق وتزخّمنا عند الباب التاريخي للمدينة. عبرت لداخل الأسوار وأنا أقبض على سلاحي وبجواري إبراهيم وعبد القادر. حدّقت أمامي فوجدت أن المئات قد سبقوني وأخذوا يذرعون الشارع الواقع بين صفين من الأبنية المتلاصقة والذي يصل إلى تقاطع الأربع عرصات الشهير. التفت خلفي والأجساد تتزاحم فرأيت أن معظم الرجال قد عبروا البوابة. كانت الأجواء مشحونة بالحماس والفوضى، حتى قاربت لأجواء سوق الجمعة من الاكتظاظ المهول والصخب غير المعقول. لا وجود لتنظيم أو بوادره حتى؛ فالجميع قد ركض واقتحم البوابة ضاربين بأوامر إبراهيم عرض الحائط. نظرت لإبراهيم الغارق في قلقه وقلت له بصوت عال كي يسمعني في الجلبة الفظيعة:

- إنّه النصر

نطقت بكلماتي وأنا أبصر عدم الراحة على أساريره. قال وهو يقلّب نظره في العتمة الصاخبة:

- أنا غير مطمئِن لهذه الفوضى

قال عبد القادر وهو يتصبّب عرقا:

- في هذه اللحظة من المستحيل أن تنظمهم أو تسيطر عليهم

قال إبراهيم بعد لحظات من التوجس:

- أين درغوث؟

أجبت وأنا ألوّح برأسي:

- صعب أن تجد أحدا وسط هذا الزحام..

انتقل قلق إبراهيم لي في غمضة عين. وأكملنا تقدمنا رغما عنّا من أثر التدافع، قال عبد القادر بتردّد:

- ربما فروا عن طريق البحر وتركوا المدينة..

نظرت للخلف وقد بدا الباب بعيدا، فوجدت قوامنا الّذي يزيد عن الألف يقبع داخل الأسوار. تابعت سيري البطيء والزحام صار خانقا. أصدى التكبير عاليا وصحبه صراخ وضحك المنتشين بالنصر المحتوم. سمعت إبراهيم يقول:

- هناك خطأ..

ولم يمض الكثير على كلمات إبراهيم المبتورة حتى دوى إطلاق نار كثيف. لم أدرك من أين أتى لكنه كان كثيفا بحق. طأطأت رأسي ودون أن أشعر وجدت نفسي أدبق بالجدار. افترق الحشد كلٌ في شطر وأخذوا يركضون إلى المجهول داخل العتمة التي حللنا بها. ازداد إطلاق النار فوقع الكثير أرضا وكأنما السماء قد بدأت تمطر رصاصا. بحثت عن إبراهيم فلم أجده بجواري. نظرت ناحية البوابة، فرأيت الباب موصدا ويقف بجواره جنود كثر لا أعلم من أين جاءوا. الصخب ازداد بوجود فرقعة البنادق الّتي لم تكف، ولم تنقطع الأجساد عن السّقوط. بعد برهة من الارتباك الفج أدركت ان الأبنية قد زخرت بالجنود. سمعت أحد الرجال يهتف قبل أن تخطفه رصاصة في غمضة عين وتفجر دماغه:

- إنهم في الأعلى.. خلف الأبواب والنّوافذ...

تصاعد الصخب وقد بدا الأمر أشبه بيوم الحشر، فالكل يركض إلى حيث لا يعلم. أصبت بالهلع وأنا أشاهد ما يحدث. أين التكبير الشاهق؟ إلى أين ذهبت نشوة المنتصرين؟ أين الذين تهافتوا على الأبواب؟

اختفى كل شيء ولم يبق سوى صوت الرصاص وهو يخترق الأجساد. حاول بعض الرجال الفرار إلى الأمام لكنهم كانت تنظرهم قوة بمتاريسها تقتنص كل من يقترب منها. لقمت سلاحي بعد غفوة دامت للحظات. أطلقت النار على جندي مطلٍ من نافذة مرتفعة، انبطحت أرضا وأخذت ألقم بندقيتي من جديد، وجدت عبد القادر يزحف على البلاط المغرق بالدماء وهو يضع جثّة فوق ظهره لتلافيه من ألسنة البنادق. بدأت مقاومتنا الهزيلة رغم المباغتة القاتلة التي قاموا بها، علا صوت أحد الرجال:

- خدوا الجثث ساترا لكم.. تقدموا.. أطلقوا..

أطلقت النار مرّة أخرى وأنا أبحث عن إبراهيم، وبعد قليل من تبادل إطلاق النار لمحته ينهض من على الأرض وركض ناحية حصان قد نجى من ألسنة البنادق. امتطاه بخفّة وراح يصرخ بعلو صوته وهو يطلق النار على أحد الجنود:

- إلى الأمام.. نار، نار

أخذ يعدو بسرعةٍ نحو المتاريس، لمحته يخرج شيئا من جيبه ورمى به نحو الجنود، وخلال برهة كانت القنبلة قد أعطت مفعولها، وثب بالحصان ناحية الحاجز، ثم وسط الجلبة رأيت الحصان يخر أرضا وإبراهيم يختفي تحته. وكان لهذه الحركة المتهوّرة الفضل لاختراق السد المنيع فكل الرجال اندفعوا بما أوتوا من قوة ليلحقوا بقائدهم. ركضت وأنا أطلق النّار على جندي قد أطلّ من خلف باب موارب، دوى منا صراخ جنوني ونحن نتقدم نحو العمق هاربين من مرمى الجنود. سقط منا الكثير لكن الأمل قد انبعث من جديد. ركضت ودقّات قلبي تتسارع. ينبثق من الظلام الكحيل شرار كفيل بأن

ينزع الأرواح. رائحة الدماء والبارود مزجت في الهواء المترب، الشارع على امتداده قد تزين بالأحمر. طلقات تمر بمحاذاتي بسخرية وتخبرني بأنّ الحياة مجرد هراء يمكن إنهاؤها بكل سهولة. رفيق كفاح يسقط بجواري متأثرا بجروحه. صراخ مجهول المصدر يذيع الفزع داخلي. السعير قد تجلّى في هذا الظلام المريع.

لم يدم تقدمنا طويلا حتى ظهر عدد من الجنود عند تفرع الشارع. لم يكن لنا منفذ من أبواب الجحيم التي انفتحت علينا من كل صوب إلا الساحة التي كانت يمين الشارع الواسع؛ ففررنا إليها جميعنا، كنت أعرف الساحة جيدا رغم الهلع الذي أصابني؛ ساحة تمتلئ بالدّكاكين وذات مدخل واحدٍ فقط. تدفق كل من بقى على قيد الحياة صوب ملجأهم الأخير، تجمهر عدد لابأس به عند المدخل وبادلوا الجنود إطلاق النار لمنعهم من التقدم. دوى صوت إبراهيم عاليا وسط انعقاد الألسنة:

- أخرجوا كل ما تجدونه، يجب أن نكون حاجزا لصدهم..

وَأَكثِر مِنَ الإِخوانِ ما اِستَطَعتَ إِنَهُمُ

بُطونٌ إِذًا اِستَنجَدتَهُم وَظُهورُ

(٦٧)

بزغت شمس الصباح ونحن بين فكيّ الجزايرلي وجنوده. قد كوّنا حاجزا ضخما من ركام الدكاكين ولا أعلم إلى متى سيبقى صامدا؟ تمركز عبد القادر وعدد من الرجال فوق الأسطح لقمع أي هجوم مباغت. توزع الرجال كما أمر إبراهيم فبدأ النظام يعود من جديد لكن ما الفائدة الآن ونحن على بعد خطوة من الهزيمة. فقدنا عددا مهولا من الرجال حتى حال حصرهم، حتى إننا لم نعثر على جثة الضابط درغوث وهذا حال العديد. جمعنا كل ما وجدناه من طعام في مكان واحد وكذلك الذخائر الضئيلة التي بحوزتنا حتى يتم تقسيمها بالعدل.

ألقيت بجسدي في أحد الدكاكين بعد شوط من المناوبة في الحاجز. لا أعلم ما الّذي أصابني. أشعر برعشة في أناملي ومشاهد الليلة الدامية لا تفارقني. الدماء والأشلاء. الصراخ والاستغاثة.. وفجأة بدأت القذائف تهطل على الساحة. قذائف قد ارتطمت مخلفة وراءها الغبار وعويل المستنجدين. هرعت واقفًا وخرجت أقفز بين الرّكام. رفعت رأسي فوجدت الكثير من القذائف في طريقها إلينا. تابعت ركضي ناحية الغبار حيث انبعث صراخ أحدهم. وجدت أشلاءً متفرقة كانت فيما سبق لجسد واحد. باقترابي أكثر وجدت عبد الباسط واقعا أرضا غارقا في بركة دمائه ويصرخ بتألّم بعلوّ صوته. لم أستوعب ما الذي أبصرته.. لقد وجدته يمسك بيده الدميمة ساقه المبتورة من جسده. تسمّرت مفزوعا للحظات وعقلي ينفي ما تبصره عيناني. كيف لعبد الباسط أن يحدث له هذا؟ أين ذهبت سخريته وابتسامته وسط هذا الصراخ؟ هتفت مسرعًا بعد أن أفقت من غفلتي وحملته على ظهري ورحت أركض به ناحية لويز. ركضت وأصوات القذائف لا زالت ترتفع. تبعت ركضي وأنا أردد باكيا:

- يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث..

دخلت به الخراب حيث لويز. وضعته أرضا ورحت أصرخ بعلو صوتي فأتى لويز مسرعًا. جثا على ركبتيه والتقط خرقة وبدأ يحاول بها إيقاف نافورة الدماء المتصاعدة. أخذ عبد الباسط يطلق آهات

متألمة ولويز يحاول بما لديه من قوة أن يساعده. جثوت بجواره وعيناي مغرقتان بالدموع حدّق فيّ عبد الباسط للحظات بوجهه المشوّه وقال بوهن:

- إنها النهاية يا صديقي..

هرعت أصرخ في لويز:

- افعل أي شيء

تابع لويز محاولاته لإنقاذ مساعده في حين كنت أنا أنظر نحو الساحة التي لم يتوقف هطول القذائف عليها. رجال يهرعون ذهابا وإيابا، يصرخون ويلوّحون بأيديهم. أغمضت عيني وأنا أتنفس الصعداء. صوت تألّم عبد الباسط بات يمتزج بصوت ارتطام القذائف فازداد هلعي أضعافا مضعّفة. وبعد محاولات فاشلة ارتمى لويز أرضا وعيناه مغرقتان في حين كان وجهه ملطّخا بالدماء. أخذ يبكي بعد أن رمقني بنظرة فهمت معناها على الفور. قبض عبد الباسط على كفي وتأوّهاته تزداد، قال وثغره مغرق بدماء:

- لقد حان الّذي لم أعد له الحساب..

أخذت أردد نحبا:

- يا حي يا قيوم برحمتك استغيث

ازداد تدفق الدماء من ثغره وهو يقول بضعف:

- أوصيكم بعائلتي يا رفاق..

ثم لفظ كلماته الأخيرة بألم قد جاوز إصابته:

- أخبرهم أن عبد الباسط لم يسرق.. وإنه بريء..

لم يشفع له قلبه الوضيء أو روحه المرحة بشيء، فنفدت روحه الطاهرة وصعدت إلى بارئها بعد شوط طويل من العذاب

و إبانه صدع صوته في خاطري وهو يردّد أغنية قالها لنا ذات يوم:

يــا طيرْ يــا نَـــاقل الخبــر

لاوْخَــيّ واحــشْ خــوَاته

عــرَبْ بيتـــنا خيلِهُم حمر

ووَخـــيِّ حَـــمْــرة عبـــاتــه

وَلَيسَ كَثيرٌ أَلفُ خِلٍّ لِعاقِلٍ

وَإِنَّ عَدوًّا واحِدًا لَكَثيرُ

حيث تبادل إطلاق النار. أحنيت رأسي مسرعًا ورحت ألقم بندقيتي تحت أشعة شمس الظهيرة. رفعت رأسي وأخذت نظرةً خاطفةً. وجهت فوهة سلاحي وأطلقت النار صوب أحد الجنود المطلّين. وقع أرضا وهو يتهوع الدماء، فسحبه رفاقه بعد محاولات عديدة باءت بالفشل.

- تراجعوا

قالها أحد الرجال بجواري فتراجعنا مسرعين نحو الخندق الخلفي. لم يمض إلا القليل ودوى انفجار، أعدنا تنظيمنا ونحن نتمركز في الخندق الّذي يقع بعد سلسلة ضخمة من الركام وكانت هذه أحد خططنا للدفاع. نتراجع عندما يكون هجومهم خانقا علينا ثم لا نلبث طويلًا حتى نعود، بقي الاشتباك متواصلًا، وإبّانها ناولني أحد الرجال زجاجة خمر، فأمسكت بها في حين كان هو قد أخرج عود كبريت وأشعله. قرّبت الزجاجة من النار فاشتعلت الخرقة التي في فوهتها، انتظرت قليلًا ثم قذفتها ناحية الجند. ارتطمت بالأرض مخلّفة وراءها شظايا ملتهبة وأوقعت بالمتقدمين وهذه إحدى دفاعاتنا البدائية بعد أن استغلّينا الطبرنة ([40]) الموجودة بالساحة وقوارير خمرها. استعدنا مواقعنا الأولى وسط احتشاد وبعد دقائق استفحل الالتحام مع العدو، لكن أوامر إبراهيم كانت واضحة؛ لا إسراف في الذخيرة والطّلقة الذي تطلق يجب أن تصيب، وبعد إطلاق نارٍ كثيف أصيب الرّجل الذي ناولني الزجاجة قبل قليل في عنقه وأخذ يذرف دماءه بغزارة. سحبته بصعوبة من المتراس ثم حملته على ظهري والدّماء لا زالت تتدفق. تابعت ركضي في الساحة المشوهة بعد أن هطلت عليها القذائف بأعداد مهوّلة. ركضت بوهن وأنا أعلم بأنّ محاولاتي لن تجدي وأنه سيلاقي مصيره بجوار الجثث المتكومة في طرف الساحة. دخلت الدكان، وضعته بين يدي لويز وخرجت مسرعًا وسط جلبة الرجال. كان العشرات يفيضون لينضموا فوق الأسطح مع عبد القادر ومن معه، ترنحت قليلًا وأنا آخذ أنفاسي. أيقنت لحظتها أنّه لا أمل لنا بالنجاة، صحيح أنّنا قد صمدنا يومين في وجهم لكن الآن الطعام قد نفد والذخيرة ستنفد في أي لحظة.. دحرت هواجسي بصورة خيرية وكلمات أمّي وهي تقسم بتزويجها لي. رفعت رأسي عاليا واستحضرت مولانا وهمساته تداعب مسمعي، أهل في الأفق بعمامته الخضراء ولحيته المتشابكة. سأبوح بتلك الكلمات لخيرية عندما أعود، وسأشاركها السر الّذي قاله لي الولي الصالح قبل أن يرحل.

عاد إلى مسمعي صوت البنادق والرجال لا زالوا يحتشدون، لمحت إبراهيم فوق إحدى الأسطح وهو يصدّ هجوما ضاريا آتٍ من الأعلى. قبضت على سلاحي ورحت أعدو ناحية الحاجز من جديد وأنا غارق في التفكير، هل الحياة موت؟ أم أن الموت حياة؟ من يسبق الثاني؟ وأيّهما الباب؟ وأيّهما السرداب؟ من الذي يفضي إلى الآخر؟ حين وفدنا إلى الحياة أتينا من الموت أم من الحياة؟ وعندما نتركها وراءنا نذهب إلى الموت أم نعود للحياة التي جئنا منها؟

تنهدت طويلًا ثم قلت بيقين:

- إن المرء لا يعي حقا معنى الموت إلا حينما يعرف قلبه طريقا للحب.

شكَوتُ إِلى وَكيعٍ سوءَ حِفظي

فَأَرشَدَني إِلى تَركِ المَعاصي

حررت طلقتي الأخيرة باتجاه أحد الجنود ثم انسحبت من موقعي نحو الخندق، هتفت ورصاص الجنود يعلو:

- من لديه ذخيرة؟

أومأ معظمهم بنفيٍ، فقلت وأنا أتراجع من الخندق:

- من لديه طلقات ولو قليلةٍ يتقدم ويطلقها على فترات متباعدة

خطوت بين ركام الساحة أجرّ مذلات الهزيمة ورائي. قلّبت بصري في المكان فرأيت الجميع يبادلونني ذات النظرات، صمدنا لثلاثة أيّام دون طعام أو شراب والقذائف تتهاوى على رؤوسنا لكن حان الوقت لسقوطنا بعد أن نفدت الذخائر. أعدادٌ هائلة من الجرحى تتوارد على يدي لويز في محاولات بائسة منه لإنقاذهم، أيقنت عندما حررت طلقتي الأخيرة أن النّهاية قد حانت بكل تأكيد، أخذت أخطو بين الرجال الوجلين وأنا أتخيّل كيف سيقع خبري على خيرية التي وعدتها برجوعي، كيف سيقع خبرنا على أمي المسكينة؟ زحفت بوهن إلى أن وصلت لإبراهيم الذي تجلّى الهلع في أساريره بوضوح، سمعت أحدهم يقول له:

- الذخيرة قد نفدت

أجاب وهو يقلب عينه من بقعة إلى أخرى:

- هناك الحراب والسيوف..

تزايد عدد الرجال في الساحة بعد أن أفرغوا كل ما لديهم، حاول بعضهم أن يفرّ عن طريق الأسطح لكن ألسنة البنادق قد قنّصتهم، تصاعد العدد بصورةٍ مهولة بعد أصدت اشتباكات حادة. ضاعت بين الزحام الذي امتلك الساحة. لم أستطع أن أتعرف على أحدٍ لحظتها من فرط الهلع. حاول البعض التصدّي بالسيوف عند المدخل لكنهم وقعوا أرضا على الفور، فتراجعنا جميعًا بدون حماية نمسك بسيوفنا وبنادقنا الفارغة، ضاع إبراهيم مني في الجموع الّتي باتت قاب قوسين أو أدنى من مصرعها، القلوب أصبحت تخفق بوجل وسريان الدمار صار مسموعا. الآذان أصغت لما يدور بتمعّن. إطلاق النار لا زال يدوي. بدأ الجنود اقتحامهم لمعقلنا الذي صمد لثلاثة أيام عجاف. الأقدام أخذت تتراجع، والأجساد راحت تتلاصق. العرق يتساقط والأنفاس تتحجّر. المصير أضحى معلوما والكيف مجهولا. الحسن والقبيح من الحياة أصبح المبتغى. زال الهدف النبيل الّذي جمعنا وطغت النفس البشرية الحقيرة علينا. ولو كان الوقت بيدنا لنكلنا بعضنا بإبراهيم صاحب القيادة. أطلّ الجنود عند المدخل وبنادقهم لا تتوقف عن العمل. حرروا طلقاتهم صوب الأجساد فأسقطوها بكل يسر ودون تكلف. أهلّ الجنود من كل بقعة ممكنة فتكتلت أعدادنا عند نهاية الساحة شاردين من مصيرنا المحتوم. تقدم بعض الرجال بسيوفهم بعد أن أقرّوا بعدم الموت مكتوفي الأيادي لكنهم لم يصمدوا لكثيرٍ من الوقت. انسحبنا كلنا نحو مأوانا الأخير إلى أبعد نقطة لدى الجنود. فأصبحت أجسادنا تتصارع وتتزاحم. الكل يتراجع للخلف بفزع. لمحت من خلال الرؤوس والأيادي التي تعلو وتهبط الجنود وهم يرتبون صفوفهم بعد أن ثبتوا حرابهم في مقدمة بنادقهم. مع كل خطوة لهم كانت أبداننا تتخبّط وأجسادنا تتصارع للبقاء وسط وتيرة متصاعدة من الهلع. وقع من كان له الحظّ بأن يقف في مقدّمة حشدنا التعيس. فازداد صراع الأجساد ودون أن أشعر وجدت نفسي أقع بين الزحام. وقعت ولم أعد

قادرا عن الوقوف. حجبت عني أشعة الشمس وأصبحت أغوص في الظلام والأقدام تدك بدني. صرخت بعلو صوتي كي ينقذني أحد أو يشعر بي أحدهم لكن ما من مجيب.

أخذت الأجساد تتصارع وأنا غير مدرك لمجريات الأمور. انبرت الأرجل تصفعني بقوة، والظلام يزداد حلكة، والهواء ينقص رويدا. حاولت الوقوف لكن لم أقو وسط التصارع البائس. لا زلت أسمع إطلاق النار وأنا أنازع لألتقط أنفاسي. وبعد لحظات من الدهس الّذي فتك بي وأفقدني الشّعور بأطرافي، أخذ الهواء ينقطع. لويت بجسدي مختنقا وحاولت أن أصرخ لكنّني لم أقدر. أيّ نهاية هذه الّتي سألقاها. موتة مذلة بين أقدام رفاقي، أي نصر سيهنأ به الوالي وهو يذلّنا في موتنا؟ شعرت بروحي تنسل مني رويدا كما انكفأ فرط المضض. انغمست في الظلام الدامس أودّع عالم الأحياء. أريد ان أرى إبراهيم قبل أن أرحل. أريد إخباره أنّي أحببته أكثر من نفسي وأني حاولت جاهدا لتحقيق النّصر لنا، لكنّني لم أقدر. كنت أريد إخباره بما قاله لي مولانا قبل أن يرحل، فانصرف صوت مولانا يعلو في الظلام:

- قطع الله لسان من يقول عنك ابن زنا يا ولدي، أنت ابن أناس أخيار ويخافون رب العباد، لكن حكمة الله في خلقه ولا اعتراض على أمره ولولاها لما افترق والداك عنك..

ربّت على صدري، وقد شعرت بيده وهو يقول:

- في دنيتنا هذه، هناك إجابات لا نعرفها إلاّ عندما نقابل رب كريم.

أردت أن أعود إلى خيرية وأعرف معها معاني أخرى للحياة، أردت ألا أحنث بقسم أمي. أمُلت لو كنت بجانب إبراهيم حين نظفر بالنصر ونعيد حقنا المهضوم، تمنّيت لو عادت حياتنا كما كانت في السابق دون مشاكل بوجود أبي سعيد، والدكان، غرفة الكتب، طبخ أمي، سخريات حسن، تمنيت كل شيء لكن المنايا لا تتحقق. شعرت بيد تبطش بي فأغلقت باب الحياة. خريت وأنا أبصره يحدّق فيّ مستهزئا ويشرع لسانه من جديد.

بما إنها النهاية فلن أتأوّه ولن أذرف الدموع ضعفًا...

بما إنها النهاية فلن أتحسر على أمل مفقود، أو حلم ضائع...

رأيت عبد الباسط والدّماء تتسايل منه بغزارة. لمحت نظرته المرتعبة الّتي تحمل في طياتها معانيَ لا حصر لها، والآن فقط شعرت بها. أبصرت النّهاية بجلاء فردّدت في نفسي:

- أنا ابن أناس أخيار ويخافون رب العباد.. سيحين الوقت الإجابات يا مولانا، أنا في طريقي إليك وإليها يا سيدنا

ثم أردفت بنبرة حانية أجمل كلمات سمعتها أذناي:

- يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث..

ثم انتهى كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الخامس)

من قال أن النهاية هي النهاية

(إبراهيم)

تاهَ الأُعَيرِجُ وَاِستَعلى بِهِ الخَطَرُ

فَقُل لَهُ خَيرُ ما اِستَعمَلتَهُ الحَذَرُ

(٧٠)

ذكريات مشوهة ومرتّبة ترتيبا عشوائيا. لم أدرك ماذا حدث بعد تلك الفوضى العارمة الّتي ملأت الأنفس قبل المكان؟ وسط الأجساد التي تتدافع والبنادق التي تعلو ترنحت وأنا أخرّ دما.

عاد بصري ببطء. وذكرياتي المشوشة تطاردني. سمعت أحدهم:

- الحمد الله على السلامة يا إبراهيم

أخذت بعض الوقت حتى استدركت نفسي المبعثرة. شعرت بيد تربّت على صدري. أعاد الصوت كلماته، وأنا لا أبصر سوى مجموعة من الأضواء المتشابكة. أخذت لحظات طويلة حتى استطعت الإبصار، رغم الرؤية المعطوبة إلا انّني قد رأيت حسن ببدانته المعتادة.

- هل تسمعني أيّها المعتوه

قلت بوهن:

- أين أنا؟ ما الذي حدث؟

ابتعد مني، وراح يتحرك في الغرفة وهو يقول بعمق:

- نحن الآن في السرايا يا صديقي

فتح النافذة فانبعث هواء طري في المكان، تفرست النظر فيما حولي فوجدت تأكيدا لكلمات صديقي؛ فلا وجود لغرفٍ كهذه سوى في السرايا، عاد حسن بجواري وقال:

- الذي حدث أن الجيش التونسي تدخل وأنقذكم من بين فكي الجزايرلي. فقد استولوا على جربة بواسطة جيش جرار يضم معه أبناء القرمانلي، وكما كانت الخطة التي وضعتها قد أتى الجيش، وأثناء حصاركم استطاع عسكر سوسة من دخول المدينة بمساعدة الأهالي

قلبت كلماته بتوجس، لا أعلم ما يحدث لكنّي أحسّ بأن الدنيا انقلبت رأسا على عقبٍ. قلت وأنا أطلق تأوهات مكتومة:

- أين عبد السلام؟ والبقية؟

إبان صمت حسن المفاجئ، غرقت في مضض مجهول المصدر.. ثم أدركت أنّ عيني اليسرى مغلقة ولا أرى بواسطتها. قال حسن:

- لقد رزقت بطفل منذ أيام، سميته إبراهيم ودعوت الله ألا يكون مثلك أيها الأخرق..

فتح الباب، ودخل لويز. دنا منّي مسرعًا وسلم عليّ بحرارة. زال عني البعض من اضطرابي، لكني أعدت السؤال:

- أين عبد السلام إذًا؟

رمقني حسن بتوجس عندما كررت سؤالي. فأكملت قائلًا:

- ما بكم لا تجيبونني؟ أين عبد السلام؟

تبادل حسن ولويز النظر. أعرف حسن كنفسي وأعرفه عندما لا يقدر على المماطلة. لمحت ملامحه وهو على شفة البوح بما هو كاتمه. فقال بصوت أجشّ، باكٍ:

- لا راد لقضاء الله.. فلقد انتقل عبد السلام إلى رحمة الله

لا أعلم ماذا حدث حينها. شعرت بدنياي تتخبط. وكأنّما صاعقة من السماء هطلت على رأسي لتفقدني وعيي..

- ماذا تقول يا حسن؟ إنها إحدى دعابتك أليس كذلك؟

دنا حسن مني، أخذني في طوقه، انهمرت دموعي من عينٍ واحدة، في حين كنت أهذي بكلام لم أستوعبه.. رحت أنتحب بحرقة. كيف لهذا أن يحدث؟ لا، عبد السلام لم يمت، إنّه في أوج شبابه..

فاجأني حسن كما بغتتني كلماته وحطمتني إلى أشلاء؛ لا أظن أنها ستعود في يوم ما لجسد واحد. هوى بكفه وصفعني بقوة وهو يصرخ في وجهي:

- لم آتِ إليك لتنتحب مثل النساء، نعم لقد مات عبد السلام ودرغوث ولطفي وعبد القادر وغيرهم الكثير، وفقدت أنت عينك...

قال لويز وعيناه مكتنزةً دمعا:

- لا تفعل هذا يا حسن

صرخ حسن بغضب لم أعهده منه من قبل:

- اصمت نت.. نعم كل هؤلاء قد رحلوا، فوفر بكاءك إلى وقت آخر، كل ما فعلته أنت والرجال سيضيع إن لم نفعل شيئا

ازدادت تشنجاتي. فارتفع هتافه:

- يا لويز أعطه دواءً أو ما شابه ذلك ليهدأ.. فلن أسمح بأن يضيع دم عبد السلام ورفاقه هدرا ولو كلّفني ذلك حياتي.

أحسَنتَ ظنّك بِالأيّام إذ حَسُنَت

وَلَم تَخَف سوءَ ما يَأتي بِهِ القَدَرُ

(٧١)

نهضت من الفراش بمساعدة لويز. اعتصرت ساقي ألما وأنا أستند على عكازي. أتاني حسن وخالي زكريا وأخبراني أن كل شيء على وجه الاستعداد، وفي انتظار خطّتي المزعومة. خرجت من الغرفة بمساعدة لويز وعكازي الهزيل، فوجدت نفسي في ردهة مبلطة. سلكنا طريقنا إلى أن وصلنا لبهو مشجر. قطعناه والعبيد يذرعونه ذهابا وإيابا. عرفت من لويز أثناء الطريق أن أحمد البك القرمانلي قد أصرّ على أن أقطن بالسرايا وخصّص لي تلك الغرفة. كانت العربة تنتظرنا في المكان المخصص لها، فصعدنا وراحت دواليبها تتحرك مع أنغام سائسها ورنين سوطه الذي يهوى على ظهر الحمار.

بعد أن أفقت من نوبتي وأدركت ما حدث في غفوتي الطويلة؛ قد أصيبت البلاد بخراب قد فاق خراب الجزايرلي وجنوده بعد أن حلّ عسكر سوسة وفصائل الأعراب المساندة، فسرقت الأرزاق واستبيحت الحرمات، ونال الأهالي شر مذلّة. لم يترك العسكر في طريقهم لا أحضر ولا يابس، بعد أن جمع الجزايرلي كل ما هو نفيس في ثلاثة سفن وفرّ هاربًا؛ وبهذا ضاع ثائري في غياهب الأيام، القبائل لم تفعل طيبا هي الأخرى بعد الوعد الذي قطعه يوسف القرمانلي لهم باستباحة المدينة لثلاثة أيام. كأننا شيئا لم يكن، بعد حربنا الضروس وتضحيتنا الثمينة أتى ابن القرمانلي وضرب بها عرض الحائط.

عرجت العربة أمام الديوان العظيم، ذلك المبنى المهيب القائم في نصف المدينة. استقبلني حسن وخالي زكريا أمام الديوان. تفرّست النظر حولي بعيني الوحيدة وقلت لهم:

- الكل موجودون؟

- أفندي أو أثنان فقط من عتذر عن المجيء

أومأت موافقا. أسندت نفسي على العكاز والوجع حاضرٌ. دخلت بهو الديوان ورفاقي خلفي. تبادل الرجال الواقفون في البهو نظراتهم وأخذ همسهم يعلو. سمعت أحدهم يقول وأنا أذرع القاعة:

- رجل ابن رجل ورب الكعبة يا ابن عمر..

دخلت القاعة البرحة وهتفت قائلًا:

- السلام عليكم.

أتى رد السلام بصوت جماعي. خطوت وأنا أستند على عكازي بين أعيان طرابلس ووجهائها، كانوا رجالًا بمختلف أعمارهم ومناصبهم وأعمالهم. لمحت القاضي حسن بن سليمان؛ فتذكرت مديح أبي في هذا الرجل الشريف. جلست بين الجموع بعد إيماءات متبادلة من الجميع. علا صوت أحدهم قائلًا:

- فيما جمعتنا يا ابن عمر؟

أجبت وأنا أقلب نظري بين الوجوه:

- يا أهل الخير أنا امرؤٌ قد فقد أباه أمام عينيه ثم خاض حروبا طويلة وفقد خلالها رفاقا وأحبابا، بظنكم لماذا فعلت كل هذا؟ فعلت كل هذا لآخذ حقي وحق الكثير من الطاغوت المستبد علي الجزايرلي.. وبعد كل تلك التضحيات الّتي قدمتها أنا ورفاقي يأتي غادر قد قتل أخاه في يومٍ ما ويضرب بتضحياتنا عرض الحائط؟

قال البيّ محمود النحاس الذي يجلس مواجهًا لي:

- وما الحل لنتخلص من هذا الوباء يا ابن عمر؟

- نطردهم..

- وكأن طردهم بهذه السهولة؟

أطلقت ساقي أنينها، وأجابتها عيني الفقيدة بصداع مبرح، فقلت وأنا أكز على أسناني:

- نعم بهذه السهولة إذا اتفق كل من في القاعة على هذا

- إذًا سيرحل عسكر سوسة، اعتبر أنّ اتّفاقنا قد تم، لكن كيف ذلك؟

- قد جمعت مجموعتي من جديد وسنقوم بمناورة. لكن أولا يجب علينا أن نجمع مبلغا جيدا لنعطيه للعسكر...

قاطعني أحدهم بفظاظة:

- يسرقوننا ويخرّبون ديارنا ثم تأتي وتقول نعطيهم أموالنا؟

رنوت مكفهرّ الوجه وآلامي ضاعفت من حنقي:

- لنصمت جميعنا ونترك السيد المحترم يطرد المخربين..

طأطأ المتكلم رأسه واضطربت أساريره. فقال القاضي:

- نحن الأضعف في الصراع، لذلك يجب أن نقدم تنازلات يا سادة

قال أحد الجالسين بمكر:

- نحن معك يا ابن عمر.. لكن من سيحكم بعد هذا؟

فأجبت دون اكتراث:

- سيحكم من هو أحق بالحكم..

وَسالَمَتكَ اللَيالي فَاِغتَرَرتَ بِها

وَعِندَ صَفوِ اللَيالي يَحدُثُ الكَدَرُ

(٧٢)

استقبلني مملوك بقسماته الحادة. شوحت له بالابتعاد وانا أتكئ على عكازي، تفرّس النظر بي وبمن معي ثم أزاح عن الطريق بخنوع. أكملت خطاي وساقي تعوي. تنفست الصعداء وأنا أرتّب أفكاري لثواني، ثم ولجت لجناح الأمير. أطلقت السلام وسط ارتياب يوسف القرمانلي، تقدمت في جناحه دون أن أعيره أي اهتمام. أرحت جسدي على أريكة حسنة المظهر في المنتصف، قال يوسف بوجل:

- من أنت؟ كيف دخلت إلى هنا؟

قلت بوجهٍ بش وبثقة كأنّما أجلس في داري:

- ارتح يا بك، وستفهم كل شيء.. يا خادم أحضر ليمونا لسيدك

تسمر يوسف مكانه وهو يحدّق بقلق، فقلت:

-أنا إبراهيم بن عمر..

تنهد يوسف بنفاد صبرٍ وقال:

- لم نتقابل من قبل لكن أخبارك كانت تصلني

أخرجت سيجارة وشرعت بتدخينها. قلت بعد أن نفثت كبوة دخان كثيف:

- دعنا نكن متّفقين على أننا غير متّفقين البتة، وإن كان الموقف غير الموقف لخلعت أوسخ شلاكة ([41]) لديّ وأعطيتك بها على دماغك.

زمجر حانقا فقاطعته بغضب:

- أغلق فاك واسمعني.. وعدك للقبائل وتشجعيك لهم قد قذف بنا في قلب العاصفة

فقال مغتاظا:

- ومن الذي أنقذك أنت ومن معك؟

- ومن أدخل حمودة باشا للساحة يا بك؟ أم نسيت؟

أخذت نفسا من السيجارة ثم نبست قائلًا:

- أنا أقدّر موقعك في الهرم الاجتماعي، لكن يجب أن نتحفظ عليك فترة من الزمن إلى أن يمضي كل هذا

صاح غاضبا:

- بماذا تهذي..

قلت بعدم اكتراث:

- يا رجال خدوا البك إلى محل سكنه الجديد ولا تنسوا بأن تطوفوا به الشوارع وهو مكبل.

اقتحم على أثرِ كلامي خمسة جنود وأمسكوه. أخذ يوسف يصرخ ويشتم وهو واقعٌ بين قبضةِ الجنود، فقلت له:

- أعرف أنّ هذا سيجرح كبرياءك الجامح لكن لا مناصّ من ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولجت مساءً القاعة التي ستحدّد مصير كل أفعالي المتهورة، وفد للقاعة الفخمة أحمد بك القرمانلي الّذي اتفقت معه مسبقا على كل كلمة ستدور في الاجتماع، والحاج مصطفى خوجة قائد الجيش التونسي. بعد السلام والعبارات المهذّبة الكاذبة، جلسنا، وبدأ أحمد يسترسل في الكلام حتّى وصل في بيت القصيد وهو الحالة السّيئة التي تمر بها طرابلس. فقلت بهدوء:

- أولًا أريد أن أشيد باحترامي التام لشخصك الكريم ولحمودة باشا لما بذله من جهود لمساعدتنا، ولكن..

أجاب الحاج مصطفى بابتسامة صفراء:

- ولكن ماذا؟

- التّجاوزات من طرف الجنود قد زادت عن حد الصمت، بل لم يتوقف الأمر عند ذلك فرجال القبائل أيضًا عاثوا فسادا

فقال بمكر بادٍ :

- جميعنا نعلم من الذي وعد البدو بالمدينة

فقال أحمد:

- وجميعنا يعلم ماذا حدث لمن وعد البدو بالمدينة!

ثم استطرد قائلًا:

- الفوضى حفرة عميقة ستأخذنا جميعا إلى الهلاك

قال مصطفى بخبث:

- أنا أختلف معك يا بك، الفوضى ليست حفرة.. الفوضى عبارة عن سُلم للسلطة والمجد

فتدخّلت بنبرة مفتقرة للوداد:

- إن مهنتي نجار يا سيدي، لذلك اترك أمر السلالم لي

قال مصطفى وهو يبدّل نظره بيننا:

- إلى ماذا تلوّحون يا سادة؟

- لعودة أصحاب الكرسي إلى كرسيّهم

قهقه مصطفى ضحكا، ثم قال بخبث قد تضاعف:

- ليت الأمور بهذه البساطة

بادلته القهقهة حتى ارتبك في أمري ثم قلت:

- في الحقيقة هي بهذه البساطة

أطبقت يدي ناحية صدري وتبعت كلامي:

- إبان حديثنا الشيق قد استطعنا أن نطرد البدو من المدينة من قبل رجالنا الأشاوس وبعض من جنودك الذين انغروا بالأوامر المزيفة الذي ظنوها منك.. ما نطلبه منك أن تنسحب بقوتك من حيث أتيت بكل امتنان ولنثبت متانة علاقاتنا، جمعنا لكم مبلغا محترما؛ أعطيه على مجهودكم الجبار..

ضحك مصطفى ثم أضاف متهكما:

- وما يجبرني على هذا الهذيان؟

نهضت من جلستي وقلت:

- هل تستطيع أن ترافقني إلى النافذة؟

نهض بعد طول تفكير. وقفنا على النافذة المرتفعة التي تكشف معظم المدينة. أشرت بسبابتي، وقلت:

- هل ترى الأبواب؟ لقد تم إيصادها، وأنت تعلم أن جلّ جنودك في هذه اللحظة خارج الأسوار مما يعنى قد أصبحتم بين أيدينا.. هل تنظر إلى هناك، نعم هناك. هؤلاء رجالنا لقد أحاطوا بجنودك الغارقين في عسلهم، وهناك أيضًا، نعم حيث الميناء يحيط رجالنا بجنودك دون أن يشعروا. وجميعهم على أتمّ استعداد بالقيام بأيّ شيء وفي أيّ وقت، ناهيك عن الأهالي الذين تغلي قلوبهم على جنودك والذي سيتم تسليحهم في غمضة عين.

قال أحمد برزانة:

- هناك اختياران لحلّ هذا الخلاف البسيط، لكن أريد أن أذكرك بردّة فعل حمودة باشا عندما يعلم أنك قد حاربت أبناء صديقه وحلفائه وهم يمدّون لك يد السلام.

انغمس مصطفى في تفكيره. وبعد لحظات من الصمت أومأ موافقا فقلت وابتسامة النّصر تتدلى من شفتي:

- ليبدأ حكم أحمد باشا بن علي القرمانلي إذًا.

سَهِرَت أَعيِنٌ وَنامَت عُيونُ

في أُمورٍ تَكونُ أَو لا تَكونُ

(٧٣)

انقشع كل شيء ولم يبق سوى الفراغ، أصبح الأمر أشبه بمن يفتح يديه في فراغٍ أسود يبحث عمّن يعزي روحه في انفصامها العميق.

في السراي، راحت الفرقة الموسيقية تعزف ألحانها أمام قاعة العرش، وقد ذكرتني بيوم قد قضيته مع والدي منذ زمن، دخل أحمد القاعة وجلس على عرشه. بدأت مراسم الاحتفال والصخب يجوب الشوارع احتفالا بواليهم الجديد. لم أكن حاضرا في الحفل بمعنى الكلمة فانغمست في الصمت والتفكير، بينما الهرج والمرج يعمّ المكان. تقدّم الكثيرون ليقدموا واجب الولاء للباشا الجديد ولذلك قد رافقني جدي الهادي في المناسبة التي لم تثرني عودة ظهور يوسف المفاجئة لتقديم الولاء والطاعة لأخيه، لم يخلُ الأمر من نظرات نارية منه تتوعد بالهلاك، وقد نقل لي أحد الرجال أنّ يوسف قد توعّد بقتلي أمام الجميع والتنكيل بجثتي، فليفعلها هذا المغتصب وأرتاح مما أنا فيه. علا صوت أحمد باشا فأيقظني من غفوتي:

- شكرا للجميع، من اليوم بإذن الله سيطلع فجر جديد على ولايتنا ولن يحمل معه سوى الرخاء والهناء، فقد اكتفينا من الحرب والخراب. قد عيّنت واليا عليكم وقد قبلت بهذا المنصب الشاق وسأراعي كل ما هو خير لنا جميعنا.. والآن حان الوقت لأعلن عن وزراءي وأمناءي

نهض من على كرسيه وتابع:

- سيكون إبراهيم بن عمر هو مساعدي ووزير دولتي ويدي اليمنى الّتي أبطش بها كل متمرد وخائن

ارتبكت وأنا أرى كل الأعين ترنو بفرح، وراح بعضهم يهلّلون ويباركون. من قال لهؤلاء الملاعين أنّي أريد هذا؟ قلت بتردد واضح:

- شكرا على ثقتك سعادتك، لكن...

بتر أحمد كلماتي قائلًا:

- انتهى الأمر يا ابن عمر

عاد لكرسيه. وأخذ ينطق بأسماء البقيّة وأنا غائصُ في ورطة جديدة. استمرت مراسم الحفل الّتي لم أعرف أولها من آخرها. تذكرت عندما كان يرجع أبي للبيت مبتهجا، ولا ينفك على وصف الاحتفالات الّتي تقام، تعجبت من سذاجته، فما الجميل في كل هذا؟ لم أستطع أن أرى سوى مستنقع عفن يزخر بثعابين حقودة.

بعد أن انتهى الحفل واختفى الباشا عن الأنظار برفقة عبيده، أتاني جدّي مكفهر الوجه، وقال بقلق:

- لقد أرسل زكريا ابنه الهادي يحثّنا بالرّجوع فورا، ويقول إنّ هناك مصيبةٌ ويجب أن تأتي معي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلنا القرية في غياهب الليل. قال الهادي أنّ أباه ينتظرنا في بيت خالي مصباح. فأخذت أنا وجدي نساند بعضنا البعض هو بعجزه وضعف عظامه وأنا بساقي العرجاء وعيني الكليلة. فور أن اقتربنا دوى صوت زكريا:

- ما أخرّكم؟

قال جدي بوجل:

- ماذا هناك؟ لقد أرعبتنا.

نظر لي وهو يشتعل غيظا، وقال:

- هناك العار.

استدار ودخل البيت، فدخلنا وراءه وألف سؤال يعصِف بنا. سمعت صوت بكاءٍ فور أن ولجت للمنزل. نظرت أمامي فوجدت سارة هاويةً أرضا وغارقة في بكائها. جلس جدي على الأريكة المقابلة لسارة وقسماته لا تكف عن التساؤلات. دخل زكريا للغرفة ثم عاد وهو يجرّ لويز. وصل به بجوار جدي ثم انهال عليه ضربا حتى جعله يركع. وكأنما دهسني حصان لحظتها، ماذا يفعل لويز هنا؟ ماذا يجري؟

قال زكريا وهو يمسك بمسدسه:

- قد لوّث هذا الخسيس شرفنا يا أبي

قال جدي بانفعال بعد أن فاض به:

- ماذا يجري؟

رمقني زكريا بنظرةٍ حادة، وقال:

- لقد أمسك الهادي بهذا الخسيس هنا.. اتركني أقتلهم يا حاج

انهال بالضرب مرّة أخرى على لويز الّذي تورم وجهه وتلطخت ملابسه بالدماء. أكمل زكريا بغضب متقد:

- لقد خان هذا الخسيس كل شيء، والله أعلم منذ متى يحدث هذا

غرق جدي في صمته. يقلّب نظره بينهما. تسمرت مكاني وأنا أتجرع أنفاسي بصعوبة. كيف لرفيقي أن يفعل هذا ؟ كرّر زكريا كلماته:

- اتركني أقتلهم..

اضطربت حواسي ودمّرت مفاهيمي. بات الوقت يمضي ببطء.. بكاء سارة وتقطع أنفاسها.. كلمات زكريا المشتعلة.. دماء لويز المبعثرة.. صمت جدي المقلق.. بتشوش ومن دون إدراكٍ لما سأقدم عليه، قلت:

- أنا من أتى به وأنا من يتحمل أخطاءه

أمسكت به من عنقه. استحضرت كل الّذي قضيناه معا. تذكّرت عندما فتحت عيني ووجدته، الجدة والشاي الذي تعده، شوارع البندقية..

قذفت بكل تلك الذكريات بعيدا كما فعلت به. ركعت مكانه وساقي تطلق ألسنة مضضها بعد أن ركلته فوقع مبتعدًا. نظرت لجدّي بجمود، وقلت وأنا أكزّ على أسناني:

- احكم الآن يا سيدي

قلب نظره بيننا وقال حازما:

- عرس إبراهيم على سارة الخميس القادم

ثم حدج لويز بمقت، وقال:

- احمل نفسك وعد من حيث أتيت وإلا قتلناك أيّها الملعون.

أومأ جدي برأسه، فانهال زكريا بضربه وهو يجرّه إلى الخارج. تلاقت أعيننا فرأيت الفزع في قسماته الهادئة. دموعه محبوسة في محجرها. نظراته تحمل في طيّاتها آلاف الكلمات.

وكانت تلك المرة الأخيرة التي رأيت فيها منقذي وصديقي الذّي جمعتني به الحياة في أغرب صدفها على الإطلاق.

فَادرَأِ الهَمَّ ما اِستَطَعتَ عَن النَفسِ

فَحِملانُكَ الهُمومَ جُنونُ

(٧٤)

لمحت محبوبة بين الجموع. رأيتها تختلس النظر فانعقد لساني. ارتبكت للحظات وأنا أحدق فيها بشجن. أومأت ببشاشة ثم تلاشت وإبّانها كان جدي يردد كلماته وراء الشيخ معلنا عقد قراني على سارة، سلم عليّ الرجال وهم يباركون، على ماذا يباركون؟ هل على صديقي الخائن؟ أم على ابني الذي قتلته؟ أم على أبي الذي مات بسببي؟ رضخت للواقع ولحكم جدي، وأخذت عروسي وهي تختبئ تحت لثامها، وحينها نفذت إلى السماء بعض الزغاريد المتفرقة، لم تتفوه سارة بحرف وكذلك أنا. كان الزواج مفاجئا للجميع، فما حدث في تلك الليلة المشؤومة بقي في أفئدة الحاضرين فقط، حتى أمي لم تعلم بشيء. فكرت طول الطريق ماذا سأفعل عندما ينغلق علينا باب واحد، هل أستطيع أن ألمسها؟ بل هل أستطيع أن أنظر إليها؛ وأنا أشعر بمحبوبة تختلس النظر طوال الوقت. بقيت غارقا في صمتي طوال الطريق إلى أن حان موعد انفجار بركان محبوبة، لم أستطع ان أقاوم الرغبة التي اجتاحتني فقلت ونحن على مشارف طرابلس:

- هناك مكان يجب أن أزوره قبل أن نذهب إلى منزلنا

وفي غضون دقائق كنت أمام قبر محبوبة. حبوت ناحية قبرها تاركا هودج سارة خلفي، قرأت الفاتحة بشجن ومسحت على قبرها وذكرياتنا تتطوّف يمينًا وشمالًا. كنت أريد ان أرقد بجانبها للأبد وأتملّص من متاعب الحياة التعيسة، لكن هذا لم يحدث.

فتحت باب المنزل ودخلنا. نعم هو ذات المنزل الّذي قضيت فيه طفولتي بجوار محبوبة، لكنّه خلا من الحياة. قد تم صيانته في ظرف أيام وقد عاد جديدا وربما أفضل من السابق كما قال حسن. لكن بالنسبة لي أصبح أشبه بالخراب. تقدّمت ببطء وأنا أتأمّل المكان. البركة قد بقيت في مكانها رغم أنّ رخامها قد استبدل واختفت ملامحها. الفناء لم يكن أفضل حالٍ بعد أن زالت شجرتا البرتقال، تلاشى الشاهد الذي راقبني أنا ومحبوبة، تحت أغصانهما الخضراء لمست ثغرها واستطعمت عذوبته، وبثمارهما الجميلة كنت أرى أجمل ابتسامة في الوجود. أكملت خطوي في الفناء وأنا أستحضر كل الذكريات الّتي انقضت في هذا البيت العتيق. وفي غرفة نوم أبي القديمة رأيتها، صحيح أنني لم أر الدموع التي كانت تسيطر عليه في لقائنا الأخير إلا أنّ ملامح الانكسار تفز من عينيها. ولأول مرة أتساءل، إلى

أين وصل معها صديقي اللعوب؟ هل لمسها؟ هل فك بكرتها؟ أم ظلمت المسكينة كما تقسم عيناها المنكسرتان؟ تخّبطت التساؤلات دون أن أصل لإجابةٍ تريحني.

جلست سارة بفستانها الأبيض على السدّة، على الأقل لم تحرم من الفستان كما حرمت من عرس كبقية قريناتها. جلست بجوارها أتنفس الصعداء، والصمت ثالثنا. بعد لحظاتٍ عجاف نهضت من جلستها، وجثت عند قدمي. مدّت يديها، وراحت تخلع فردتي حذائي، وقالت بحياء:

- سمعت من إحدى النسوة تقول أنه يجب على العروس أن تخلع حذاء زوجها..

بترت كلماتها ووضعت الحذاء جنبا ثم قالت:

- هل ستبقى صامتا؟

أجبت بتردد:

- لا أعرف ماذا أقول

بقيت مكانها تسرق النظر لي من برهةٍ إلى أخرى. ثم قالت وعينها مخترقةّ كل الحواجز:

- لديك الحق..

ثم أردفت بحزنٍ :

- ماذا سيقول مرء لامرأة لم يرغب بها، لكن..

التفتَت كي تهرب من عيني، وقالت:

- ورب الكعبة لم يحدث أي شيء. وعمي زكريا لمـ...

قاطعتها قائلًا:

- أنا سأنام في الخارج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فررت من المنزل باكرا باتجاه السرايا حتى لا أراها. نظراتها لم تغفل عن ذهني لحظة في ليلتي التعيسة. استدركت بأنّها ربّما كانت مظلومة وسط الآذان الصماء الرافضة لسماع قصتها. قذفت بكل ذلك لساعات قليلة واتجهت لمحل عملي الجديد. تفقّدت المصالح والجميع كان ينحني احتراما، والتقيت بوكيلي سمير أفندي، رجل في نهايةِ عقده الخامس تقريبا، قد أمضى حياته في خدمة أصحاب المناصب، ومنذ اللّقاء الأول أثارني بلسانه اللبق. جلست في مكتبي الرحب وتمنيت أن يراني أبي، تمنّيت لو كان معي لأجلسته مكاني. أتذكر يوم ترقيته وكيف كان سعيدا كاسمه، عاد إلى البيت بوجبة سمك معتبرة فأكلناها والبهجة تصاحبنا، ولم تخل تلك الجلسة من نظرات أمي المضحكة الّتي بثّتها عندما لم تقدر محبوبة على المقاومة وأطعمتني بيدها. تمنّيت لو يجلس مكاني ويعود لنا بنفس ذلك الغداء لنجلس ونأكله بذات البهجة. أتى أحمد باشا لمكتبي وقال بتشوش فور جلوسه:

- جئت لاستشارتك يا إبراهيم، أنت تعرف تاريخ أخي يوسف الدموي

ثم أردف مكفهرّ الوجه:

- أفكر أن أولّيه بنغازي لأبعده عن هنا

- افعل ذلك وسيحاصر طرابلس بجيش جرار في غضون أشهر، سيفعل فعلته السابقة ويؤجّج القبائل ضدنا

قلت بعد أن ألفت السؤال على ملامحه:

- الحل هو أن تبقيه هنا وتحت عينك، والسعيُ جاهدا للتّقليل من صلاحياته.. لقد زودت حراسة معاليك وفي الوقت الراهن يجب أن تكون تحركاتك محدودة.

وقف الباشا وتفرس النظر بي ثم قال بصوت حماسي:

- حدثني يا إبراهيم كيف نعيد الدولة مثل سابق عهدها؟

شعرت وهو يطرح سؤاله إني أتحدّث مع طفل صغير، فقلت:

- نفعل كما فعل جدك أحمد الكبير. طرابلس تقتات على أمرين يا باشا، طرق القوافل وإتاوات البحر، ولننجح في ذلك يجب أن يستتب الأمن.

حدجني باسما، وبعد برهة صمت قال:

- هل تعلم أنك أصغر وزير في تاريخ طرابلس..

إِنَّ رَبًّا كَفاكَ بِالأَمسِ ما كانَ

سَيَكفيكَ في غَدٍ ما يَكونُ

(٧٥)

- ها قد مر يوم آخر.

الجملة الذي أردّدها في كل مرة أصحو فيها. هبطت من السدّة بهدوء حتى لا تستيقظ سارة من نومها، فقد أصبحت أجاورها الفراش بعد أن قررت أمي العودة لطرابلس. بمرور الأيام اعتدنا وجود بعضنا رغم أنّنا لم نقم بما يقوم به أي زوجين. انهمكت هي في خدمتي وخدمة أمي التي أصبحت تمرض باستمرار، وألهيت أنا نفسي بعملي الّذي لم أكن أطيقه فيما سبق، أخرج منذ الصباح ولا أعود حتى المساء، وفور وصولي للمنزل أدخل غرفة الكتب الذي استلهيت في إنشائها محاولًا أن أقيم غرفة كتلك الأثيرة التي احترقت.

خرجت من الغرفة وجلست تحت العريشة المشوّهة، تنفست الصعداء وتمعنت النظر في السماء المكفهرة، فور أن تتوارى الشمس خلف الأفق ويحل الهدوء ينتابني شعور خفي. أبحر في مخيلتي. أمسك بقلمي فتعجز الحروف والكلمات عن وصف مشاعري، فتخور قواي وأتساءل هل ما زلت أجهل مشاعري لهذا القدر؟ لكني معذور فكيف للمرء أن يعيش بسلام مع كل تلك الذكريات البائسة.

ظهرت براءة سارة مع الأيام، وأصبحت موقنا بأنها لم تفعل أيّ شيء، وأنها وقعت ضحية لتأويل خاطئ، ورغم أنّي قد أيقنت براءتها إلا أنّني بقيت على حالتي معها، كئيبا حبيس ذكرياتي العبوسة. فأخذت أضع طوبة فوق أخرى لأقيم جدارا منيعا بيني وبينها؛ لكن كل تلك المحاولات قد تهاوت في إحدى الليالي، عندما خرجت من غرفة الكتب ودنوت من الباب الموارب. رأيتها متوشحه عباءتها وتصلّي، فبقيت أختلس النّظر في صمت، وجدتها اعتدلت في سجودها ثم سمعتها تقول بنبرة باكية:

- يا الله، أخبرك أنني أقاوم حتى الآن راغبةً في عدم تخييب ظنك بي، رجاءً مدّني ببعض القوة والكثير من الصبر.. فلا أريد أن أقع في منتصف الطريق.

ازدادت شهقاتها حتى النّحيب وهي تقول:

- يا رب.. لا أريد مساندة من بشر، فقط بعضا من عفوك ورضاك ليعينني فأكمل.. يا ربي إنني أخاف أن تتهاوى قوّتي وينهدم صمودي وسط كل هذا الظلم والافتراء.. لذا كُن لي معينا في عالم لا يعين به أحد.

لا أعلم ماذا جرى لي ليلَتها، شعرت بأنّي أريد الاقتراب منها والاعتذار لها على معاملتي الفظة رغم أني قد أيقنت براءتها. شئت أن أدنو منها وأطوي صفحة الماضي، وهي الّتي تسعى بشتى الطرق لإرضائي.. لكنّي لم أفعل ذلك، ووجدت قدمي تتراجع من حيث أتت تاركا إياها تكمل دعاءها الشجي.

رتبت في نفسي القذرة كما لم أفعل من قبل. ماذا أريد عليّ اللعنة؟ من أنا بحقّ الأحباب الضائعين؟ إلى أين أريد أن أصل بهذا العقل المريض والجسد العليل؟ ألا يكفيني ظلما للعبيد؟ ألا يكفي الرجال الذي أودعتهم قبورهم وأنا أوهمهم بأنّي أحارب من أجلهم؟ فأنا لم أحارب إلا لأجل نفسي لا غير..

رَأَيتُكَ تَكويني بِمَيسَمِ مِنَّةٍ

كَأَنَّكَ كُنتَ الأَصلَ في يَومِ تَكويني

(٧٦)

استيقظت من نومي على صوت سارة وهي تقول:

- صباح الخير

فركت عيني ناعسا في حين أكملت هي باسمة:

- سأجهّز لك ثيابك

ارتديت ثيابي الأنيقة التي تليق بمنصبي الحالي. جثت سارة على ركبتيها وألبستني حذائي، ثم قالت:

- سأحضر لك الفطور..

قطعت سير خطوها قائلًا:

- لا تتعبي نفسك، سأفطر في السرايا اليوم

ثم تبعت:

- ولا تطبخوا الغداء، سأحضره معي من الخارج

فقالت بخنوع:

- حاضر

مدّت يدها نحوي وعدلت قميصي بخجل، فأومأت إليها بشًا. خرجت من الغرفة وهي خلفي تردد:

- في رعاية الله وحفظه..

تبعتني وهي تردّد الأدعية وقد ذكّرتني بأمّي عندما كانت في أوج صحتها. وبالقرب من الباب التفتُ لها وأشرعت سبابتي قائلًا:

- إياكم أن تطبخوا.. أكّدي هذا على أمي

اندفعت منها ضحكة وهي تقول:

- حاضر.

بقيت لأيام طويلة وأنا أفكّر في الاستعفاء من منصبي، لم أعد قادرا على النفاق أكثر من هذا، سأخرج من المستنقع القذر كما دخلت ولا أريد مالا أو جاها، يكفيني المال الذي يذرّه عليّ الدكان لأعيش منه أنا وأسرتي. أخبرت حسن بقراري، فشجّعني على الفور وقال إنه اشتاق لوجودي في الدكان. حن لأيامنا الّتي ولّت، جلستنا في سوق المقاهي ومعنا لطفي ويوسف وساسي، جولاتنا في الأزقة، رحلاتنا إلى المنشية. أمّا حسن فلم تقدر الأيام أن تجعله ينخّ عن مبادئه، فبقى يحيا للسخرية والضّحك. وكلّما تعكر صفوي أو أردت أن أهرب من واقعي المرير أذهب إليه وأقضي بعض الوقت بصحبته، أغرقني ضحكا وهو يخبرني بما يقوم به إبراهيم الصغير وقال لي إنه يدعو الله في كل صلاة كي يبتعد إبراهيم عن رفقاء السوء أمثالي.

ولجت بوابة السرايا على متن عربتي الفاخرة. سلكت طريقي المعتاد الذي يبدأ بالبهو المشجر وينتهي بالممر المبلط. وجدّت سمير ينتظرني وهو في كامل أناقته، قال فور اقترابي:

- صباحك سعيد إبراهيم بك، كيف حال سعادتك اليوم؟

رنا بنظرة كاشفة ثم قال بعد لحظات:

- هناك أمرٌ غريب في سعادتك اليوم

فقلت:

- عزمت على أمر وأريدك أن تؤيدني فيه

- ما هو؟

أخرجت سيجارة وأشعلتها ثم أخذت نفسا عميقا وقلت:

- أريد أن أستعفى من منصبي هذا

فغر فاه ثم قال متفاجِئا:

- لماذا سعادتك؟

أجبته وأنا آخذ نفسا آخر من السيجارة:

- لم أعد أستطيع التحمل، هذا المكان لا يناسبني يا سمير

تنهد طويلًا، ثم قال بوهن:

- فمن أين سنأتي بوزير مثلك.

اقتحمت خصوصية الباشا وهو يجلس في الحديقة، ودون أيّ مقدمات أبلغته برغبتي. تفاجأ وحاول أن يفهم السبب، اعتذرت منه وأثنيت عليه فرضخ للواقع وقبل رغبتي. أخبرني خلال حوار طويل أنّ الباب سيبقى مفتوحا على الدوام، فشكرته على رحابة صدره ودعوت الله في سري بألا نلتقي مجددا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت المنزل وأنا أحمل الغداء. أتت سارة فور أن سمعت صوتي، وقالت وهي تخفي استغرابها خلف ابتسامة هادئة:

- حمدا لله على سلامتك..

دنت مني وحملت ما بين يدي من أغراض، تساءلت ببراءة:

- ما الغداء؟

أجبت وأنا أخلع عمامتي:

- سمك.

- سمك! إن عمتي تحبه.

قلت وأنا أتمعّن النظر فيها:

- وأعلم أنك تحبينه أيضًا، لذلك جلبته.

مضت بخجل من أمامي. ولم يمض الكثير حتى كنا نجلس على سُفرة الطعام. وأثناء الأكل قالت أمي بنفاد صبر:

- ماذا تخفي خلف هذه الابتسامة؟

أجبت مداعبا سعة صبرها:

- هناك مستجدات.

- ماذا هناك؟

فقلت وأنا ألوك الطّعام:

- لقد تركت العمل في السرايا.

نظرت لسارة وأردفت قائلًا:

- أريد أن أتفرع لبيتي.

- خير ما فعلت يا ولدي.

فقلت وأنا أحدق فيها بتمعن:

- ما رأيك يا سارة؟

- الرأي رأيك.. وقد فعلت الصواب.

قلت باسما بعد لحظات من الأكل:

- هل تعلمين يا أمي أن اليوم فقط أدركت أن عينيّ سارة فاتنتين.

ضحكت أمي بعلوّ صوتها، وقالت:

- إنه العمى يا ولدي، لكن الحمد الله قد عاد إليك بصرك.

بعدها بقليلٍ نهضت سارة، واتجهت للغرفة، فتبعتها، أقفلت الباب خلفي وجلست بجوارها، ثم قلت:

- لقد قصدّت كل كلمة قلتها.

- شكرا لك.

اقتربت منها أكثر ولم أعد أشعر بنظراتِ محبوبة المختلسة، أفضيتُ بما في جعبتي:

- إنّي قد أعطيت لنفسي فرصةً جديدةً وأريدك بجواري برغبتي وإرادتي لست مرغمًا. فما رأيك أن نبدأ صفحةً جديدة؟

أومأت موافقةً فاقتربت منها وأخذتها في طوقي، سارت الدماء في عروقي وشعرت بنبض قلبي المتسارع، شعرت بإبراهيم القديم، صحيح إنّني لم أستعده ولكنّي شعرت به وأظن أن هذا كفيل بتفاؤل.

فَدَعني مِنَ المَنِّ الوَخيمِ فَلُقمَةٌ

مِنَ العَيشِ تَكفيني إِلى يَومِ تَكفيني

(٧٧)

في الأول من رمضان انتقلت أمي إلى الرفيق الأعلى. لم تكن وفاتها بالمفاجئة لنا وخصوصا بعد الصرّاع الطويل مع المرض. فقد أصيبت بداء النقطة مثل جدتي نجيمة رحمها الله. شحب وجهها وخسرت وزنها، فأصبحت عظامها بارزة وتحولت لامرأة أخرى من الصعب التعرّف عليها، ثم شلّت عن الحركة وبقيت طريحة الفراش إلى أن أفضت روحها في آناء الليل. كانت الأيام تمضي

بيسر لولا مباغتة القدر برحيل أمي. شيّعنا جثمانها ودمسناها بجوار أبي كما كانت وصيتها. أقيمت مراسم العزاء وأتى المعزّون من كل صوب.

توالت أيام رمضان بدون أمي. لم أستوعب في البداية كيف لرمضان أن يمضي بدون روحها الّتي تبثّ البيت بالحياة؟ ازدادت أيامي حزنا لكن سارة كانت لي خير معين. قد شعرت بحنيّة الفقيدة فيها وهي تأخذني في حضنها وتواسي أوجاعي. ولولا نبض أمي الذي يسري فيها لكنت قد انتحرت ولحقت بمن سبقوني من أحبابٍ. قضيت رمضان بصيامه وقيامه والفكرة تداعبني. فكرت مليا ووجدت الحل الأمثل في الرحيلِ. بعد أن انصرمت الأربعين أخبرت سارة بما أسره، فألفت منها ترحيبا كالعادة:

- الرأي رأيك وأنا بجوارك حيث ما تذهب

صليت صلاة استخارة فأطمأن قلبي وحلمت بمولانا في الليلة ذاتها. فسعيت للرحيل. وبعد أيّام قليلة بعت منزلنا ومنزل عمي لتاجر من معارف حسن، وتنازلت عن الدّكان لحسن. ودّعت جدي قبل الرحيل فلم يكن منه سوى الدعاء. سلمت على عمتي لطيفة وخالي زكريا وقد لمحت لمعة في عينيه وهو يسلّم عليّ. ودعت أنا وسارة أباها ولم يخلُ اللقاء من البكاء، وفي اليوم التالي ذهبت إلى محبوبة وعبد السلام وأبي وأمي أودّعهم على أمل اللّقاء القريب. وبعد صلاة الظهر التقيت بحسن أمام البيت. فقال حسن بحزن وهو يحضنني:

- هل ستقدر على فراقي يا إبراهيم؟

أجبته بعينين مغرقتين ورعشةٍ تسري في أطرافي:

- إنّها سنة الحياة..

جذبني إليه بقوة وقد سالت الدموع رغما عنه، وقال:

- كان يوما أسود عندما التقيت بك، ياليتني لم أتعرف عليك أيها اللعين.

ابتعد عني وهو يربت على صدري ويقول:

- ومن قال إنّني سأحزن على فراقك.. اذهب إلى الجحيم يا إبراهيم

استطرد وهو يمسح دموعه:

- إلى أين ستتجه؟

أجبت بتردد:

- لا أعرف بالضبط، سأذهب شرقا ربما الإسكندرية أو دمشق

قال بحنق:

- هيّا أذهب، إنّني لا أحب لحظات الوداع.

تراجع وهو يذرف دموعه ثم اختفى في الزقاق، ولجت سارة الهودج بعد أن ثبّتت الأغراض في الدابة، أمسكت بالأخرى ورحت أتحرك.

اخترقت الأزقة والشوارع للمرة الأخيرة. تمعّنت النظر في ذكرياتي التي تركض هنا وهناك. لابد أني قد لعبت في إحدى هذه الأزقة ذات يوم، وها أنا أغادرها بلا عودة، ودّعت الأقواس الملونة، وتوسلت للعرائش الخضراء كي لا تنساني أو تمحو ذكراي. تضرّعت للمساجد والزوايا مستحضرا عبادة قد أقمتها ذات يوم بداخلها. ابتهلت صرخات الباعة والجوقة الّتي يكونوها. رجوت جلبة الشوارع بأن تبقى كما هي ولا تتغير. استدعيت كل ما مضى وأنا أعبر البوابة العتيقة. قلت لنفسي لحظتها: هل سيذكر أحدٌ وجودي؟ هل ستحفظ تضحيتي في الذاكرة؟ هل ستعي الأجيال القادمة أوجاعي في سبيل هذه الأرض؟

شيّعت كل ذكراي ورحت أخطو بمحاذاة البحر. لامست قدماي تراب المنشية وظهرت عرجتي علامةً للماضي. توقفت للحظات وأنا أحدّق في الأسوار الّتي زينت الأفق. حفظت تفاصيلها لأطول فترة ممكنة، سأستحضرها عندما يجتاحني الحنين ثم أنظر لقدمي العرجاء وعيني الفقيدة لأعرف أنّ المدينة البيضاء هي مصدر كل شيء. غصت في الرمل وأشعة الشمس تلفح رأسي وأنا أردد كلمات قد قيلت منذ أمد بعيد فحفظتها عن ظهر قلب:

يكون إماما بعقله أو بسيفه لا يعلم الغيب سواه..

يُحلق في الأفق عليا وأخاف أن يقع ويعلق بمشكاة..

أبن بار لأبيه لكنه ليس للغيب بعلام..

تأسر عينه البعيد قبل القريب وكم من قريب لم يكن له بال..

كل شيء مكتوب ومحفوظ ولن يستطيع ابن خديجة بدك الجبال.

-تمت-

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على هامش الرواية

استرشدت في كتابة هذه الرواية التي تدور أحداثها في عصور تاريخية متباينة بعدد من الكتب والدراسات، ومن حق القارئ بمقارنة الحقيقة بالخيال وأن يطلع عليها ويشترك معي في بعض الخواطر حولها:

١ – هناك أحداث لا حصر لها من تأليفي وليس لها أي ثوابت تاريخية.

٢ – توجد شخصيات حقيقة قد أتى ذكرها في الرواية، وليس بالضرورة بأن تكون كما سردت في المصادر التاريخية.

٣ – إن كتاب (عشرة أعوام في طرابلس) للآنسة توللي هو أهمّ مداخلي لتلك الفترة المبهمة الشيقة.

٤ – وكتاب (المستعمل من الألبسة الشعبية في طرابلس) للأستاذ سالم شلابي قد أوفاني بمعلومات جللة لم أكن أدركها حتى بدأت العمل في هذه الرواية.

٥ – وكان كتاب (انهيار حكم الأسرة القرمانلية) للأستاذ عمر علي بن إسماعيل، خير دليل أثناء أبحاري في تاريخ طرابلس المظلم.

٦ – وأضاف كتاب (أسرار طرابلس) للكاتب مابل لموس تود بعض المعلومات رغم اختلافي الكبير في نقاط جوهرية مع مؤلفه.

٧ – ولا أنسى ذكر مقالة الأستاذ جمال الهمالي اللافي والتي كانت بعنوان (أنماط البيوت التقليدية في ليبيا)

محمد عادل حمودة

إسطنبول

٤ أكتوبر ٢٠١٩

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

إهداء..

(المقدّمة)
(الفصل الأول)
(الفصل الثاني)
(الفصل الثالث)
(الفصل الرابع)
(الفصل الخامس)

على هامش الرواية

Notes

[←1]

(1) بالك: كلمة محلية تفيد التحذير.

(2) الفرملة: هي سترة بدون أكمام، تغشى الظهر والجنبين. [←2]

[←3]

(3) الزبون: تغشى هذه السترة الظهر والجنبين، فيما لا تغشي الصدر لكونها بدون أزرار ولا تقفل من الأمام.

(4) مصطلح دارج تلك الفترة. [←4]

(5) قبيلة من ابتداع الكاتب [←5]

[←6]
(6) الجرد: ويعرف بالحولي أيضًا، هو لباس رجالي ينسج بواسطة النول، وهذا النوع من الأردية يعد من أقدم الألبسة المعروفة في المنطقة

[←7]

(7) التستمال: هو المنديل الذي تستعمله المرأة في المدينة لغطاء شعر رأسها.

[←8]

(8) السدة: هي محكة للسرير ذلك الوقت وهي عبارة عن فراش مرتفع بضعة أقدام مصنوع من الخشب .

[←9]

(9) السورية: هي قميص بلدي معروف في المدينة والبادية. والزفاير هي أحد أنواعها.

(10) المعرقة: هي نوع خفيف من أغطية الرأس. [←10]

[←11]

(11) العالة: تتكون من مجموعة أدوات والأغراض، ومنها إعداد كوب شاي بكل المقاييس ابتداءً من الأدوات التي سيعد بها مرورًا بطريقة الإعداد إلى ما يرافق هدا الكوب من حلويات.

[←12]

(12) اللة: كلمة تطلق على سيدات الطبقة العلية تلك الفترة.

[←13]

(13) البتات: هو جهاز العروس.

[←14]

(14) الساندانار: كلمة تعنى مركز الشرطة.

(15) أكلة شعبية مشهورة. [←15]

(16) عربة التنقل ذاك الوقت. [←16]

[←17]

(17) مصطلح شائع تلك الفترة بمعنى المرسال الذي يرسله السلطان.

[←18]

(18) مشروب خمري محلي يستخرج من الأشجار.

[←19]

(19) المطلع: هو السلم المؤدى إلى باب السطح ويعرف بحجرة الدرج.

[←20]

(20) الكراغلة: كلمة تركية وتعني «أبناء رقيق» أو «ابن العبد» وهي كلمة تُستعمل للإشارة إلى الأبناء المختلطين للأتراك العثمانيين ومواطنين شمال أفريقيا.

[←21]

(21) أورطة باشي: رتبة في الجيش العثماني وتعنى قائد الكتيبة.

[←22]

(22) الشركس: هم مجموعة شعوب تشمل سكان شمال القوقاز من: الأديغة والأبخاز والأوبيخ والشيشان.

[←23]

(23) رتبة عثمانية تعادل الرقيب في الوقت الحالي.

(24) كلمة تركية تعني أمتعة. [←24]

[←25]

(25) الخواجة: لقب يطلق على الرجُل الغربيّ أو الأجنبيّ عادةً.

[←26]

(26) هي قبعة أوربية تصنع من القماش أو الجوخ.

(27) غرفة الاستقبال في اللهجة المحلية [←27]

(28) بما يعرف بدولة موريتانيا حديثًا. [←28]

[←29]

(29) تعني أمين بيت المال.

[←30]

(30) كلمة تركية تعني رئيس البحر.

[←31]

(31) حامل الأمتعة والزاد الشخصي.

[←32]

(32) الفراشية: هي لحاف صوفي يغطي كامل جسد المرأة.

[←33]

(33) التبمبيك: هو تغطية المرأة لكامل وجهها بالفراشية ولا تظهر منها إلا عين واحدة للنظر من خلال فتحة صغيرة جدًا، ويقال للمرأة التي تلبس الفراشية بهذه الصورة (امبمكة).

[←34]

(34) رتبة عثمانية تعني قائد المئة وهو ما يعدل النقيب في الوقت الحالي.

[←35]

(35) البخنوق: غطاء تلبسه المرأة في رأسها.

[←36]

(36) رتبة عثمانية تساوي النقيب في الوقت الحالي.

[←37]

(37) خوجة: كلمة تركية تعنى المعلم.

[←38]

(38) العصبة: هي غطاء تستعمله المرأة وخصوصًا خرج المدينة.

[←39]

(39) المريول: هو قميص داخلي من القماش الأبيض له رقبة مطرزة.

[←40]

(40) الخمارة.

[←41]

(41) الشلاكة: هي الحذاء البالي القديم.